جورج سيمنون

استخدم التحليل النفسي للجريمة وللمجرمين ببراعة تامة عده النقاد دستيوفسكي العصر. بيع منها أكثر من مليار نسخة.

أشباح صانع القبعات

أثر

ترجمة
د. نادين حمادة

وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

أشباح القبعاتي

متبوعة بـ

الخياط الصغير و القبعاتي

أيام الرجل الفقير الأربعة

أعمال مختارة

(3)

جورج سيمنون

ترجمة: د. أنطون حمصي

أشباح القبعاتي

متبوعة بـ

الخياط الصغير والقبعاتي

أيام الرجل الفقير الأربعة

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب

أعمال مختارة

(٣)

جورج سيمنون

أشباح القبعاتي

متبوعة بـ

الخياط الصغير والقبعاتي

أيام الرجل الفقير الأربعة

ترجمة: د. أنطون حمصي

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١١م

العنوان الأصلي للكتاب

GEORGES SIMENON

Œuvres complètes

Les Fantômes du Chapelier

suivi de

Le Petit Tailleur et le Chapelier

avec un Avant – propos de Gilbert Sigaux

Les Quatre Jours

du Pauvre Homme

أشباح القبعاتي؛ الخياط الصغير والقبعاتي؛ أيام الرجل الفقير الأربعـــة:/ جورج سيمنون؛ ترجمة أنطون حمصي .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١م .- ٤٤٠ ص؛ ٢٤ سم.

(أعمال مختارة؛ ٣)

١ - ٨٤٣ ف س ي م أ ٢ - العنوان (١) ٣ - العنوان (٢)
٤ - العنوان (٣) ٥ - سيمنون ٦ - حمصي ٧ - السلسلة

مكتبة الأسد

أشباح القبعاتي

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب

كلمة أولى

«أشباح القبعاتي» التي كتبها جورج سيمنون في توما كاكوري (أريزونا) في بداية شهر كانون الأول ١٩٤٨ - هي رواية تستعيد وتوسع موضوعاً عولج في قصة «الخياط الصغير والقبعاتي» التي كتبت في آذار ١٩٤٧ في برادتون بيتش (فلوريدا) والمعالجتان مختلفتان جداً، بل وتتضمنان عناصر متعارضة جذرياً. ويمكن للقارئ المتنبه أن يتابع، بالانتقال من القصة إلى الرواية، هذا التضخيم، هذا الإثراء، هذا الانتقال من مستوى إبداعي إلى مستوى آخر.

وقد عرفت قصة «الخياط الصغير والقبعاتي» صياغتين. الأولى كانت بعنوان «طوبى للبسطاء» وترجمت إلى الانكليزية وفازت بجائزة المسابقة السنوية للقصص البوليسية التي تنظمها مجلة «ايلري كوين» ونشر في عدد نيسان ١٩٤٩ من هذه المجلة ونشرت الطبعة الفرنسية للمجلة الأمريكية في عدد أيار ١٩٤٩ النص الفرنسي لهذه الصيغة. وهذه الأخيرة التي وردت في هامشها عبارة «طوبى للودعاء لأنهم سوف يملكون الأرض» تختلف عن الصيغة السابقة في ثلاثة أمور: الأول هو أنه ليس للفصول الأربعة عناوين، والثاني هو أن بضعة تصحيحات أسلوبية لا أهمية لها، جاءت الفصول الثلاثة الأولى، والثالث هو أن الفصل الرابع يقترح خاتمة مختلفة اعتباراً من اللحظة التي غادر، فيها، كاشودا الأم المقدسة أورسولا.

ولهذا السبب، نقدم بعد الصيغة الأصلية لقصة «الخياط الصغير والقبعاتي» الصفحات الأخيرة من «طوبى للبسطاء».

(١)

كان يوم الثالث من كانون الأول، وكانت السماء لا تزال تمطر. كان الرقم ٣ يبرز ضخماً، أسود جداً، مع شيء يشبه بطناً كبيراً، على اللون الأبيض الفج للتقويم المثبت على يمين الصندوق، مقابل الحاجز المصنوع من السنديان القاتم الذي يفصل المخزن عن واجهة المعروضات. مضى بالضبط عشرون يوماً، على اعتبار أن ١٣ تشرين الثاني - ٣ أخرى بدينة على التقويم - هو الذي قتلت، فيه، أول عجوز قرب كنيسة المخلص الأقدس على مسافة بضع خطوات من القناة.

إلا أن المطر كان ينهمر منذ ١٣ تشرين الثاني. كان يمكن تقريباً أن يقال إن المطر كان يهطل دون انقطاع منذ عشرين يوماً. وفي معظم الأحيان كان مطراً يستمر طويلاً ويطرطش عند اصطدامه بالأرض وكان المرء، عندما يركض في المدينة متلطياً بالبيوت، يسمع الماء يسيل من الميازيب، يختار الأزقة ذات القناطر ليكون في مأمن لبرهة. كان يبدل حذاءه عندما يعود إلى بيته. وكانت، في كل البيوت، معاطف وقبعات تجف قرب المدفأة، والذين يفتقرون إلى ملابس بديلة يعيشون في رطوبة باردة أبدية.

كان الظلام يحل قبل الساعة الرابعة بكثير، وكانت بعض النوافذ مضيئة من الصباح إلى المساء.

كانت الساعة قد بلغت الرابعة، وكان السيد لابيه، ككل بعد ظهيرة، قد غادر خلفية المخزن الذي اصطفت، فيه، على الرفوف رؤوس خشبية من كل القياسات. تسلق الدرج الحلزوني في آخر المحل. توقف لحظة على المنبسط، أخرج مفتاحاً من جيبه وفتح باب الغرفة ليدخل النور.

هل مشى، قبل أن يدير القاطع الكهربائي، إلى النافذة ذات الستائر المخرمة، السميكة، المغبّرة التي كانت مسدلة دائماً؟ الأمر محتمل لأنه كان يرخي الستارة المعدنية، عادة، قبل أن يشعل النور. في هذه اللحظة، استطاع أن يرى، تجاهه، على مسافة بالكاد تبلغ بضعة أمتار منه، كاشودا، الخياط في ورشته. كانت من القرب، والطريق من الضيق بحيث كان المرء يحسب أنهما يعيشان في البيت نفسه.

لم تكن لورشة كاشودا الواقعة في الطابق الأول، فوق دكانه، ستائر. كانت أدنى التفاصيل ترتسم، كما لو كان ذلك على منقوشة بالإزميل، أزهار ورق الجدران، بقع الذباب على المرآة، قطعة الطبشور المسطحة والدهنية التي تتدلى من خيط، باترونات الورق الأسمر المعلقة على الجدار وكاشودا الجالس أمام طاولته وقد طوى ساقيه تحته مع مصباح كهربائي دون عاكس للنور في متناول يده كان يقربه من عمله بواسطة سلك معدني. كان الباب البعيد الذي يؤدي إلى المطبخ منفرجاً دائماً، لكن ليس إلى درجة تكفي، في معظم الأحيان، لرؤية داخل الغرفة، ومع ذلك، كان يتبين حضور السيدة كاشودا لأن شفتي زوجها كانتا تتحركان. من وقت إلى آخر كانا يتحدثان، من غرفة إلى أخرى وهما يعملان.

كان السيد لابيه قد تكلم بدوره: فمستخدمه فالانتان الذي كان يقف في المخزن سمع تمتمة صوت وخطى فوق رأسه. ثم رأى القبعاتي يهبط من جديد: قدماه في حذائين فاخرين أولاً، ثم البنطال، فالسترة، وأخيراً دون مبالغة، دون قسوة، وجه رجل مكتفٍ بذاته، لا يحس بحاجة إلى عرض نفسه للعيان.

كان السيد لابيه قد كوى، في هذا اليوم، أيضاً، قبل أن يخرج، قبعتين إحداهما قبعة العمدة الرمادية، وخلال هذا الوقت، كان يسمع، في الطريق، المطر، الماء يتدفق من الميزاب وصفير مدفأة الغاز الخفيف في المطبخ.

كانت الحرارة فيه، أعلى مما ينبغي دائماً. فمنذ وصول فالانتان، في الصباح، كان الدم يصعد إلى رأسه، وكان رأسه يتثاقل بعد الظهر. وكان، أحياناً، يرى في المرايا المعلقة بين الرفوف، عينيه اللامعتين كما لو كانتا محمومتين.

لم يزد كلام السيد لابيه عما كان عليه في الأيام الأخرى. كان يستطيع أن يبقى ساعات مع مستخدمه دون أن يقول شيئاً. وكان هناك حولهما، أيضاً، صوت نواس الساعة وطقة كل ربع ساعة. وكانت الآلية تنطلق عند الساعات وأنصافها، لكنها كانت، بعد جهد عاجز، تتوقف تماماً: فلا شك في أنه كان للساعة، في الأصل، جرس كان قد تعطل.

وإذا لم يكن الخياط الصغير يستطيع أن يرى داخل غرفة الطابق الأول - بسبب الستائر، نهاراً، وبسبب الساتر المعدني مساءً، فلم يكن عليه سوى أن يحني رأسه ليغوص بنظرته في مخزن القبعات.

من المؤكد أنه كان يراقب. لم يكن السيد لابيه يتجشم مشقة التأكد من ذلك، ولكنه كان يعلم. لم يغير شيئاً من جدوله الزمني لهذا السبب. بقيت حركاته بطيئة ودقيقة. كانت له يدان جميلتان جداً، سمينتان قليلاً، لونهما الأبيض مدهش.

غادر في الساعة الخامسة إلا خمس دقائق غرفة المخزن الخلفية التي كانت تسمى ورشة والتي أطفأ النور فيها، وتلفظ بإحدى عباراته الطقوسية:

- أنا ذاهب لأرى ما إذا كانت السيدة لابيه تحتاج إلى شيء.

ومن جديد، صعد السلم الحلزوني.

سمع فالانتان خطواته فوقه وتمتمة أصوات خافتة، ثم رأى، من جديد، القدمين، الساقين، الجسم كاملاً. فتح السيد لابيه، في العمق، باب المطبخ وقال للويز:

- سأعود مبكراً. سيتولى فالانتان إغلاق المخزن.

كان يقول الكلمات نفسها كل يوم، وكانت الخادمة تجيب قائلة:

- حسناً يا سيدي.

ثم كان، وهو يرتدي معطفه الأسود السميك، يكرر لفالانتان الذي كان، مع ذلك، قد سمع:

- نعم ياسيدي، مساء الخير يا سيدي.

- مساء الخير فالانتان.

أخذ نقوداً من درج الصندوق واستمر في التباطؤ، قليلاً، وهو ينظر إلى النوافذ المقابلة. كان واثقاً من أن كاشودا الذي كان قد رأى، قبل قليل، ظله على الستار المعدني في الطابق الأول، قد نزل من على طاولته.

ماذا كان يقول لزوجته؟ ذلك أنه كان يقول لها شيئاً. كان في حاجة إلى عذر. لم تكن تطلب منه شيئاً. لم تكن تسمح لنفسها بأن توجه إليه ملاحظة. منذ سنوات، كان يذهب، في حوالي الساعة الخامسة من بعد الظهر، ليشرب كأساً أو اثنين من النبيذ الأبيض في مقهى الأعمدة. السيد لابيه كان يذهب إليه، هو أيضاً، كما يذهب إليه آخرون لم يكونوا يكتفون بالنبيذ الأبيض ولا بكأسين. كانت تلك، بالنسبة لمعظمهم، نهاية اليوم. وكان كاشودا، بدوره، يتعشى بسرعة، وسط أسرته ويتسلق، من جديد، طاولته التي كان غالباً ما يبقى عليها يعمل حتى الساعة الحادية عشرة أو حتى منتصف الليل.

- أنا ذاهب لتنشق الهواء برهة.

كان يخشى جداً أن يخطئ السيد لابيه. وكان هذا الأخير قد فهم ذلك. لم يكن هذا يعود إلى العجوز الأولى المقتولة، بل إلى الثالثة، حين بدأت المدينة في الهلع جدياً.

كان شارع ميناج مقفراً تقريباً في هذه الساعة دائماً، خاصة عندما كانت السماء تمطر سيولاً. وزاد إقفاره منذ أن أصبح كثير من الناس يتجنبون الخروج بعد حلول الليل. كان التجار الذين كانوا أول من تضرر من الذعر هم، أيضاً، أول من نظم دوريات. ولكن، هل نجحت هذه الأخيرة في منع موت السيدة جوفروا - لامبير وموت السيدة ليونيدبرو، قابلة فيتيي؟

كان الخياط الصغير خوافاً، وكان السيد لابيه يمنح نفسه متعة خبيثة في انتظاره دون أن يبدو عليه ذلك. ألم تكن متعة شيطانية؟

فتح، أخيراً بابه الذي جعل بذلك جرسه يرن. مر تحت القبعة العالية الضخمة المصنوعة من الصفيح الأحمر التي كانت شعاراً له، ورفع ياقة

معطفه وغاص بيديه في جيبيه. كان هناك، أيضاً، جرس على باب كاشودا، وكان السيد لابيه واثقاً من سماعه بعد بضع خطوات على الرصيف.

كان زقاقاً بقناطر كمعظم طرقات لاروشيل القديمة. لم يكن المطر يسقط على الأرصفة إذن. كانت هذه الأخيرة بمثابة أنفاق باردة، رطبة لم يكن، فيها، نور إلا بصورة متباعدة مع بوابات تنفتح على الظلام.

كان كاشودا يضبط، كي يصل إلى ميدان السلاح، خطوته على خطوة القبعاتي، ولكنه كان يخشى من كمين إلى حد كان يفضل، معه، على الرغم من كل شيء، أن يمشي تحت المطر وسط الطريق.

لم يصادفا أحداً حتى الزاوية ثم جاءت واجهات بائع العطور والصيدلية ومتجر القمصان، وأخيراً فتحات المقهى الواسعة. كان جانتيه، الصحفي الشاب، بشعره الطويل ووجهه النحيل وعينيه المتقدتين، في موقعه، على الطاولة الأولى، قرب الزجاج، يكتب مقالته أمام كوب من القهوة.

لم يبتسم السيد لابيه، لم يبد عليه أنه رآه. كان يسمع خطوات الخياط الصغير التي كانت تقترب. أدار مقبض الباب ودخل في الحرارة الطيبة، وسار، مباشرة، نحو طاولات الوسط، قرب المدفأة، بين الأعمدة، وبقي واقفاً وراء لاعبي الورق في حين كان النادل، غبرييل، ينزع عنه معطفه وقبعته.

- كيف حالك ياليون؟

- لا بأس.

كانوا متعارفين منذ زمن - معظمهم منذ المدرسة - أطول من أن يحسوا برغبة في تبادل الكلام. الذين كانوا يمسكون بالورق أبدوا إشارة خفيفة أو لامسوا، آلياً، يد الوافد الجديد. سأل غبرييل، بحكم العادة:

- كالعادة؟

وجلس القبعاتي مع تنهدة ارتياح وراء أحد لاعبي البريدج، الدكتور شانترو الذي كان يدعوه بول. من نظرة واحدة عرف أين صارت اللعبة؟ كأنها كانت مستمرة منذ سنوات على اعتبار أنها كانت تستأنف كل يوم، في

الساعة نفسها، على الطاولة نفسها، مع المشروبات نفسها أمام اللاعبين أنفسهم والغلايين نفسها، والسيغارات ذاتها.

لا بُدّ أنّ التدفئة المركزية لم تكن كافية على اعتبار أن أوسكار، صاحب المقهى، احتفظ بالمدفأة الضخمة ذات اللون الأسود الجميل البراق التي مد نحوها السيد لابيه ساقيه ليجفف حذاءيه وأسفل بنطاله. تسنى للخياط الصغير الوقت كي يدخل ويتجه نحو طاولات الوسط، هو أيضاً، ولكن ليس بالثقة نفسها، ثم ليحيي باحترام دون أن يرد عليه أحد، ويجلس على كرسي.

لم يكن من المجموعة. لم يكن قد ارتاد المدارس نفسها، ولا الثكنات نفسها وفي العمر الذي كان لاعبو الورق، فيه، قد رفعوا الكلفة بينهم، كان يعيش في مكان لا يعرفه إلا الله، في الشرق الأدنى حيث كان الناس من نوعه ينتقلون كالماشية من أرمينيا إلى سميرنة، من سميرنة إلى سورية، إلى اليونان أو غيرها.

في البداية، قبل بضع سنوات، كان يجلس في مكان أبعد قليلاً ليشرب نبيذه الأبيض ويتابع اللعبة التي لا بُدّ أنه لم يكن يعرفها بانتباه مستمر يجعل جبينه يتغضن. ثم اقترب بصورة غير محسوسة دافعاً، في البدء، كرسيه ثم مبدلاً المقعد صراحةً والطاولة، أخيراً، ليجد نفسه وراء اللاعبين.

لم يكن أحد يتحدث عن العجائز ولا عن الرعب الذي كان يسود المدينة. ربما كان ذلك يناقش على طاولات أخرى لا على هذه. سحب لود، السيناتور، غليونه من فمه ليسأل، وهو يكاد يلتفت نحو القبعاتي:

- ماذا عن زوجتك؟

- مازالت على ما هي عليه.

كانت تلك عادة اتخذها الناس منذ خمسة عشر عاماً. قدم له غبرييل كأسه من البيكون بالرمان بلون الأكاجو القاتم وشرب منه رشفة، ببطء، مع نظرة نحو جانتيه الشاب الذي كان يبيض مقالته لجريدة «صدى الشارانت».

كانت ساعة بإطار مطوق بالنحاس تتدلى بين المقهى الحقيقي والقسم البعيد من القاعة حيث كانت تصطف طاولات البليار. كانت تشير إلى الخامسة والربع عندما توجَّهَ جوليان لامبير، موظف التأمين الذي يخسر كعادته، بسؤالٍ إلى القبعاتي:

- هل تأخذ مكاني؟

- ليس هذا المساء...

وكانت إجابة ليس فيها شيء خارق للعادة. كانوا ستة أو سبعة يلعبون الورق، تارة، ويجلسون وراء اللاعبين تارة أخرى. كان كاشودا وحده الذي لم يدع قط إلى اللعب ومن المحتمل أنه لم يكن يطمح إلى ذلك.

كان قصيراً ونحيلاً. رائحته كريهة، ويعرف ذلك إلى حد كان يتجنب معه أن يقترب أكثر مما ينبغي من الآخرين. كانت رائحة لا تخص إلا إياه وأسرته يمكن أن تسمى الرائحة كاشودا، مزيج من ثوم مطبخهم ومصالة الأقمشة. هنا لم يكن يقال شيء، كانوا يتظاهرون، بأدب، بأنهم لا يلاحظون، ولكن بنات أقل تحفظاً في المدرسة، كنّ يبدين احتجاجهن عندما يوضعن إلى جانب الابنتين كاشودا:

- تفوح منك رائحة نتنة! تفوح من شقيقتك رائحة نتنة! جميعكم تصدرون رائحة نتنة!

دخن إحدى سجائر اليوم النادرة لأنه لم يكن يستطيع أن يدخن وهو يعمل دون أن يجازف بإحراق ملابس الزبائن. كان يلف سجائره بنفسه وكانت هناك، دائماً، بقعة لعاب عريضة على أطرافها.

كان ذلك اليوم الثالث من كانون الأول. كانت الساعة الخامسة والربع، وكانت السماء تمطر، وكانت الطرقات سوداء. جو المقهى كان حاراً، وكان السيد لابيه، قبعاتي شارع ميناج، ينظر إلى لعب الدكتور الذي كان قد اشترى خمسة ضروب سباتية تحداها موظف التأمين بتهور.

سوف يعرف، صباح الغد، لدى قراءة الجريدة، ما كان يكتبه الفتى جانتيه حول العجائز المقتولات لأنه كان يقوم بتحقيق متحمس، بل وأبدى نوعاً من التحدي للشرطة.

رب عمله، جيروم كاييه، صاحب المطبعة الذي كان يدير الجريدة، كان يلعب البريدج بهدوء دون أن يقلقه شأن الشاب المتحمس الذي سوف يقرأ مقالته حين يعود، بعد قليل.

كان شانترو قد أتى على الإلقاء بأوراقه الرابحة وكان مهدداً بالمأزق الحاسم عندما رأى السيد لابيه، دون حاجة إلى أن يلتفت، كاشودا يقف نصف وقفة، دون أن يفقد اتصاله بكرسيه، وينحني نحوه ويمد ذراعه كما لو كان ذلك ليلتقط شيئاً من نشارة الخشب التي كانت تغطي الأرضية.

لكن شأنه كان، مع بنطال صانعِ القبعات. كانت عين الخياط، لديه، قد لاحظت نقطة صغيرة بيضاء قريبة من مقلب الساق. لا شك في أنه ظن أن هذا خيطاً. لم تكن لديه، بالتأكيد، نوايا سيئة. وحتى لو كانت لديه هذه النوايا، فإنه، ما كان ليستطيع أن يخمن أهمية حركته.

ولم يخمن هذه الأهمية، أيضاً، السيد لابيه الذي تركه يفعل وقد فاجأه الأمر قليلاً، لكنه لم يكن قلقاً أبداً.

- اعذرني.

كان كاشودا يمسك بالشيء الأبيض الذي لم يكن خيطاً، بل قطعة صغيرة من الورق يكاد طولها أن لايتجاوز نصف سنتمتر من ورق خفيف وخشن كورق الصحف.

لم يبد أحد في المقهى أدنى انتباه إلى ما كان يجري. كان كاشودا يمسك بقطعة الورق بين إبهامه وسبابته. وكانت مصادفة، حقاً، أن يكون قد ألقى عليها نظرة وهو محني الجسم مخفوض الرأس، وطرف ردفيه ما زال يلامس كرسيه. إلا أن ذلك لم يكن سوى قطعة من جريدة كان قد اقتطع بعناية بواسطة مقصات، بالضبط، حرفان، حرف «n» وحرف «t» في نهاية كلمة.

نظر السيد لابيه من أعلى إلى أسفل، وتجمد الخياط الصغير فجأة ورفع، أخيراً، وقد استولى عليه الهلع، رأسه واستقام بجذعه وتجنب النظر إلى القبعاتي الذي مد إليه الشيء الصغير وهو يقول متلعثماً:

- اسألك العفو.

وبدلاً من أن يلقي بقطعة الورق، أعادها إليه، وكانت تلك غلطة لأنه كان يعترف، على هذا النحو، بأنه قد فهم أهميتها. ولأنه كان حيياً ومندوراً للمذلة، اقترف غلطة أخرى عندما بدأ جملة لم يجرؤ على إكمالها:

- خيل إليّ....

لم يكن يرى شيئاً خلاف كراس وظهور وقماش ونشارة خشب على الأرض وقوائم المدفأة السوداء، في ضباب مضيء، وسمع صوتاً وقوراً وهادئاً يقول:

- شكراً يا كاشودا.

ذلك، أنهما كانا يتبادلان الكلام. ففي كل صباح، كان القبعاتي والخياط يخرجان من بيتيهما ليسحبا الألواح الخشبية التي كانت بمثابة مصاريع لدكانيهما. كان دكان اللحام المجاور لكاشودا يفتح قبلهما بكثير. في أيام السبت، كانت مزارعات الجوار اللواتي لديهن خضار أو طيور للبيع يزحمن الشارع بسلالهن، ولكن البلاط كان وحده في الأيام الأخرى الذي يفصل بين الرجلين.

وكان كاشودا قد اعتاد على القول:

- نهارك سعيد يا سيد لابيه.

وكان يضيف حسب منظر السماء:

- الطقس جميل اليوم.

أو:

- ما زالت السماء تمطر.

وكان القبعاتي يجيب ببساطة:

- نهارك سعيد يا كاشودا.

كان ذلك كل شيء. كانا تاجرين يتقابل دكاناهما.

هذه المرة، أتى السيد لابيه على القول:

- شكراً يا كاشودا.

كان الصوت نفسه تقريباً. ربما كان الصوت نفسه، تماماً، على الرغم مما كان هناك من شيء مخيف في اكتشاف الخياط الصغير.

ساورت كاشودا رغبة في أن يشرب كأسه دفعة واحدة. كانت الكأس تصطك على أسنانه. كان يحاول أن يفكر سريعاً جداً، أن يفكر تفكيراً صائباً. وكلما بذل جهوداً زادت أفكاره اختلاطاً. لم يكن ينبغي، خاصة، أن يدير رأسه إلى اليمين. هذا الأمر قرره منذ اللحظة الأولى.

على طاولة الوسط، طاولة السناتور وصاحب المطبعة والطبيب والقبعاتي، كان هناك رجال تتراوح أعمارهم بين الستين والخامسة والستين، أهم الرجال جملة، إلا أنه كان هناك، على طاولات أخرى، لاعبون آخرون، وخاصة، إلى اليمين، لاعبو البيلوت الذين كانوا يمثلون جيل الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين الأربعين والخمسين. إلا أنه كان يمكن أن يرى على هذه الطاولة، بين الخامسة والسادسة، دائماً تقريباً، المفوض الخاص بيجاك، المكلف بالتحقيق في موضوع العجائز.

كان على كاشودا أن يتجنب، بأي ثمن، النظر إلى جهته. لكنه لم يكن، كذلك، يستطيع الالتفات نحو الصحفي الشاب الذي كان لايزال يكتب. لا شك في أن جانتيه كان مشغولاً مرة أخرى، بالرد على إحدى رسائل القاتل.

في عشرين يوماً، تَوَفّر الوقت لكي يصبح الأمر عادة، تقليداً تقريباً. كانت الجريدة تتلقى، بعد كل جريمة، رسالة، كلمات كاملة في أغلب الأحيان، أحرفها مقتطعة من الأعداد السابقة لجريدة «صدى الشارانت» التي كانت

تنشرها متبوعة بتعليق لجانتيه الشاب. وغداة هذا النشر، أو بعد يومين، كان القاتل يرد بدوره، بواسطة أوراق صغيرة مقتطعة وملصوقة على ورقة بيضاء دائماً.

عشية ذلك اليوم، بالضبط، كانت الرسالة تتضمن عبارة تجمد معها الخياط الصغير فجأة.

«*أنت واهم أيها الفتى. أنا لست جباناً. ليس الباعث على مهاجمتي العجائز الجبن، بل الضرورة. وإذا تبدت، غداً، ضرورة مهاجمتي لرجل، فسوف أفعل ذلك حتى لو كان كبيراً وقوياً*».

بعض الرسائل التي كانت تبلغ نصف عمود كانت تمثل مئات من الحروف المقتطعة بصبر، وهو ما جعل جانتييه يكتب:

«لا يقتصر الأمر على كون القاتل صبوراً ودقيقاً، بل إن نوع حياته يدع له، أيضاً، كثيراً من أوقات الفراغ».

الصحفي البالغ من العمر تسعة عشر عاماً، الصبور بدوره، أجرى تجربة. حدد الوقت اللازم لتأليف رسالة من ثلاثين سطراً بواسطة حروف مقتطعة من جرائد قديمة. لم يعد كاشودا يتذكر النتيجة بالضبط، لكنها كانت مخيفة.

«*وإذا تبدت، غداً ضرورة مهاجمتي لرجل....*».

كان أحدهما يدخن غليونه بسحبات صغيرة وهو ينظر إلى لعب الورق، وكان للآخر عقب سيجارة قذرة ملتصق على شفته ولا يجرؤ على تثبيت نظرة على أي مكان. كان السيد لابيه يلقي أحياناً بنظرة إلى الساعة، ولم تكن تشير سوى إلى الخامسة وخمس وعشرين دقيقة حين طلب كأس البيكون الثانية. وبلغت الساعة الخامسة والنصف عندما نهض، وهو ما كان كافياً لأن يهرع غبرييل حاملاً معطفه وقبعته.

هل كان يفحص، حقاً، كاشودا بعطف ساخر؟ كانت هناك سحابة من الدخان تنتشر فوق رؤوس اللاعبين. كانت المدفأة تبعث بنفحات حارة.

كأنّ لابيه كان ينتظر أن يخمن بالضبط ما كان يفكر فيه الخياط الصغير.

«لو تركته يرحل وحده، فإنه يستطيع أن يكمن في زاوية مظلمة من شارع ميناج....»

وماذا لو تحدث كاشودا، فوراً، إلى أي كان، إلى المفوض، أو حتى إلى الصحفي الشاب. ماذا لو صرح وسبابته مصوبة قائلاً:

- إنه هو!

كانت قطعة الورق قد اختفت. بحث كاشودا، عبثاً، عنها بعينيه. تذكر أن القبعاتي دعكها بين أصابعه وصنع منها كرة صغيرة رمادية. وحتى لو كان الحرفان المقتطعان على الأرض، كيف يثبت أنه التقطهما من بنطال السيد لابيه. حتى هذا لن يكفي. كان ذلك صحيحاً إلى درجة لم يبد معها على السيد لابيه اهتماماً، لم يخف، بل قال ببساطة:

- شكراً يا كاشودا!

وكانت هناك عشرون ألف فرنك على المحك، وهي ثروة بالنسبة لخياط لا يعهد إليه إلا بتصليحات أو ببزات لقلبها. وكانت ابنته البكر تعمل بائعة في مخازن «السعر الموحد».

والأمر لا يدور، لكسب عشرين ألف فرنك، حول إطلاق اتهام في الهواء. ولم يكن ينبغي تحذير القاتل.

السيد لابيه يعلم الآن. والسيد لابيه الذي قتل خمس عجائز منذ تشرين الثاني، أي في عشرين يوماً، قادر على التخلص منه.

هل تسنى الوقت لكاشودا كي يفكر في كل هذا؟ لامس القبعاتي أطراف أصابع أصدقائه. كان يقال له:

- مساء الخير يا ليون.

ذلك أنه كان يدعى ليون. ربت على كتف الدكتور الذي كان يوزع الورق ويداه مشغولتان. وغمغم الدكتور:

- أتمنى صحة أفضل لماتيلدا.

كان يمكن للمرء أن يقسم على أنه كان يتباطأ عمداً ليعطي كاشودا الوقت الكافي لاتخاذ قرار. كان وجهه على الحال نفسها التي كان عليها منذ قليل، عندما رآه فالانتان ينزل على الدرج الحلزوني. كان بديناً سابقاً. ربما كان بديناً جداً ثم ذاب. كان ذلك يظهر من خطوطه الرخوة وسمائه الملتبسة. ولا بدّ أنّ وزنه، كما هو، لا يزال ضعف وزن كاشودا.

- إلى الغد.

أتى عقربا الساعة على تجاوز الخامسة والنصف، وما أن أغلق الباب من جديد حتى أخذ كاشودا معطفه من على الكرسي المجاور. كاد ينسى أن يدفع لشدة ما كان يخاف أن يتيسر الوقت اللازم للانعطاف عند زاوية شارع ميناج قبل أن يصبح، هو نفسه، خارجاً. ذلك أن كل الأشراك تصبح، إذ ذاك، ممكنة. ومع ذلك، كان ينبغي، حقاً، أن يعود إلى بيته.

كان السيد لابيه يمشي بخطوته المنتظمة التي لم تكن بطيئة ولا سريعة، وللمرة الأولى لاحظ الخياط الصغير أنه كان خفيفاً جداً، مثل معظم البدينين أو البدينين السابقين وأنه لم يكن يحدث صوتاً وهو يمشي.

انعطف يميناً إلى شارع ميناج. تبعه كاشودا على مسافة عشرين متراً تقريباً ملتزماً، بعناية، وسط الطريق. بذلك سيكون لديه الوقت كي يصرخ عند اللزوم.

كان دكانان أو ثلاثة لا تزال مفتوحة وكانت أنوارها ترى من خلال المطر. كانت كل المساكن، في الطوابق، تقريباً، مضيئة.

كان السيد لابيه يسير على الرصيف الأيسر، رصيف مخزن القبعاتي، لكنه، بدلاً من التوقف عنده، تابع طريقه. أدار رأسه، بعد قليل، وربما كان ذلك ليتأكد من كون جاره لا يزال يتبعه. كان ذلك نافلاً لأن خطوات كاشودا كانت ترن على البلاط.

كان على الخياط الصغير أن يعود إلى بيته. فالطريق كانت سالكة. وكان مخزنه لا يزال مفتوحاً وكان لديه الوقت كي يسحب القفل بسرعة. رأى، من خلال نافذة الطابق الأول، قطعة الطبشور التي كانت تتدلى فوق

الطاولة، قرب المصباح الكهربائي. كانت الصغيرتان قد عادتا من المدرسة. ستعود استير، البكر، بعد السادسة بقليل. راكضة، لأنها، هي أيضاً، كانت تخاف من القاتل، ولم تكن أية رفيقة لها تسكن في الحي.

تابع طريقه. انعطف يساراً كالسيد لابيه، ومرا، برهة، في زقاق معتم. كان مطمئناً أن يرى أشخاص في المخازن، أن ترى بعض السيارات النادرة التي تمر وهي تفجر رقاع الماء.

لم تعد هناك قناطر، وكان السيد لابيه يتلقى المطر على كتفيه. عادت الطريق إلى الظلام. كان القبعاتي يختفي، تارة، ويعود إلى الظهور، تارة أخرى، في دائرة ضوء فانوس، وكان كاشودا يلتزم، بالضبط، وسط الطريق، يحبس أنفاسه مرتعشاً من الخوف، وغير قادر، مع ذلك، على أن يعود أدراجه.

كم دورية متطوعين كانت، في تلك الساعة، في المدينة؟ أربع أو خمس، دون شك، بما فيها فتيان كان ذلك يسليهم، مع مصابيح في جيوبهم. كانت تلك هي الساعة الرديئة. فثلاث من العجائز قتلن بين الخامسة والنصف والسابعة مساءً.

بلغا، واحداً بعد الآخر، حي المتحف الهادئ الذي كانت، فيه، بيوت صغيرة بطابق واحد، ووراء بعض النوافذ. كانت ترى أسر مجتمعة، أطفال يكتبون واجباتهم المنزلية، نساء يحضّرن، منذ ذلك الوقت، المائدة للعشاء.

فجأة، اختفى السيد لابيه في الظلام. توقف كاشودا فوراً كما لو كان قد فاته شيء أساسي: استحال عليه تعيين موقع جاره بسبب الظلمة التي كانت تسود الطريق. لا شك في أنه قد تجمد في قعر ركن ما. ولكن، ربما كان يتحرك. ألم يكن قادراً على التحرك دون صوت؟ لم يكن هناك شيء يدل على أنه لم يكن يقترب من الخياط الصغير، وبقي هذا الأخير جامداً كما لو كان ذلك بفعل برد نافذ.

كان يسمع، غير بعيد عنه، نوطات بيانو. كان وميض ضعيف يتسرب من مغالق نوافذ أحد البيوت، وكانت بنت صغيرة، أو صبي صغير، يتلقيان، في غرفة مضيئة، درس الموسيقى ويعاودان، دون كلل، السلالم نفسها.

لم يكن أي كائن بشري يسلك الطريق من طرف أو من الآخر، وكان السيد لابيه كامناً في مكان ما، صامتاً، غير مرئي، في حين لم يكن كاشودا يجرؤ على الاقتراب من البيوت.

سكت البيانو، وحل الصمت الكلي. ثم سمع الصوت الخافت للغطاء الذي كان يعود إلى الإطباق على الملامس البيضاء والسوداء. نور وراء باب، أصوات خافتة تصبح أكثر حدة في اللحظة التي كان فيها الباب ينفتح على مسافة عشرين متراً من الخياط الصغير في حين كانت قطرات المطر تتحول إلى شرارات.

- هل تتمسكين بذلك، حقاً، يا آنسة مولار؟ سيكون أكثر أمناً بكثير أن تنتظري عودة زوجي من المكتب. سيكون هنا في غضون عشر دقائق.

- من أجل الخمسين خطوة التي يجب أن اجتازها! عودي بسرعة! لا تعرضي نفسك للبرد. إلى يوم الجمعة المقبل.

كان ذلك يوم جمعة. لا شك في أن البنت الصغيرة (أو الصبي الصغير) تتلقى دروساً في البيانو بين الخامسة والسادسة من كل يوم جمعة.

- سأدع الباب مفتوحاً إلى أن تصلي إلى بيتك.

- أمنعك من هذا حقاً! أذلك لتبريد البيت؟ أقول لك إني لست خائفة.

من صوتها تخيلها كاشودا قصيرة ونحيلة، مهتزة قليلاً ومتحذلقة قليلاً. سمعها تهبط الدرجات وتمشي على الرصيف. الباب الذي بقي، برهة، مفتوحاً أغلق ثانية أخيراً. كاد يصرخ. أراد أن يصرخ. ولكن الأوان كان قد فات. وفضلاً عن ذلك، كان سيعجز عن ذلك جسدياً.

لم يحدث ذلك من الضجة أكثر من تلك التي تصدر عن طائر تدرج يطير من دغل. كان ذلك، احتمالاً، حفيف الملابس. كل الناس في المدينة كانوا يعرفون كيف كان ذلك يتم وحمل كاشودا، على الرغم منه، يده إلى عنقه، تخيل وتر الفيولونسيل الذي كان يضغط على العنق، بذل مجهوداً حقيقياً لينتزع نفسه من جموده.

كان واثقاً من أن الأمر قد انتهى وأنه كان عليه أن يبتعد بسرعة، أن يركض إلى مخفر الشرطة. كان هناك مخفر في شارع سانت - يون، بعد السوق مباشرة.

خيل إليه أنه تحدث إلى نفسه، في حين أن شفتيه كانتا قد تحركتا في الفراغ. مشى. كان ذلك نصراً. لم يتوصل بعد إلى الركض. وفضلاً عن ذلك، ربما كان من الأفضل أن لا يركض، هنا، في الطرقات الخالية التي كان الآخر يستطيع أن يركض فيها هو أيضاً، ويدركه وينهي الأمر معه كما أنهاه، منذ قليل، مع الآنسة العجوز.

مر بواجهة. كانت، كما لو كان ذلك سخرية، واجهة بائع سلاح. والحق هو أن القبعاتي لم يكن أبداً يستعمل سلاحاً. خفَّ شعورُ كاشودا بالوحدة. كان يستطيع أن يستعيد أنفاسه. كان يود حقاً أن يلتفت. بعد عشرين متراً، عشرة أمتار سيلمح ضوء مخفر الشرطة الأحمر.

كان قد تخبط في بقاع المياه، وكانت قدماه مبللتين وقسماته متصلبة من البرد. مشى، من جديد، كشخص سوي، اجتاز شارع ميناج، شارعه.

وصل، تقريباً، إلى الهدف. لم يعد يسمع أي صوت خطى، لكنه كان يعلم أن أحداً يسير وراءه، يدركه، ما زال لا يجرؤ على الركض ولا على التوقف، وبرز، إلى يساره، خيال أطول منه وأعرض، وكانت خطوة تضبط على خطوته وصوتاً غريب الهدوء يقول:

- ستقترف غلطة يا كاشودا.

لم ينظر إلى جهة رفيقه. لم يرد. لم يرتد فوراً.

كان وحده. رأى الفانوس وشرطياً دراجاً يخرج من المخفر ويمتطي دراجته.

استدار راجعًا كان السيد لابيه الذي عاد على عقبيه يتجه، دون أن يعود مشغولاً به، نحو شارع ميناج، نحو شارعهما معاً، ويداه في جيبيه وياقة معطفه مرفوعة.

(٢)

عندما وصل أمام مغالقه التي كان فالانتان قد أغلقها، توقف، فك أزرار معطفه ليأخذ رزمة مفاتيح من جيب بنطاله. كانت له دائماً الحركات نفسها عندما كان يعود إلى بيته مساءً.

توقف أحدهم عند زاوية شارع ميناج. كان ذلك كاشودا الذي ينتظر أن يغلق باب القبعاتي من جديد ليذهب إلى بيته بدوره.

رفع السيد لابيه عينيه ولمح زوجة الخياط في ورشة الطابق الأول. كانت قد أتت، قلقة، على إلقاء نظرة من النافذة.

أدار المفتاح في القفل، دخل في الظلمة الدافئة، أعاد إغلاق الباب قبل أن يدير القاطع الكهربائي، وضع الرتاج، ثم بقي واقفاً ووجهه ملتصق بشق في المغلاق.

الخياط الصغير الذي مازال يلتزم بحذر وسط الشارع وصل أخيراً إلى مقابل بيته. كان يمشي بصورة مضحكة، كما لو كان ذلك بقفزات.

للمرة الأولى، لاحظ السيد لابيه أنه كان يلقي جانباً، قليلاً، بأحد ساقيه. نظر كاشودا أيضاً في الهواء، لكن زوجته أتت على العودة إلى المطبخ. دلف إلى دكانه التي كان عليه أن يخرج منها ثانية ليضع المغاليق لأنه لم يكن لديه مستخدم يقوم بذلك مكانه. كانت كل حركاته عصبية، متقطعة. لا بد أنه صاح ملتفتاً نحو السلم - السلم الحلزوني نفسه الذي كان لمخزن القبعات:

- هذا أنا!

أسرع وأغلق الباب بالمفتاح. انطفأ نور الطابق الأرضي، وبعد قليل ظهر في الورشة حيث كان أول هم للخياط الصغير هو أن يأتي للنظر من النافذة.

انسحب السيد لابيه من موقع مراقبته وأعاد إلى درج الصندوق ما بقي من المال الذي كان قد أخذه منه قبل أن يذهب، وتقدم نحو غرفة الدكان الخلفية وربت، برهة على شيء كان قد سحبه من جيبه وكان يشبه لعبة صنعها أحد غلمان الشوارع، قطعتي خشب يصل بينهما ما يشبه الخيط.

كان معطفه المبلل لا يزال على ظهره، وعندما كان ينحني، كانت قطرات ماء تقع من قبعته. لم يخلعها إلا عندما صار في أسفل السلم حيث كانت توجد علاقة قبعات، ورأى خيطاً من نور تحت باب المطبخ.

كانت المائدة معدة بطبق واحد وغطاء أبيض وزجاجة خمر أعيد سدها بسدادة فضية.

- مساء الخير يا لويز، هل نادت السيدة؟

- كلا يا سيدي.

كانت الخادمة تراقب قدميه بينما كان يجلس أمام المدفأة وعادت بخفين في يدها وجثت على الأرض. لم يكن قد طلب منها ذلك قط. لا بد أنه قد روضت، في المزرعة، على أن تخلع أحذية الرجال، أبيها وأخوتها، عندما كانوا يعودون من الحقول.

كانت حرارة المكان في مستوى حرارة المخزن، وكان للهواء الجمود الثقيل نفسه الذي يضغط على الأشياء ويعطيها مظهراً جامداً، أزلياً.

كان المطر ما يزال يسمع وراء النافذة التي تطل على الباحة، وكانت، هنا، ساعة قديمة، في صندوقها الجوزي، تؤرجح اسطوانة نحاسية بصورة يمكن للمرء أن يقسم على أنها أبطأ من أي مكان آخر.

الساعة لم تكن هي نفسها الساعة في مخزن القبعاتي ولا في ساعة يد السيد لابيه ولا في المنبه الموجود في الطابق الأول.

- هل أتى أحد؟

- كلا يا سيدي.

ألبسته الخفين المصنوعين من جلد الماعز الرقيق المبرنق. كان المكان قاعة طعام أكثر منه مطبخاً لأن الفرن وحوض الصحون كانا إلى الجانب في حجرة ضيقة. كانت المائدة مستديرة والمقاعد منجدة بالجلد المسمر. كان هناك كثير من النحاسيات، وكانت هناك، على خزانة صحون ريفيه خزفيات قديمة مشتراة من صالة المبيعات.

- أنا صاعد لأرى ما إذا كانت السيدة تحتاج إلى شيء.

- هل أستطيع أن أقدم الحساء؟

اختفى في السلم الحلزوني وسمعت الباب الذي كان يفتح في الطابق الأول وخطوات وتمتة وصوت دواليب المقعد الذي كان يدفع، كما في كل مساء، عبر الغرفة. عندما نزل ثانية، قال، وهو يجلس أمام الطاولة:

- ليست جائعة جداً. ماذا هناك من طعام؟

كان قد وضع كتابه أمامه، أخرج نظارتيه من غمدهما. كانت المدفأة تدفئ ظهره. راح يأكل ببطء. كانت لويز تخدمه وتنتظر، بين الأطباق، ساكنة في حجرتها الصغيرة تائهة النظرات.

لم تكن قد بلغت العشرين من عمرها. كانت أقرب إلى البدانة، غبية جداً، بعينين بارزتين لا تعبير فيهما.

لم تكن الحجرة التي تستخدم مطبخاً واسعة إلى حد يسمح بوضع طاولة فيها. كانت أحياناً تأكل فيها واقفة، وفي مرات أخرى كانت تنتظر أن ينتهي القبعاتي ويغادر الغرفة لتأتي وتجلس مكانه.

لم يكن يحبها. كان استخدامه لها صفقة سيئة، لكن هناك وقتاً للتفكير في ذلك فيما بعد.

في الساعة الثامنة إلا الربع، مسح فمه ودس المنشفة الملفوفة في الحلقة الفضية وأعاد سد الزجاجة التي لم يشرب منها سوى كأس ونهض متنهداً. قالت:

- إنه جاهز.

عند ذلك، أخذ الصينية التي أعد عليها عشاء آخر ومضى، مرة أخرى في السلم.

كم مرة كان يصعد هذا السلم يومياً؟ الصعب كان أن يمسك الصينية بيدٍ دون أن ينسكب شيء من الطعام، وأن يخرج المفتاح من جيبه ويديره في القفل، لأن هذا الباب كان مغلقاً بالمفتاح دائماً، حتى حين يكون في البيت. أدار القاطع الكهربائي، ورأى كاشودا، من الجهة المقابلة، الستار يضيء. كان يضع الصينية في المكان نفسه، دائماً، ويعيد إغلاق الباب وراءه.

كل ذلك كان معقداً جداً. وقد استغرق زمناً كي ينظم. كانت روحات القبعاتي وغدواته تتم وفق ترتيب دقيق كانت له أهمية كبرى.

في البدء، كان يجب أن يتكلم. لم يكن يتجشم، دائماً، مشقة التلفظ بكلمات لأن ذلك لم يكن، على كل حال، يصل إلى الأسف إلا كتمتمة مبهمة. اليوم، مثلاً ،كان يكرر بشيء من السرور:

- ستقترف غلطة يا كاشودا.

لم يكن هناك شيء يطيب أكله بصورة خاصة هذا المساء، لكنه اختار، مع ذلك، أطرى قطعة من ضلع العجل. كانت هناك أيام كان يأكل، فيها، العشاء الآخر كاملاً.

ذهب إلى النافذة. كان لديه الوقت. أزاح الستار قليلاً واكتشف الخياط الصغير الذي استعاد، وقد أنهى عشاءه، مكانه على طاولته، في حين كانت البنتان تلعبان على الأرض أمام الغرفة، وفي حين كانت الكبرى، دون شك، تغسل الصحون مع أمها.

قال بصوت مرتفع وهو يعود باتجاه الصينية:

- هل أكلت جيداً؟ عظيم.

وذهب ليفرغ الصحون - باستثناء عظم الضلع - في المرحاض الذي كان يتجنب أن يسحب طارد الماء فيه: كان يفعل ذلك في البداية، لكن ذلك كان خطأ. كانت هناك أكوام من الأخطاء وضروب عدم الحذر، مثل هذه، صححها شيئاً فشيئاً.

كان يهبط ثانية مع الصحون الفارغة، وكانت لويز، الخادمة، تنهي عشاءها في مكانه. وكانت، لتجنب زيادة المواعين التي يجب غسلها، تأكل في صحن معلمها وتشرب من كأسه. كانت تقرأ، وهي تأكل، هي أيضاً، مسلسلات شعبية صغيرة.

- ألن تخرجي يا لويز؟

- لا رغبة لدي في أن أخنق...

- طابت ليلتك.

- مساء الخير يا سيدي.

انتهى الأمر تقريباً. مازالت هناك بضعة طقوس يجب إنجازها: الذهاب للتأكد من أن باب المخزن مغلق جيداً، إطفاء النور، صعود السلم مرة أخرى، أخذ المفتاح من جيبه، فتح الباب، إعادة إغلاقه.

بعد قليل ستصعد لويز لتنام في الغرفة الأخيرة، وسوف يسمع خطوتها الثقيلة لمدة ربع ساعة قبل أن يئن السرير الحديدي تحت وزنها.

- إنها عجل!

كان له الحق في أن يتكلم بصوت مرتفع. كان ذلك ضرورة تقريباً، بين وقت وآخر. يستطيع، الآن، أن يسحب طارد المياه في المرحاض، أن يخلع ياقته وربطة عنقه وسترته وارتداء ردائه المنزلي البني. إلا أنه لم ينته تماماً لأنه كان يبقى عليه أن يضع ثلاث أو أربع حطبات في المدفأة.

كانت لويز هي التي تصعد بها صباحاً وتكومها على منبسط الطابق الأول. كان لكل منازل الشارع العمر نفسه، كانت تعود إلى عهد لويس الثالث عشر. بقيت، من الخارج، على ما كانت عليه مع قناطرها وسقوفها ذات الانحدار الشديد، لكن كلاً منها قد خضع، من الداخل، لتحولات متنوعة. على سبيل المثال، كان يوجد فوق رأس السيد لابيه طابق ثان، لكنه لم يكن يستطيع الوصول إليه دون أن يمر بالشارع. كان هناك باب إلى جانب المخزن يؤدي إلى ممشى ضيق يطل على الباحة. ومن هناك كان يبدأ السلم الذي يخدم الطابق الثاني دون أن يتصل، مع الطابق الأول.

كان ذلك، في السابق، عملياُ، عندما يكون في الأعلى مستأجرون. كانت الغرف خالية منذ زمن طويل، بالضبط منذ السنة الأولى لمرض ماتيلدا التي لم تكن تتحمل أن تسمع، طيلة النهار، خطوات فوق رأسها.

لزمت دعوى من أجل التخلص من سكان الطابق الثاني. وحدثت أمور أكثر من ذلك تعقيداً!

ألم ينس شيئاً؟ كانت الحطبات تشتعل، والستائر مسدلة جيداً. كان يستطيع أن يطفئ ضوء السقف الذي كان فجاً جداً بالنسبة إليه وأن لا يحتفظ إلا بالمصباح الموضوع على المكتب، لأنه كان هناك، دائماً، في إحدى الزوايا، مكتب بعدد كبير من الأدراج الصغيرة، وكان ذلك مفيداُ، حقاُ، الآن.

أخذ كومة الصحف والمقصات وملأ غليونه. التفت مرتين أو ثلاثاً نحو النافذة مفكراً في كاشودا.

- شخص مسكين!

في البداية، كان تجهيز الرسائل عملاً صبوراً لأنه كان يقتطع كل حرف على حدة. كان، الآن، يعرف الجريدة جيداً إلى حد كان، معه، يعرف في أي باب يجد، بالتأكيد تقريباً، الكلمات التي يحتاج إليها. كان، أيضاً، قد عثر، في سلة أشغال ماتيلدا، على مقص تطريز لا يخطئ.

«السادسة ماتت يافتى، وكل المدينة، بكاملها، ستنتحب، أيضاُ، على مصيرها»

كان توجهه مباشرة إلى جانتيه عادة قد أكتسبها.

«لاحظ أن الآنسة مولار كانت تعاني مرضاُ في القلب منذ عدة سنوات وأنها فقيرة، تعيش وحدها، ليس لديها من يعتني بها وأنها مرغمة على إعطاء دروس بيانو لأبناء صديقاتها. أما بالنسبة لصهرها، المهندس، الذي يكسب حياته جيداً جداً، فإنه رفض، دائماُ، أن يساعدها.

لم أقتلها من أجل ذلك طبعاً. قتلتها، كالأخريات، لأنه كان ينبغي ذلك. وهذا ما لايريد أحد أن يفهمه. سيقال ويكتب، أيضاً، أني مجنون، مهووس، سادي، وهذا ليس صحيحاً.

«أفعل ما يجب، هذا كل شيء.

«إذا اقتنع الناس بذلك، فسوف يتجنبون هذا الهلع الأبله الذي يمنعهم من الخروج من بيوتهم ويضر كثيراً بالتجارة.

«مالم تقترف حماقات، فلم يعد هناك، على اللائحة، سوى واحدة. سيكون المجموع سبعاً، بالضبط، وكل تحريات العالم لن تغير من الأمر شيئاً.

«البرهان على ذلك، يافتى، هي أني أعلن لكم، منذ الآن، أن ذلك سيقع يوم الاثنين»

كان تركيب العنوان سهلاً على اعتبار أنه كان يكفي اقتطاع توقيع جانتيه من أسفل مقالة وعنوان الجريدة المطبوع في أعلى الإعلانات الصغيرة.

كانت لويز قد أتت على الدخول إلى غرفتها، وكانت تهمهم كعادتها.

ختم السيد لابيه الرسالة ولصق طابعاً ودس المغلف في جيب سترته الذي كان يتدلى من علاقة. غداً صباحاً، سينتظر، بعد أن يسحب ألواح الواجهة، وصول فالانتان، ثم سيذهب ليقوم بجولته المعتادة في المدينة سواء أكانت السماء تمطر أم لا.

المدهش هو أنه لم يكن عليه أن يغيّر شيئاً من عاداته. في كل الأوقات، صباحًا، كان قد تنزه في الحي، حول مجموعة أو اثنتين من البيوت، كما كان يذهب، دائماً، كل مساء إلى مقهى الأعمدة.

كانت الساعة قد بلغت التاسعة والنصف. بقيت لديه ساعة، وذهب ليجلس تجاه النار، ممدود الساقين وكتاب ضخم بصفحات صفراء على ركبتيه.

كان أحد أجزاء كتاب «*القضايا الشهيرة في القرن التاسع عشر*». قبل خمسة شهور، اشترى عشرين مجلداً ناقصاً منه من صالة المبيعات. بقيت عليه قراءة سبعة منها.

كان يدخن بسحبات قصيرة متباعدة. كان الجو حاراً. يجب أن تكون لويز قد نامت أخيراً. لم يعد يسمع سوى صوت المطر الرتيب وطقطقة للحطب أحياناً. ولم يكن هناك من يزعجه في قراءته.

كان السيد لابيه هادئاً، صافي الذهن. كان، بين حين وآخر، يلقي نظرة على المنبه.

- مازالت هناك عشرون دقيقة!

بقيت عشر دقائق، خمس دقائق. في العاشرة والنصف، أعاد إغلاق كتابه وهو يتنهد، نهض ومضى إلى الحمام. في الساعة الحادية عشرة إلا الربع، رقد في السرير الأيمن.

في السابق، لم يكن هناك سوى سرير واحد في الغرفة، سرير جميل جداً كان يتناغم مع قطع الأثاث الأخرى في الغرفة. منذ مرض ماتيلدا، نقل، عن طريق الشارع - على اعتبار أنه لم يكن هناك سلم بين الطابقين - إلى الشقة الخالية في الأعلى ووضع مكانه سريرين توأمين تفصل بينهما طاولة.

التفت ليتأكد من أن الجمرات التي مازالت حمراء لا تهدد بالتدحرج على السجادة وإشعال حريق.

كان كاشودا في الجهة المقابلة، لا يزال يعمل. كان شخصاً فقيراً يصنع كل شيء بنفسه، بما في ذلك البناطيل والصدارات التي يعهد بها الخياطون الأكثر أهمية لعاملات في بيوتهن.

الآن، وقد أصبحت الغرفة في الظلام، كان السيد لابيه يستطيع أن يرى، من خلال الستارة المستطيل المضيء للجانب الآخر من الشارع.

قبل أن ينام، قال هامساً، لأن الكلام لا يزال مناسباً.

- مساء الخير ياكاشودا.

لم يكن يترك المنبه يرن: كان يستيقظ من تلقاء ذاته في الساعة الخامسة والنصف صباحاً. لويز البدينة تكون، إذ ذاك، لا تزال نائمة في سريرها الندي. لا بُدّ أنها كانت تسمعه ينهض ويذهب ليجلب حطباً من على المنبسط، يعيد إغلاق الباب ويشعل النار بعد برهة. في ذلك الصباح، لاحظ أن شيئاً ما كان مفتقداً، وكان ذلك طقطقة المطر، صوت الماء في الميزاب.

كان الظلام أشد من أن ترى السماء، إلا أن المرء كان يحس بريح عرض البحر التي كانت تطرد الغيوم نحو الداخل.

كان ينبغي عليه أن يرتب سريره ويضفي النظام على الغرفة ويضع خارجاً الدلو الممتلئ بالرماد، ومن أجل كل ذلك، كان يملك حركات دقيقة يجريها بترتيب مدروس بعناية. كان يتكلم قليلاً، يقول أي شيء، ولا يلبث أن يرى النافذة المقابلة تضيء. لم يكن هذا كاشودا الذي كان لا يزال نائماً، بل زوجته التي كانت تشعل النار وتكنس الورشة وتنفض الغبار.

سمع مرور عربات كانت تتجه نحو السوق، ثم جاءت أخرى كانت تتوقف في الشارع نفسه وأصوات فلاحات وتصادم سلال وأكياس كانت تترك تقع على الأرض.

كان يوم سبت. أخذ حمامه وارتدى ملابسه فيما كانت لويز تغتسل وراء حاجز المرحاض.

نزلت من الطابق الأول لتعد القهوة وعندما نزل، بدوره، كانت النار قد أشعلت.

- نهارك سعيد يا لويز.

- نهارك سعيد يا سيدي.

أدخل، في مخزن القبعات، عود كبريت في ثقب مدفأة الغاز الصغيرة. كانت أصوات الطريق تزداد حدة، ولكن الوقت لم يكن قد حان بعد لسحب المغاليق.

كان عليه، أولاً، أن يتناول إفطاره، ثم أن يصعد بإفطار ماتيلد، بدأت السماء في الشحوب. دفع السيد لابيه، حتى النافذة، بالمقعد الذي كان يضعه، دائماً، في المكان نفسه، في الزاوية نفسها، وتأكد من أن الرأس الخشبي الذي كان يأتي من دكانه الخلفية غير مهدد بالتدحرج.

أطفأ النور ورفع الساتر المعدني. كل شيء كان رمادياً، أبيض تقريباً. كان المطر قد تحول إلى ضباب ولم يكن مصباح كاشودا يرى إلا من خلال حجاب.

كان الزجاج متجمداً. ربما كان الجليد سيأتي أخيراً. كانت النساء الريفيات المتدثرات بشالات يتوقفن، أحياناً، عن ترتيب سلالهن ليضربن خواصرهن بأياديهن المزرقة. كانت هناك واحدة، عجوز قصيرة، تقف في المكان نفسه منذ أربعين سنة، وكانت قد أشعلت نار جمر صغيرة.

في هذا الفصل من السنة، كانت تبيع كستناءً وجوزاً.

لم يكن كاشودا قد أخذ مكانه على طاولته. كان باب المطبخ مفتوحاً، وكانت الأسرة، كاملة، تتناول إفطارها.

لم تكن السيدة كاشودا قد اغتسلت أو تمشطت. كان أصغر الأطفال الصبي الوحيد الذي كانت له عينان سوداوان لوزيَّتا الشكل لا يزال في قميص النوم.

كانوا أناساً غريبين. كانوا يأكلون لحوماً باردة منذ الصباح. أدار كاشودا ظهره وبدا أحد كتفيه أعلى من الآخر.

كان السيد لابيه ينتظره. كانت لا تزال لديه أشياء صغيرة يفعلها. الجرائد التي اقتطع منها الكلمات والحروف قد أحرقت. حمل إلى لويز البزة التي كان يرتديها بالأمس لتكويها لأنه كان شديد العناية، وكانت ملابسه دائماً من جوخ فاخر، وأحذيته تصنع على قياس قدميه.

بدأ ذلك ببضعة تحركات لعربات وببضعة أصوات متفرقة ليتحول الأمر، من أحد طرفي الشارع إلى الطرف الآخر، إلى صخب كل أيام السبت الأصم. كان يعرف سلفاً أية رائحة لخضار طازجة، لرؤوس ملفوف مبللة، لدجاجات وأرانب، ستملأ خياشيمه منذ أن يفتح باب المخزن.

كان عليه أن ينتظر برهة طويلة أخرى، وعينه على الشق، كي يخرج كاشودا، أخيراً، من بيته، وعند ذلك قلده وهتف، من فوق النسوة، قائلاً:

- نهارك سعيد يا كاشودا.

ارتعد الكتفان النحيلان، التفت الرجل، فتح فمه، انقضت بضع ثوان قبل أن يقول:

- نهارك سعيد يا سيد لابيه.

لابد من أن ذلك كان يبدو له شيئاً لايصدق، شيئاً يدعو إلى الهلوسة - وربما أكثر من ذلك بسبب الضباب. كانت الأمور تجري مثل كل الأيام، مثل كل أيام السبت على كل حال. كان السيد لابيه قد حلق ذقنه وارتدى ملابس معتنى بها. سحب، بوقار، ألواح واجهته التي أدخلها، واحداً بعد الآخر ووضعها في الزاوية المعدة لها وراء الباب.

كان بلاط الشارع لا يزال مبللاً، مع بقاع ماء على طول الأرصفة. بقي متجر اللحوم الباردة، بالقرب من كاشودا، مضاء.

وصل فالانتان في الساعة الثامنة والنصف أحمر الأنف، وما كاد يصل إلى المخزن حتى كان عليه أن يتمخط، قال:

- لقد أصابني زكام.

سيتمكن من معالجته في جو مخزن القبعات الفائق الحرارة. ارتدى السيد لابيه معطفه. وأخذ قبعته.

- سأعود بعد ربع ساعة.

اتجه نحو السوق المغطاة، وكان كثير من الناس يحيونه لأنه ولد في لاروشيل حيث عاش دائماً. اختار صندوق بريد شارع العقادين: لم يكن، هذا الصباح، مهدداً بأن يلاحظ في روحات الحشد وغدواته. ثم دخل، كما كان يحب أن يفعل كل سبت، إلى السوق المغطاة وتمشى أمام بسطات الأسماك والقشريات.

لم يشتر الجريدة، في ركن شارعه ذاته، إلا لحظة عودته إلى مخزنه. دسها في جيبه دون أن يساوره فضول ليلقي عليها نظرة.

كانت مزارعة قد أتت بابنها الذي جرب عليه فالانتان، ومنديله في يده، عمرات. كان ذلك هو اليوم المناسب. خلع السيد لابيه معطفه وقبعته وقال للويز من فرجة الباب:

- اشتري سرطانات. لدى عجوز شارانت الصغيرة سرطانات جيدة، هل نادت السيدة؟

- كلا يا سيدي.

سوف يأكل، أولاً، نصيبه من السرطانات تحت، ثم نصيب ماتيلد في الغرفة. كان حظاً طيباً أن تكون الخادمة السابقة، دلفين، قد ذهبت لتعيش مع ابنتها في جزيرة أوليرون لأن دلفين التي عملت لديهما عشرين سنة لم تكن تجهل أن ماتيلد لم تكن تحب كل ما يخرج من البحر.

كان يمكن الحصول على واحدة أفضل من لويز. كان يمكن لأشياء كثيرة أن تتدبر بصورة أفضل، بل أنه بدأ في كراهية الفتاة البدينة. لم تكن تطرح أسئلة قط. لم يكن يمكن تخمين ما تفكر فيه. ربما لم تكن تفكر.

لم يكن يحب أن تنام في البيت. دلفين التي كان لها أولاد كانت تعود إلى بيتها، في الجانب الآخر من المحطة، بعد العشاء مباشرة. لويز، أيضاً،

كانت قد نامت في المدينة في البداية، ثم صرحت، بسبب جرائم قتل العجائز، بأنها لم تعد تريد الخروج بعد هبوط الليل. لماذا قبل أن يخصص غرفة لها في الطابق الأول؟ ربما كانت لا تزال لديه، في تلك البرهة، فكرة غامضة في رأسه. كانت شهية إلى حد مقبول عندما لا ينظر إليها عن قرب. ولكنه لم يكن يستطيع أن يجهل، الآن، وهو يسمعها من خلال الحاجز وهي تنظف نفسها، إنها لم تكن نظيفة. كانت رائحة غرفتها التي اتفق له أن دخلها تشعره بالتقزز، وكذلك ملابسها الداخلية الملقى بها على كرسي.

ربما لم تكن خطرة، لكن هذا كان مع ذلك يشكّل تعقيداً، وكان قد فعل كل ما في وسعه ليفلت من التعقيدات. سوف يرى ذلك فيما بعد.

بدل سترته. كان يرتدي، دائماً، سترة قديمة ليعمل، دخل إلى الغرفة الخلفية وأشعل السخان الذي كان يستعمله كي يكوي القبعات على البخار.

فتح خزانة بأصغر مفاتيحه. كانت هذه المفاتيح التي لها أهمية أساسية مصقولة، لامعة كأدوات وكان يحتفظ بها دائماً في الجيب نفسه، ولا ينسى أبداً أن يضعها على الطاولة قبل أن يأوي إلى السرير.

كان يتدلى من سقف الخزانة خيط يشده مرتين أوثلاثاً.

فالانتان الذي كان لايزال مشغولاً مع الزبونة أم الصبي الصغير مشى بضع خطوات ليعلن له:

- السيدة تناديك يا سيد لابيه.

ذلك أنه كان، بسحبه الخيط، يطلق آلية كانت تقرع ضربات فوق أرضية الطابق الأول، تماماً كما في السابق عندما كانت ماتيلد تقرع الأرضية بعكاز لكي تناديه.

أعلن وهو يتنهد:

- أنا صاعد.

أعاد إغلاق الخزانة وأعاد المفاتيح إلى جيبه، الشيء الغريب هو أنه في دكان كاشودا، كان الخياط القصير مشغولاً بأخذ قياسات صبي صغير

كانت أمه قد أتت به. صبي صغير وأمه في كل من جانبي الشارع، ومن القرية نفسها، وهو شيء غريب أيضاً.

اختفى في السلم الحلزوني واستطاع فالانتان سماع خطواته. انغلق الباب ثانيةً كانت الستائر تمنع الرؤية من الخارج. كانت السيدة كاشودا التي لم تكن تفكر أبداً في جيران الجهة المقابلة، ترفع ذراعيها في الهواء لترتدي ثوباً فوق تنورتها الداخلية لأن هؤلاء الناس كانوا، للحصول على مزيد من الحرارة، يرتدون ملابسهم، بل ويغتسلون في المطبخ. ومن أجل الصغيرتين والصبي، كان يوضع طشت من الخزف على كرسي.

أضاف حطبة أخرى إلى حطبات المدفأة، جلس، أشعل غليونه، وعند ذلك، فقط، فتح الجريدة.

«*الخناق أوقَعَ ضحية جديدة*». أليس طريفاً أن نتبين كيف تستطيع الكلمات تشويه الحقيقة؟ «الخناق»! وهي كلمة بدأت بحرف كبير فوق ذلك! كما لو كان الشخص، مثلاً، قد ولد خناقاً، كما لو كان منذوراً لهذا جملة! في حين أن الحقيقة كانت مختلفة جداً! كان ذلك يثير دائماً أعصابه قليلاً. بل كانت إثارة دفعته إلى توجيه أولى رسائله إلى الجريدة.

كانوا قد كتبوا في تلك المرة:

«*مجنون خطر يتجول في المدينة*». كان قد رد:

«*كلا يا سيدي، ليس هناك مجنون، لا تتحدث عما لا تعرفه*».

ومع ذلك، لم يكن جانتيه الشاب غبياً. ففي حين كانت الشرطة تلم المتشردين والبحارة المتوقفين مع مراكبهم وتستجوب المارة في الشوارع بصورة اعتباطية وتطلب منهم أوراقهم، كان المخبر يبني، شيئاً فشيئاً، محاكمة متماسكة. فبعد الضحية الثالثة، الآنسة لانج، بائعة الخردوات في شارع سانت يون، وفي حين كانت قد نظمت المراقبة منذ حلول الليل، كان يؤكد قائلاً:

«من الخطأ الانشغال بالمتشردين، وبصورة عامة بكل الذين يسترعون الانتباه بلباسهم أو بسلوكهم. القاتل هو، بالتأكيد، رجل يمضي دون أن ينتبه إليه أحد. فليس هو إذن غريباً كما افترض بعضهم. فنظراً للروحات والغدوات التي اقتضتها جرائمه الثلاثة، فمن الأكثر احتمالاً أن يكون قد اتفق له، مرة واحدة على الأقل، أن التقى إحدى الدوريات التطوعية التي تجوب المدينة كل مساء»

كان هذا صحيحاً. فقد كان بائع القبعات قد صادف دورية وتابع طريقه بطمأنينة. صوّب إليه ضوء مصباح جيب، في حين قال صوت:

- مساء الخير يا سيد لابيه.

- مساء الخير أيها السادة!

«....إن مواطناً معروفاً ومحترماً، هو وحده، الذي استطاع ....»

الفتى الذي كان يشاهد، كل ليلة، يكتب على الطاولة الأولى في مقهى الأعمدة ذهب إلى أبعد من ذلك، بكثير، في استنتاجاته.

«.... ساعات وقوع الجرائم تدل على أنه رجل متزوج له عادات منتظمة...». كان يبني هذا التأكيد على كون أية جريمة لم ترتكب بعد ساعة العشاء.

«... هو إذن رجل لا يخرج بمفرده مساءً...»

ثم يحيد عن الصواب. فبعد الجريمة الخامسة، قبل الأخيرة، جريمة قتل ليونيدبرو، قابلة فيتيي، كتب يقول:

«من المحتمل أن تكون القابلة قد اجتذبت إلى خارج بيتها بهاتف، وهو ما يبدو أنه يثبته وجود حزمة مفاتيح معها عندما هوجمت....».

كان ذلك خطأ... فقد كانت الوحيدة التي التقاها السيد لابيه بالمصادفة تقريباً. كانت على القائمة بالتأكيد. ربما، فعلاً، كان يمكن أن يهتف لها لو لم يكن قد التقاها.

«..... ولما كان من الخطر إجراء مخابرة مثيرة بهذا الشكل للشبهات من كشك عام أو من مقهى.....»

كان يريد أن يبدو أذكى مما ينبغي، أذكى من القاتل. وصل إلى التأكيد بأن في بيت هذا الأخير هاتفاً. ألم يكن يفكر، في أنه كان يمكن، في هذه الحالة، أن تفاجئ زوجته أو الخادمة المخابرة؟

بالضبط، لم يكن لدى السيد لابيه هاتف. كان يرفض، دائماً، أن يركب هاتفاً في بيته.

وتابع جانتيه التخبط.

«يدور الأمر، احتمالاً، حول رجل يعمل في مكتب يغادره بين الخامسة والسادسة ويقترف جرائمه قبل العودة إلى بيته».

كان من المحبط إلى درجة كافية أن يكون قد كتب هذا في المقهى حيث كان يرى، كل يوم، تجاراً وممارسي مهن حرة يمضون ساعة أو ساعتين في لعب الورق قبل العشاء.

اليوم، كان هناك ما هو أفضل. كتبت الجريدة في عنوان فرعي:

«هل تم الحصول على أوصاف القاتل؟»

اكتشفت جثة الآنسة ايرين مولار بعد الثامنة والنصف مساء بقليل. كان شرطي قد تعثر بها، بالمعنى الحَرْفي للكلمة. شاع الخبر في كل الشارع. أم البنت التي أعطتها الآنسة العجوز آخر درس في البيانو هتفت قائلة:

- كنت معترضة على تركها تذهب وحدها. توسلت إليها كي تنتظر عودة زوجي الذي كان سيرافقها حتى باب بيتها. لم ترد أن تسمع شيئاً. سخرت من مخاوفي. أكدت أنها لم تكن خائفة. تركت الباب منفرجاً لحظة بينما كانت تبتعد لأسمع صوت خطواتها. أتذكر، الآن، أنني لمحت رجلاً في وسط الشارع. كدت أطلب النجدة، ثم فكرت في أني كنت مضحكة وأنه لا يمكن لقاتل أن يلتزم وسط الطريق. ومع ذلك، أعدت إغلاق بابي سريعاً جداً. لم أره جيداً، ولكني متأكدة، تقريباً، من أنه كان قصيراً ونحيلاً يرتدي معطفاً مطرياً أطول مما ينبغي.

كان ذلك معطف كاشودا، أو بالأحرى، المعطف الذي لم يكن لكاشودا والذي لأنه كان مهترئاً وقذراً تركه عنده وكيل تجاري متجول ليس من سكان المدينة، حين اشترى منه معطفاً، وكان الخياط الصغير يرتديه بدافع التوفير عندما تمطر.

التفت السيد لابيه نحو النافذة. كان كاشودا قد عاد إلى طاولته. كان يتحدث إلى زوجته التي كانت على أهبة الخروج وفي يدها كيس المشتريات. لا شك في أنها كانت تسأله عما يريد من طعام.

لم يكن الخياط قد قرأ الجريدة بعد. لم يكن يخرج من البيت، صباحاً، إلا لسحب المغاليق. ستحمل إليه زوجته، وهي عائدة من السوق، جريدة «*صدى الشارانت*».

خرجت لويز، أيضاً، لشراء ما يلزم. أتى جرس الباب على الرنين عدة مرات. كان هناك زبائن في المخزن.

لم ينس السيد لابيه، قبل أن يغادر الغرفة، أن يتمتم ببعض الكلمات، وغيّر مكان المقعد قليلاً.

رأى فالانتان ظهور الساقين ثم الجذع وأخيراً الرأس الهادئ والمستريح. وبما أنه كان يبدو مرتبكاً، فقد سأله بائع القبعات قائلاً:

- ماذا هناك؟

أشار الشاب المزكوم إلى فلاح ضخم الجثة كان يتأرجح بين ساق وأخرى.

- يلزمه قياس ٥٨ وليس لدينا سوى ٥٦ .

- دعني أجرب.

أصلح القبعة على البخار وذهب الزبون وهو ينظر إلى نفسه في المرايا بشيء من القلق.

(٣)

- سوف تغلق المخزن يا فالانتان.

- نعم سيدي. مساء الخير ياسيدي.

كان فالانتان قد تمخط طيلة النهار. وكان سائلاً إلى حد أن العيون كانت تدمع لدى رؤيته وسماعه. أفاد مرتين من عدم وجود زبائن ليجفف منديله أمام مشعاع الغاز.

كان شخصاً مسكيناً أيضاً. كان طويلاً وأصهب له عينان في زرقة الخزف، وكانت له سيماء صادقة إلى حد غالباً ما أعاد معه السيد لابيه إغلاق فمه الذي فتحه لتوجيه ملاحظة إليه دون أن يقول شيئاً مكتفياً بهز كتفيه. كانا يعيشان معاً القسم الأكبر من اليوم لأن الورشة والمخزن لم يكونا، في الحقيقة، سوى غرفة واحدة. في بعض الأيام، كانت تنقضي ساعات دون أن يريا زبوناً. كان فالانتان المسكين، بعد أن ينفض الغبار عن كل شيء، يرتب كل شيء ويتحقق للمرة المائة من البطاقات، يبحث، مثل كلب كبير محتار بجسده، عن ركن يقبع فيه متجنباً أن يحدث ضجة، منتفضاً لدى أدنى حركة من معلمه. وبما أنه لم يكن يحق له أن يدخن في المخزن، كان يمص، بصمت، سكاكر بنفسج:

- إلى الاثنين يا فالانتان. يوم أحد سعيد.

كانت تلك ملاطفة إضافية عابرة. ما كان يهمه هو أن يعلم إذا ما كان كاشودا سينزل أم لا. لم يكن قد تحرك من بيته طيلة النهار. نزل مرة من أجل قياس، ونشر، مرة أخرى، أقمشة أمام زبون لم يحزم أمره وكان عليه التملص بوعد في العودة. احتفظ بالضوء في ورشته لأن الضباب لم يتبدد،

وعندما خفت أصوات السوق، سمعت صوت صفارة طوافة الإنقاذ عدة مرات. كانت، في الفضاء، كخوار بقرة هائلة وكان هناك أناس يسكنون المدينة منذ زمن بعيد ومازال ذلك يستدعي تأثرهم.

لم يكن قد خرج أي مركب. وكان هناك مراكب أخرى تنتظر عودتها ولم تعد بعد، وكان الناس قلقين على مصيرها.

كانت الفلاحات قد رحلن في عرباتهن أو في الباصات قبل حلول الليل بكثير، ولم يبق سوى الرجال من يتلكأ في الحانات بوجوه حيوية اللون، وعيون لامعة.

كان كاشودا قد قرأ الجريدة. على كل حال، حملتها زوجته إليه. لم يخطئ السيد لابيه حول هذه النقطة. هل كان يخطئ قط؟ لم يكن يحق له ذلك. وعلى الرغم من كل ما كان في ذهنه، كان يتوصل إلى أن لا ينسى أدنى التفاصيل، وإلا لَقُضي عليه.

كانت الجريدة على كرسي قرب طاولة الخياط، وكان واضحاً أنه قد فتح صفحاتها. سوف يأتي كاشودا. كان بائع القبعات مقتنعاً بأنه سيأتي وتوقف عند عتبته ونظر نحو النافذة المضاءة وهو يفعل، آلياً، في سره، كما تفعل المزارعات حين ينادين الدجاجات:

- بوتي، بوتي، بوتي .....

مشى دون ضجة، ولم يتقدم عشرين متراً حتى راحت تسمع وراءه الخطوات التي كان قادراً على تمييزها من بين كل الخطوات. لقد جاء كاشودا. هل تردد؟ إنه شخص مسكين بالتأكيد. يوجد كثير من الأشخاص المساكين في العالم. لا بد من أنه كانت لديه رغبة مخيفة في العشرين ألف فرنك. لم يكن قد رأى، قط، مثل هذا المبلغ مجتمعاً ما لم يكن ذلك وراء كوى المصرف احتمالاً. كان يلزمه عامان يستهلك فيهما أيامه ولياليه على طاولته من أجل أن يكسب مبلغاً مماثلاً.

هذه العشرون ألف فرنك كان يريد بالتأكيد أن يكسبها، كان يريد ذلك بكل قواه. بل إنه يخاف إلى هذه الدرجة لأنه كان يريد ذلك بمثل هذه القوة.

ربما كان ذلك خوفاً من أن يفقدها أكثر منه خوفاً من بائع القبعات. ما حدث كان يجب، حتماً، أن يحدث: أن شخصاً مثل كاشودا هو من يغدو مشبوهاً، كاشودا هو الذي لمحته أم بنت البيانو الصغيرة ووصفته للشرطة.

كانا يسيران، الواحد منهما خلف الآخر، ككل الأيام، وكان على الخياط الصغير أن يلقي بساق جانباً لدى كل خطوة. أما السيد لابيه، فقد كانت له، على العكس من ذلك، مشية هادئة ومحترمة، كانت له حقاً مشية جميلة.

دفع باب مقهى الأعمدة، وكان يمكن للصوت والرائحة وحدهما أن يعلماه، أن ذلك اليوم كان سبتاً. نعم، الرائحة لأن زبائن السبت لم يكونوا يتناولون مشروبات زبائن الأيام الأخرى نفسها.

كانت القاعة غاصة بالزبائن. بل إن بعضهم كان يبقى واقفاً. كان الفلاحون العاميون يجتمعون في الحانات الصغيرة قريباً من السوق. هنا كان يوجد أغناهم، أو أكثرهم مبادرة، أولئك الذين كانت لهم أعمال مع تجار الأسمدة وموظفي التأمين ورجال القانون الذين كانوا، كل يوم سبت، يعقدون جلساتهم على طاولات أصبحت، لبضع ساعات، مكاتبهم أو متاجرهم.

طاولات الوسط، قرب المدفأة، كانت وحدها تبقى واحة تحظى بالاحترام، محاطة بمنطقة هدوء وصمت.

الدكتور شانترو الذي لم يكن يلعب كان جالساً وراء السيناتور الذي يمسك بالورق. لمس السيد لابيه يده.

- مساء الخير بول.

وبما أن صديقه كان يخرج قرصاً من علبة صغيرة من الورق المقوى، قال له:

- ألست على مايرام؟

- الكبد.

كان ذلك يحدث له دورياً. فمن يوم إلى الآخر، كان يبدو أنه قد فقد من وزنه عدة كيلوغرامات لشدة ما قاسى وجهه، مع انتفاخات رخوة تحت عينيه، نظرة رجل يتألم.

كانا، كلاهما، في العمر نفسه. كانا، في الثانوية، صديقين حميمين يكادان أن لا يفترقا.

أخذ غبرييل معطف السيد لابيه وقبعته.

- الشيء نفسه؟

كان أمام الدكتور، على رخام الطاولة، ربع ليتر من مياه فيشي. كاشودا الذي دخل كان متردداً في الجلوس قرب اللاعبين.

شخص مسكين هو أيضاً! لم يكن كاشودا فقط الذي انتهى بإرخاء طرف ردفيه على كرسي، بل أيضاً بول الدكتور. يجب أن تكون مازالت لدى السيد لابيه في مكان ما، في قعر درج، صورة تمثلهما، معاً، في عمر الخامسة عشرة أو السادسة عشرة. في ذلك العمر، كان شانترو نحيلاً، ذا شعر قريب من اللون الأصهب، ولكنه لم يكن أصهب فالانتان المخنث. كان يرفع ذقنه بزهو وينظر أمامه بتحد. كان قد اختار أن يكون طبيباً، إنما ليس طبيباً عادياً: بل كان يريد أن يكون مكتشفاً عظيماً على صورة أمثال باستور ونيكول. كان أبوه غنياً، يملك حوالي عشر مزارع في أونيس والفانديه. لم يكن يفعل شيئاً خلاف إدارتها من بعيد، والطريف هو أنه كان يمضي كل بعد ظهر في مقهى الأعمدة، في المكان نفسه الذي يشغله لاعبو البريدج اليوم. كان بول الفتى يقول عنه:

- إنه يثير اشمئزازي. إنه بخيل ويسخر من مصير الفلاحين.

على وجه الإجمال، كان آباؤهم، جميعاً، يملكون مالاً وأراضٍ ومزارع أو بيوتاً، أو سفناً، أو نصيباً من سفن أيضاً.

كان كاشودا ينظر إليه بحدة خفية، وكان السيد لابيه يتظاهر بأنه لا يلاحظ ذلك. كانت لعبة. كان هذا يثبت له، هو نفسه، أنه، كان له ذهن حر.

انقلبت الأدوار. كان الخياط الصغير هو الذي يتعرق من الخوف، والذي يشرب كأسه بعصبية مع سيماء من يتوسل إليه أحياناً.

أن يتوسل إليه بماذا؟ بإيقاع نفسه، ليسمح له بتقاضي جائزة العشرين ألف فرنك؟

- أنت تشرب كثيراً يا بول.

- أعلم.

- لماذا؟

كان قد عاد إلى المدينة وفتح عيادة. كان قد حزم أمره:

- لن استقبل زبائن إلا صباحاً ليكون باقي الوقت حراً لأبحاثي.

أنشأ مختبراً حقيقياً واشترك في كل المجلات الطبية.

- لماذا لم تتزوج أبداً يا بول؟

ربما لأنه كان يريد أن يصبح عالماً، ما أدراه، وكان يكتفي برفع كتفيه مع تكشيرة كان الألم ينتزعها منه.

كان قد ترك لحيته تنمو، ولم يعد يعتني بنفسه. كانت أظافره سوداء وملابسه الداخلية مريبة. كان يأتي إلى مقهى الأعمدة في الساعة السادسة، ككل الذين يعملون، أولاً، ثم في الخامسة، ثم في الرابعة، وكان يأتي إليه، الآن، بعد الغداء مباشرة. وبما أنه لم يكن يوجد فيه أحد آنذاك من أجل لعب البريدج، فقد كان يلعب الضامة مع أوسكار، صاحب المقهى.

انتهى إلى تجاوز الستين كالسيد لابيه. كانوا، جميعهم، قد تجاوزوها.

- هل تأخذ مكاني يا ليون؟ يجب أن أذهب لأثرثر مع ناخبيّ.

اندريه لادرو، السيناتور، الذي كسب شوطاً نهض آسفاً. كانت حولهم ضجة مستمرة، نعال تسحب نفسها على الأرضية المغطاة بالنشارة، كؤوس تتقارع، صحون، أصوات أعلى من المعتاد.

كان مزارع بطماقين جلديين يقول:

- سوف ينتهي إلى الوقوع، أقر بذلك. جميعهم ينتهون إلى الوقوع، بما فيهم أدهاهم. وماذا بعد؟ سترون أنهم سيدسونه في مصحٍّ زاعمين بأنه مجنون، وأننا نحن دافعي الضرائب، الذين سنعيله حتى موته.

- مالم يقع على شخص مثلي!

- أنت، ستفعل مثل الآخرين على الرغم من معلاقك الكبير. ربما سددت قبضتك إلى وجهه، ولكنك ستسلمه بعد ذلك، مذعناً، إلى الشرطة. لا أقول إن ذلك يحدث في قرية. ربما كان الأمر، فيها مختلفاً، فهناك مذار ورفوش.

جلس السيد لابيه بهدوء، دون تقطيبة، مكان السيناتور الذي مضى ليبدأ جولة بين الطاولات. تساءل السيد لابيه، لبرهة، عما إذا كان كاشودا مزكوماً أيضاً لشدة ماكان وجهه محمراً وعيناه لامعتين، لكنه لاحظ صحنين تحت كأسه.

كان الخياط يشرب! ربما كان ذلك ليهب نفسه الشجاعة. أشار، فعلاً، إلى غبرييل بأن يأتي له بكأس ثالثة من النبيذ الأبيض. أعلن جوليان لامبير، موظف التأمين، وهو يخلط الورق:

- نحن معاً.

هذا الأخير لم يكن يشرب، أي أنه كان يكتفي بكأس فاتح للشهية أو اثنتين كحد أقصى. كان بروتستانتياً. له أربعة أو خمسة أبناء، وكان يمكن أن ينجب أكثر بكثير لو لم تكن زوجته تجهض مرة على اثنتين. كان ذلك موضوع مزاح. كانوا يسألونه:

- ماذا عن زوجتك؟

- في العيادة.

- طفل؟

- اجهاض.

كان لديه مال، هو الآخر، ورثه عن أبويه وسمح له بشراء مكتب تأمين. لم يكن ينشغل به كثيراً. كان لديه مستخدمون جيدون. كان واحد من

هؤلاء يوافيه، أحياناً، إلى المقهى لقضية عاجلة. وكان، بعد أن يلعب البريدج بعد الظهر، يتعشى بسرعة ليلعب البريدج أيضاً في بيته أو لدى أصدقاء.

والواقع هو إنه شقيق السيدة جوفروا - لامبير، المخنوقة الرابعة، كان السيد لابيه قد اشترك في مراسم دفنها.

- تعازي يا جوليان.

كان قد شارك في كل الجنازات لأنه كان يعرفهن، جميعهن، عن طريق ماتيلد على الأقل.

لم يكن الصحفي الشاب مرئياً. لا شك في أنه كان مشغولاً، خارجاً، بتحقيقه. ألقى السيد لابيه، مرتين أو ثلاثاً، نظرة على طاولته المعتادة. قال كابيه ناشر «صدى الشارانت» وصاحبها وهو مستمر في فحص أوراقه:

- تلقينا رسالة جديدة.

تمتم جوليان لامبير، وهو يعلن عن اثنين سباتي:

- بدأ يبالغ.

وقال، وهو يلتفت نحو شانترو الذي كان يراقب اللعب:

- هل تعتقد يا بول، أنه مجنون؟

رفع الدكتور كتفيه، لم يكن ذلك يعنيه حالياً. لم يكن قلقاً إلا من البراثن التي كانت تحرث جنبيه. وغمغم:

- على كل حال، لن يتوقف قبل أن يقبض عليه.

- لم يقبض على جاك الباقر أبداً، ومع ذلك فقد توقف عن القتل.

سر ذلك السيد لابيه الذي لم يفكر أبداً في ذلك. سأل قائلاً:

- كم قتل؟ ثلاثة دیناري.

- أنا خارج اللعبة.

زايد لامبير قائلاً:

- ثلاثة بستوني.

- أربعة كبة.

كان يلوح في الأفق فوز بكل الأوراق الرابحة، وسادت برهة صمت كانت تقطع بمزايدات ليتم الوصول إلى ستة دينارى.

- لا أدري كم قتل، لكن الرعب قد دام، في لندن وضاحيتها، عدة أشهر. لقد استدعي الجيش للنجدة. أرغمت مكاتب ومصانع على إغلاق أبوابها لأن المستخدمين والعاملات لم يعودوا يجازفون بالخروج من بيوتهم.

- يستبد في الفضول لمعرفة كم يوجد من النساء في الطريق في هذه البرهة.

ارتعش الخياط وأفرغ كأسه الثالثة دفعة واحدة. وبما أنه لم يعد يجرؤ على النظر في اتجاه اللاعبين خشية أن يلتقي نظره نظرَ بائع القبعات، فقد كان يحدق، بحزن، في الأرضية الوسخة.

كان من الطريف معرفة كيف يكون كاشودا عندما يشرب. لم يكن السيد لابيه قد رآه سكراناً أبداً. الدكتور الذي كان يبدأ في الشرب منذ الصباح، بعد كل استشارة، والذي لا يعود يتوقف حتى المساء، كان يظهر، في البدء، حنوا بالكاد مصطبغاً بالسخرية. كان يدعو آخر زبائن الصباح، جميعهم:

- ياصغيري.

أو:

- يا صديقي المسكين

أو:

- يا سيدتي الصغيرة

وكان، بدلاً من أن يكتب لهم وصفات، يذهب إلى خزانته ليأتي بدواء يدسه في يد المريض مجاناً.

وكان، في بداية بعد الظهر، يرى أولمبياً، وجهه محاط بهالة من الدخان، بطئ الحركة، ثقيل النظرة، نادر الكلام. ثم يصبح، شيئاً فشيئاً، متهكماً حتى مع أفضل أصدقائه.

الذين كانوا يلتقونه حوالي العاشرة مساء، عندما يكون عائداً إلى بيته بعد أن يكون قد شرب نبيذاً أحمر في الحانات الصغيرة، كانوا يزعمون أنه يكون، عند ذلك، دامع العين وأنه كان يمسك بسواعدهم.

- فاشل يا صديقي، جيفة فاشل هرمة، هذا ما أنا عليه. اعترف بأني أسبب لك القرف، بأنكم تشمئزون مني جميعاً!

أما بالنسبة لأوسكار، صاحب المقهى المرغم بحكم المهنة على أن يشرب طيلة اليوم، كؤوساً صغيرة مع الزبائن، فإن عينيه تنتفخان، ومشيته تصبح وقورة ومترددة، وكان يلتقط شعرة على لسانه ويخلط، مساء، بين المقاطع، بحيث لا يفهم، دائماً، ما كان يقوله.

على كل حال، أصبح الخياط الصغير محموماً. لم يكن يلزم مكانه، وكانت له حركات غير متوقعة كعرات، أو كما لو كان يطرد ذباباً يهاجمه.

كان لدى السيد لابيه الانطباع السار بأنه كان يمسك به بطرف خيط، بأنه يتمتم له بلطف:

- اهدأ يا صغير.

كان يعرف جيداً أن المفوض بيجاك كان هناك، وراء ظهره، على طاولة أعمار ما بين الأربعين والخمسين. كان قد رآه يدخل بمعطفه الرمادي وقبعة رمادية على رأسه وبوجه رمادي. كان يذكّر بسمكة، في رنكة كامدة اللون، ويحتفظ دائماً بابتسامة باردة على شفتيه كما لو كان ذلك ليوهم بأنه يعرف الكثير.

لم يكن يعرف شيئاً بالمرة. السيد لابيه كان مقتنعاً بذلك. كان مغفلاً رسمياً، خُلق ليكون موظفاً لا يفكر إلا في ترفيعه وانتمى إلى المحافل الماسونية لأنهم أوهموه بأن هذا قد يساعده. لم يكن قوياً إلا في لعبة البليار حيث كان يحقق سلاسل من مائة وخمسين ومائتي نقطة ملتفاً ببطء حول السجادة الخضراء ناظراً إلى نفسه، من وقت إلى آخر في المرايا.

- لا تفعل ذلك يا صغيري.

كان يقول ذلك، في سريرته، لكاشودا لأنه كان يحس بالدوار الذي كان يستولي على الخياط الصغير الذي كان محموماً ولم يعد يعرف إلى أين ينظر، والذي كان يفكر في العشرين ألف فرنك وبشهادة أم فتاة البيانو. قال كاييه أيضاً:

- إنه يدعي أنه لن يقتل سوى واحدة أخرى.

- لماذا؟

- إنه لا يقدم سبباً لذلك. إنه لا يزال يؤكد أن ذلك ضرورة وأنه لا يفعل هذا راضياً. ستقرؤون رسالته غداً صباحاً في الجريدة.

أربع كؤوس من النبيذ الأبيض. كان كاشودا قد شرب فعلاً أربع كؤوس من النبيذ الأبيض. كان ذلك ينسيه التطلع إلى الساعة. كان الموعد الذي اعتاد، عنده، أن يعود إلى البيت قد انقضى.

- الموعد هو الاثنين.

- ما الذي موعده الاثنين؟

- آخر واحدة ولماذا الاثنين؟

- لا أدري. يسرني أن أرى ما إذا ستكون هناك جرائم اليوم أو غداً. هذا سيثبت أنه يكتب مجرد كلام.

أكد جوليان لامبير قائلاً:

- إنه لا يكتب مجرد كلام. ولماذا أختي التي لم تسيء، قط، إلى أحد؟

لثغ شانترو قائلاً:

- ربما لم يكن يحب العجائز.

نظر إليه السيد لابيه بفضول لأن الفكرة لم تكن غبية جداً. لم تكن دقيقة تماماً، لكنها لم تكن غبية بالمرة.

تابع كاييه قائلاً:

- هل لاحظتم أنهن، جميعاً، في مثل أعمارنا إلى حد ما.

عند ذلك تدخل أرنو، أرنو الضخم، من شركة سردين أرنو، الذي لم يكن قد قال شيئاً بعد:

- بينهن اثنتان على الأقل نمت معهما وواحدة كدت أتزوجها.

أحس لامبير بأنه معني:

- شقيقتي؟

- لا أتحدث عن شقيقتك.

لكن الجميع كانوا يعلمون أنه كان للسيدة جوفروا - لامبير فخذان مضيافان. والحق أن ذلك لم يحصل إلا حوالي الأربعين، مع ترملها، وأنها لم تكن تتعاطى إلا مع شبان فتيين جداً.

- هل عرفت ايرين مولار؟

- كانت جميلة، لكنهم يزعمون أنها، في عمر السابعة عشرة، كانت مثل عصفور بالنسبة لِقطّ لشدة ما كانت نحيلة. كانت عاطفية كرواية متسلسلة، عاطفية إلى حدَ أنها لم تتزوج. أراهن على أنها ماتت عذراء.

سئل الدكتور الذي كان يعالجها:

- هل هذا صحيح؟

- لم يتفق أن فحصتها من هذه الناحية.

- من هو الذي أعلن عن ثلاثة سباتي؟ كنا عند ثلاثة سباتي. دورك يا بول.

كان المقهى مليئاً بالدخان الذي تجتذبه المصابيح الكهربائية الضخمة ذات اللون الأبيض اللبني والتي ركبت منذ قليل. كان السيناتور قد وصل إلى طاولته الثالثة. وعند كل طاولة، كان يقدم شوط شراب. وعند كل منها، تقريباً، كان يُرى وهو يُخرج من جيبه دفتر جيب ويكتب بضع كلمات. كان الناخبون الذين ليس لديهم ما يطلبونه نادرين. وعندما نظر إليه السيد لابيه من بعيد وهو يعيد الدفتر إلى جيب سترته، وجه إليه لود غمزة وقحة، كان أقلهم ثراءً في السابق. كان أبوه موظفاً صغيراً في الكريدي ليونيه. تزوج الابن ابنة

وحيدة في حين لم يكن سوى محام أو مستشار بلدي. يسكن، اليوم، أحد أضخم قصور شارع ريومور، غير بعيد عن بيت السيدة جيوفروا - لامبير. قال السيد لابيه:

- بالمناسبة، يجب أن يكون منزل أختك للبيع.

سخر الآخر قائلاً:

- هل تنوي أن تشتريه؟ هذا البيت أكبر من الإمكانات المادية لفرد. لا توجد، فيه، إلا إحدى عشرة غرفة نوم واصطبلات لعشر خيول في آخر الباحة. أحاول أن أتحرى المحافظة التي لا تزال تحتاج إلى مكاتب.

- اهدأ يا صغيري!

لولا قليل لأمر السيد لابيه غبرييل بأن لا يعود يقدم شراباً للخياط الصغير، ومن المؤكد أن غبرييل كان سيطيعه. قلق برهة عندما هب كاشودا واقفاً وبدا عليه أنه يسرع إلى طاولة المفوض. ولكنه تجاوزها وغاب في دورات المياه.

هل كانت مثانته؟ هل كانت معدته؟ في هذه البرهة، وبمصادفة سعيدة، كان بائع القبعات يَتَماوَتُ واتجه، بدوره، نحو المغاسل، لمجرد الفضول لأنه لم يكن خائفاً.

لم يكن الأمر يدور إلا حول المثانة. ووجدا نفسيهما جنباً إلى جنب أمام الخزف الذي كان يغطي الجدار.

لم يكن الخياط الصغير الذي كانت كل أعضائه ترتعش يستطيع أن يهرب. قال له السيد لابيه بعد برهة تردد، بهدوء، وهو ينظر أمامه:

- اهدأ يا كاشودا.

كانا وحدهما. هل كان الخياط يتصور أن جاره سيخنقه؟ كان السيد لابيه يستطيع أن يؤكد له، دون أن يكذب أن أداته ليست معه.

وبالفعل، لم يكن أحد قد فكر في أن يضع قائمة بسكان لاروشيل الذين يعزفون على الفيولونسيل. ما كانت لتوجد، منهم، كميات.

أما بالنسبة إليه، فقد نسوا، احتمالاً، أنه كان موسيقياً. مضى عليه عشرون سنة، على الأقل، لم يستخدم خلالها آلته، وكانت هذه الأخيرة في مخزن النفايات. كان ينبغي عليه، ليصل إلى المخزن، أن يخرج من البيت ويدخل في الزقاق المسدود ويتسلق سلم الطابق الثاني. وهذا ما فعله لأنه لم يكن من التهور بحيث يشتري وتراً من دكان الآلات الوترية في شارع القصر، خاصة أنه لم يكن هناك سوى دكان واحدة في المدينة. وقد مضت على بائع القبعات خمس عشرة سنة لم يغادر خلالها لاروشيل حتى للذهاب إلى روشفور، خمس عشرة سنة لم يرقد خلالها إلا في سريره.

لم يفكر أحد كذلك في هذا. كان الآخرون يخلفون، أحياناً، موعد بعد الظهر. كان أندريه لود يذهب إلى باريس من أجل جلسة مجلس الشيوخ ويمضي عطلته في قصر في الدوردون كانت زوجته قد أتت به كبائنة. وكان شانترو نفسه، يمضي، كل سنة، فترة استشفاء في فيشي. وكان لكل أسرة جوليان لامبير بيت صغير في فورا كانت تمضي، فيه، شهرين في السنة، وكان رجل التأمين يعلن أحياناً أنه ذاهب إلى بوردو من أجل أعمال، وأحياناً أخرى إلى باريس.

كان لدى معظمهم سيارات، وكانوا يركبون قطارات. أرنو، صانع السلاح شارك في الصيف الماضي، في رحلة سيتزبيرغ البحرية. وكانت هناك أيام يشق فيها، إيجاد، لاعب رابع لجولة البريدج، وكان ينبغي، في بعض المرات، الاستنجاد بأناس من جماعة ما بين الأربعين والخمسين.

لم يكن هناك سوى بائع القبعات موجود دائماً، وكان الآخرون قد اعتادوا على ذلك إلى حد لم يعودوا، معه، يجدونه غريباً. منذ متى لم يشاهد بقرة حقيقية خارج القطعان التي كانت تمر في الطريق لتمضي إلى المسلخ؟

كانوا، في البداية، يرثون له، كانوا يرثون، خاصة، لماتيلد.

- كيف تتحمل هذا؟

- لا بأس، لا بأس.

كاشودا نفسه ذهب إلى باريس وإلبوف! كان كاشودا يأخذ، في بعض أيام الآحاد، أسرته إلى البحر، في مكان ليس بعيداً جداً، أي في شاتليون، وفي هذه الأيام، كانت الطريق خالية خُلوَّ طاولة بلياردو، خلاف زقزقة عصافير الدوري.

عاد السيد لابيه، أولاً، إلى مكانه. كان يعلم، جيداً، أن الآخر سوف يتبعه.

- ثلاثة أوراق الكُبّى؟

- جمعتُ منها خمساً.

- لقد فَوَّتّها على نفسك. أأنا من يوزع الورق؟

بلغت الساعة السادسة وأصبح الفلاحون أقل كثافة. الذين كانوا يتأخرون هم من يملكون سيارة أو شاحنة لأن العربات كانت قد رحلت منذ زمن طويل وسارت في صف آحادي على طول الطرقات، في الضباب الذي كان يتكاثف من جديد. كان من الكثافة، حتى في المدينة، إلى حد كان معه يدخل، حين يفتح باب المقهى، إلى قاعة الطعام كدخان بارد، أكثر بياضاً من دخان الغلايين والسيغارات.

من كان يصدق، خارج طاولتهم، أن السيد لابيه كان طياراً؟ ومع ذلك، فقد كان كذلك خلال حرب ١٩١٤. أسقط طائرات معادية، مثل إسقاط غلايين في الملاهي، وكسب عدة تنويهات. بل إنه أسس نادياً للطيران في لاروشيل، وكان، لبعض الوقت، رئيساً له. وقبل ذلك، كان قد أدى خدمته في سلاح الفرسان.

لم يقترف خطيئة واحدة. لم يكن لدى جوليان لامبير الذي كان مماحكاً دائماً مأخذاً واحداً عليه. كانت إعلاناته صحيحة دائماً، وكان لعبه جيداً.

أليس من الأبسط أن يهدي كاشودا العشرين ألف فرنكاً؟ كان يستطيع أن يسمح لنفسه بذلك. كان ميسوراً. وإذا كان يدع مخزن القبعات يتهاوى، فلأنه كان يريد ذلك حقاً.

كان يستطيع أن ينتقل على اعتبار أن التجارة انتقلت في اتجاه شارع القصر حيث كانت تتلألأ أنوار مخازن السعر الموحد والمخازن الكبرى الأخرى وفونوغرافاتُها.

كان من السهل، حتى في شارع ميناج، زيادة تنوير واجهته وتحديث مخزنه وطلاء الجدران والرفوف بألوان زاهية. ما الجدوى؟ كان أصدقاؤه نادراً ما يشترون منه قبعة مفضلين أن يشتروا من بوردو أو باريس. كان يكتفي بإصلاحها في الدكان الخلفية فاتحاً، بين حين وآخر، الخزانة لشد الخيط. كان فالانتان يقول له حالاً:

- السيدة لابيه تناديك.

وذلك كما لو كان الوحيد الذي يسمع الضربات الواقعة على السقف. قطب حاجبيه وهو يسمع كاشودا يوصي غبرييل بصوت متردد:

- كأس كونياك.

لقد قرر، إذن، أن يسكر، وحول نظره ليتجنب نظرة بائع القبعات.

هل ستكون لديه الجرأة، بعد قليل، على تسلق طاولته والتقاط قطعة قماش تفوح منها رائحة مصالة الصوف. وعلى وجه الإجمال، كان لهذا الأخير طاولته، المصباح المعلق بسلك حديدي، قطعة الطبشور التي تتدلى. كانت له رائحته أيضاً، الرائحة التي كان يحملها معه إلى كل مكان والتي لا تزعج إلا الآخرين، التي لا بدّ أنه كان يتنشقها بشيء من النشوة. وكانت له زوجته مختلة الهندام دائماً، ذات الصوت الحاد الذي كان يسمعه، طيلة النهار، من باب المطبخ الأخضر المنفرج، والبنات الصغيرات والصبي الذي جاء أخيراً بعد أربع بنات، والبكر التي يجب أن تكون قد بدأت بأن يكون لها عشاق.

في ذات يوم، ستحمل السيدة كاشودا من جديد. وكان عجيباً أن تنقضي ثلاث سنوات دون أن تحمل ما لم تكن قد اختلطت أحشاؤها.

كان بوسع السيد لابيه أن يسير إلى جانب الخياط في الطريق، عندما يخرجان، أن يهدئه، يطمئنه، يطلب منه أن ينتظر دقيقة ويذهب ليجلب له عشرين ألف فرنك. كانت، في خزانة الغرفة، محفظة ضخمة تحتوي على أكثر من ذلك على صورة أوراق نقدية. كان ذلك يعود إلى زمن ماتيلد التي لم تكن تثق بشيء، بأحد، وترتاب بالمصارف.

- غبرييل!

- نعم سيد لابيه، الشيء نفسه؟

- فين مع الماء.

كان كونياك كاشودا يخلق لديه الرغبة في أن يشرب منه بدوره، لكنه لن يسكر. نادراً ما سكر في حياته إلا عندما كان طالباً وأثناء الحرب، قبل أن يذهب في غارة.

- أقصّ وألعب السّباتيّة الملك.

ابتلع شانترو، إلى جانبه، قرصاً ثانياً وتلقى السيد لابيه نفسه الكريه في وجهه.

- ماذا عن زوجتك؟

- لا تزال على حالها.

- ألا تصاب بقروح؟

هز رأسه نفياً.

- إنها محظوظة.

منذ حوالي عشر سنوات، لم يدخل طبيبٌ إلى المنزل. كانت ماتيلد، في بداية شللها، تريد أن تراهم جميعاً. فكان يجري تغييرهم كل أسبوع. استقدم اختصاصيون من بوردو وباريس. اتبعت كل أنواع العلاج، ثم جاء دور الكهنة والراهبات، وحجت سنتين متواليتين إلى لورد.

هذه البلبلة دامت خمس سنوات بطلعات ونزلات، بأزمات صوفية، فترات أمل وفترات تسليم.

- أقسم لي على أنك لن تتزوج ثانية إن رحلت.

وفي الغد، كانت تمسك بيده وهي تتخذ سيماء الحماية:

- استمع يا ليون. لا ينبغي أن تبقى وحيداً عندما أكون قد رحلت. سوف تجد، حقاً، فتاة طيبة تتزوجها، وربما أنجبت لك أبناء. سوف تعطيها مجوهراتي. إني أصر على ذلك.

كانت، خلال ثمانية أيام، تقرأ من الصباح إلى المساء، وفي الأسبوع التالي، كانت تمضي ساعات في التحديق في الستائر بهيئة شرسة.

استقدمت شافي شارون الذي آمنت به خلال حوالي الشهر. وقد نفرت من خمس ممرضات، وتلقت الأخيرة سيلاً من الشتائم. وفي ذات يوم، قررت أنها لن ترى، بعد، طبيباً ولا كاهناً، وبعد قليل، أعلمت دلفين التي كانت، آنذاك، خادمتهما بأن عليها أن لا تتجاوز، بعد، عتبة غرفتها.

كان شانترو الذي لا زوجه له يمضي أيامه المتوحدة في الشرب. وكانت لجوليان لامبير زوجة - فرس كبيرة سمراء - وأبناء، وكان يقتل الوقت في لعب الورق.

أما أرنو، رجل السردين الذي طلق مرة وتزوج ثانية من امرأة تصغره بخمسة عشر عاماً، فقد كان يذهب إلى المبغى مرتين في الأسبوع، بل اتفق له، أيضاً، أن نام، فيه، بعد أن شرب كثيراً.

كان كابيه هو الذي استوقف المفوض بينما كان يمر بطاولتهم.

- ماذا عن تحقيقكم يا بيجاك؟

رد الآخر بهيئة لغزية لأغبى غبي رسمي!

- لا بأس، لا بأس!

- هل نقلوا لك نسخة من الرسالة التي تلقيناها في بريد بعد الظهر؟

- قرأتها.

- ماذا تظن؟

- إنه لن يلبث أن يقع.

- هل هناك أثر تتبعونه؟

كان السيد لابيه ينظر إلى كاشودا الذي كانت رؤية توتره العصبي مؤلمة.

- إذا حاول شيئاً يوم الاثنين فسيكون ذلك خروجه لأخير. ولكنه يراوغ، صدقني.

- جانتيه يدعي أنه لا يراوغ.

قال المفوض بيجاك ساخراً:

- طبعاً إذا كان هذا رأي السيد جانتيه.

- إنه يؤكد أن الرجل لا يكذب.

- حقاً ؟

- هذه الضرورة التي يتحدث عنها باعثة على الاضطراب. هل تفهم ما أعني؟ ليس لدينا، كما كتب جانتيه جيداً جداً، ما ينفي أنه تمَّ اختيار الضحايا كيفما اتفق.

- تهانينا لصحافيِّك.

وقطع المفوض بأسنانه طرف سيغار وكشر في ابتسامة.

- لماذا سبع، ولماذا يوم الاثنين ؟

- أغادركم أيها السادة، اعذروني.

غمغم كاييه بعد ذهاب المفوض:

- إنه مغتاظ. أعلم أن جانتيه ليس سوى غلام، لقد أخذته على سبيل الإحسان تقريباً لأن أمه، الأرملة، تخدم في البيوت. إلا أني أراهن على أنه إذا اكتشف القاتل، فسيكون هو من سيكتشفه.

اقترح جوليان لامبير قائلاً:

- ماذا لو تحدثنا عن شيء آخر؟ جاء دورك في توزيع الورق.

كانت الساعة قد بلغت السادسة والنصف، وسأل السيد لابيه قائلاً:

- هل انتهت الجولة؟ سأدع مكاني إذا كان ذلك لا يزعجكم.

لم يكونوا يلحون عليه أبداً - وهو ما يفعلونه مع غيره - بسبب ماتيلد. كان يتمتع باعتبار خاص. كانت هناك طريقة خاصة في تحيته، في مصافحته. أصبح ذلك عادة. وعندما كان يختفي، كان هناك، دائماً، من يقول:

- يا للصديق المسكين!

كان ذلك بأطراف الشفاه، كما عزوا جوليان لامبير عندما خنقت شقيقته.

بل كان هناك، أيضاً من غمغم من بين أسنانه - الدكتور في مساء شرب فيه أكثر مما ينبغي - قائلاً:

- هذه واحدة يجب أن تكون تأسفت لأنها لم تغتصب.

- إلى الغد أيها السادة.

- أنت تنسى أن غداً هو يوم الأحد.

كان ذلك صحيحاً، فهم لم يكونوا يجتمعون في أيام الآحاد.

- إلى الاثنين إذن.

يوم الضحية الأخيرة! بعدها سوف ينتهي الأمر. سوف يتحدثون عنها خلال بعض الوقت، ثم سيفكرون في شيء آخر، ولن تعود العجائز اللواتي سيدخلن، شيئاً فشيئاً في الأسطورة موضع بحث.

كان ذلك مؤسفاً تقريباً. نظر إلى الخياط الصغير وتوجه هذا الأخير، بهيئة من يطيع، نحو العلاقة التي علق عليها معطفه. لم يكن ذاك معطف الأمس المطري. لم يكن قد تجرأ على ارتدائه. لن يرتديه بعد الآن أبداً. من يعلم ما إذا كان قد أتلفه؟

اجتاز السيد لابيه القاعة بوقار والتقى نظره الآنسة بيرت. كانت جالسة قرب الزجاج، في المكان الذي كان جانتيه يحتله في الأمس. كانت كثيراً ما تأتي إلى مقهى الأعمدة، مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع. كانت تفوح، على الفور، رائحة عطرها. كانت جميلة اللباس، ترتدي، دائماً، الأسود والأبيض، وهو ما يحمل على التفكير في حداد ويجعلها أكثر إثارة.

كانت تشرب، بلطف، كأس البورتو وحدها. كانت لها ابتسامة متحفظة، بالكاد ترتسم على فمها عندما ينظر إليها أحد الرجال الذين تعرفهم، ولكنها لم تكن، أبداً، توجه إليهم الكلام.

كان يكفي السيد لابيه أن يغمز بعينيه ويتجه، ببطء، نحو شارع غارغولو حيث تملك شقة جميلة.

كان من شأن ذلك أن يكون لعبة طريفة على كاشودا. ماذا كان الخياط سيفكر؟ إنه سيخنق الآنسة بيرت على الرغم من أنها تكاد لا تبلغ الخامسة والثلاثين؟

كانت لويز، خادمته، تنتظره، كان يجلس إلى المائدة في الساعة السابعة دائماً. سوف يكون ذلك في الأسبوع المقبل، عندما ينتهي كل شيء ويتخذ الأمر صورة مكافأة صغيرة.

تعال يا صديقي كاشودا! اتبعني أيها الرجل الطيب. لا عجوز، اليوم، ولا صبية. نعود إلى البيت. كانت خطوات الخياط الصغير، وراءه، مترددة. يجب أن تكون قد خطرت له فكرة التحدث إلى بائع القبعات لأن مشيته أصبحت، في برهة ما، وهما يسيران في شارع ميناج، أسرع، أكثر استعجالاً. وصل إلى مسافة بضعة أمتار من السيد لابيه، في الضباب الذي كان يجعل من هذا الأخير شبحاً أكبر من حجمه الطبيعي. في الواقع، اعترى الخوف الاثنين. حث السيد لابيه، لا إرادياً، خطاه. كان قد أتى على التفكير:

- ماذا لو كان مسلحاً؟ ماذا لو كان سيقتلني؟

كان كاشودا على ما يكفي من فرط الاستثارة من أجل أن يفعل. لكن لا. توقف، ترك المسافة تطول بينهما، استأنف سيره متلمساً طريقه في الظلام. تجمد كل واحد منهما، أخيراً، أمام بيته، سحب المفتاح من جيبه. وفي صمت الشارع، ومن خلال الضباب، قال صوت السيد لابيه الهادئ:

- مساء الخير يا كاشودا.

كان ينتظر، المفتاح في القفل و وخزة في القلب. انقضت بضع ثوان وتمتم صوت مشوش، كما لو كان يتكلم على الرغم منه:

- مساء الخير يا سيد لابيه.

(٤)

رأى نوراً تحت الباب، وسمع خطوات على السلم، وهو ما كان يعني أنه كان ذاك يوم الأحد. كان، في هذا اليوم، يستيقظ متأخراً قليلاً عن عادته في باقي أيام الأسبوع. وعلى العكس من ذلك، كانت الخادمة تجد الشجاعة على انتزاع نفسها من سريرها حتى قبل أن يسمع صفير أول قطار. كانت تنزل، تائهة النظرات، إلى المطبخ وتشعل النار وتبقى واقفة هناك، ناعسة بينما كان ماء الأحواض الكبيرة يسخن.

في أول أحد لها في البيت، نزل وقد استبد به الفضول. وجد باب المطبخ المزجج مغطى بغطاء مشدود ومثبت بدبابيس. سألت لويز بصوت خشن:

- ماذا هناك؟

- هذا أنا...

- هل تحتاج إلى شيء؟ أنت ترى جيداً أني أغتسل.

ربما كانت تغتسل في الحوض الذي يستعمل للغسيل. لا بدّ أن الأمر يجري هكذا في بيتها في شارون، كما لدى كاشودا. وكانت رائحة الصابون تفوح في المطبخ طيلة الصباح.

لم يكن السيد لابيه يستطيع أن يسمح لها باستعمال حمامه لأنه كان ينبغي اجتياز الغرفة للوصول إليه. كان قد اشترى لها حوضاً من القصدير. بات الآن، يسمعها، أيام الأحد، تملأ هذا الأخير بأباريق ماء ساخن تصعد بها، واحداً بعد الآخر، وهي تزفر. وإذا كان يتفق لها، في الأيام الأخرى، أن تهمل غسل وجهها، فإنها كانت، في ذلك اليوم، تبقى، ساعة، جالسة في حوضها تنظف زوايا جسدها.

كان ذلك يثير اشمئزاز بائع القبعات قليلاً. فهو لم يكن يحب روائح الآخرين، خصوصية الآخرين. كان قد عاش خمسة عشرة سنة في الغرفة مع امرأة عاجزة لم تكن تستطيع أن تعنى أدنى عناية بنفسها وكانت تغضب منذ أن يبدو أن النافذة ستفتح.

ربما لم يكن ذلك خطأها، وربما كان يجب تعليل ذلك بحالتها الصحية. وعلى كل حال، كانت ماتيلد، في السنوات الأخيرة، قذرة إلى حد كان يبدو معه أحياناً، أنها تتعمد ذلك تحدياً. اتفق لها أن تسأل ولهب قاسٍ صغير يصدر عن عينيها:

- ألا تجد رائحتي كريهة؟

ذهب ليقعي أمام المدفأة ليشعل الحطبات. لم يكن يخطئ قط إشعال ناره التي تستغرق قليلاً من الوقت لتتوهج. كان ذلك اليوم، أشد برداً من الأيام السابقة، كان برده مختلفاً. رأى، عندما أزاح الساتر، قليلاً، السماء الليلية الصافية جداً، الجليدية، وتجمدت أطراف أصابعه بملامسة الزجاج.

كانت الأمطار قد توقفت إذن. سوف تفرح كل المدينة، أما هو، فلا. إن ذلك قد أتى مبكراً يوماً. كان ذلك بمثابة خيانة من السماء حياله، نوعاً من الفشل الشخصي. كان يود أن ينتهي من الأمر في مناخ واحد. لم يكن الأمر يقتصر على أن المطر سبب له، دائماً، نوعاً من الإثارة في الشوارع المظلمة مع هالة حول كل ضوء، بل إنه، أيضاً، سهل حركاته دائماً، إذ يقل عدد الناس في الطرقات، وهم يلاصقون البيوت غير مفكرين إلا في حماية أنفسهم من ماء السماء ووحل الطريق.

لم يكن أحد قد نهض، بعد، لدى كاشودا. كان الخياط الصغير نائماً إلى جنب زوجته الضخمة. بعد سكرة الأمس، لا بد أنه تخبط طيلة الليل وشَخَر، وربما تكلم بصوت مرتفع.

لم توجه إليه لوماً عندما عاد. ومع ذلك، فما كاد يصل إلى بيته حتى ظهر سكره أكثر جلاء بسبب الانتقال من البرد إلى الحر احتمالاً. صعد السلم الحلزوني (السلم نفسه الذي كان لدى السيد لابيه) ناسياً أن يقفل المخزن

ويطفئ النور، وهو ما كان يفعله بنفسه دائماً، وعندما وصل إلى ورشته، تهالك على كرسي وأحد ذراعيه على المسند ورأسه على ذراعه المثني.

هل كان يبكي؟ لم يكن ذلك مستحيلاً. أو ربما كان يحس بنفسه مريضاً. ابنه الذي كان في الثالثة والنصف أو الرابعة من عمره جاء يحوم حوله، ثم جاءت الصغيرتان، وأخيراً خرجت السيدة كاشودا من مطبخها وفي يدها مكواة.

فهمت حالاً ما يحدث ولم تقل شيئاً، لم تتحرك شفتاها، اختفت في الغرفة الأخرى التي عادت منها مع كوب من القهوة السوداء.

- اشرب يا كاشودا.

كانت تناديه كاشودا. لم يكن أحد ينادي الخياط باسمه الأول. حتى على الواجهة لم يكن هناك سوى كنيته التي كانت، بالأحرى، اسم قبيلة لا بدّ أنه موجود في مئات قرى الشرق الأدنى.

انتهى كاشودا إلى الكشف عن وجهه، وفهم إذ ذاك، حتى عبر الشارع، إنه كان خجلاً. سأل زوجته عن شيء، وربما كان عما إذا كان الأولاد قد رأوه في هذه الحالة. ساعدته في شرب قهوته، وما كاد يشرب نصفها حتى انطلق راكضاً نحو أقصى المسكن.

لم يلمحه السيد لابيه طيلة المساء. كانت السيدة كاشودا هي التي نزلت لتغلق المصاريع وتضع الأقفال. أطفأت مصباح الورشة واستمرت تعمل في المطبخ في حين كان الجميع في أسرّتهم.

كان يوم أحد، وسوف يكون مشمساً بالتأكيد. كان السيد لابيه يقوم بالحركات المعتادة. رتب سريره الذي غير بياضاته كما غير مناشف الأسبوع الوسخة وأسال الماء في الحوض ولم ينس أن يتكلم، بين حين وآخر، أن يقول أي شيء للتظاهر.

كان قد انتهى، مع السنين، إلى تنظيم حركاته كنوع من الباليه. كان ذلك آلياً، لم يعد يحتاج إلى التفكير. كان ذلك حقيقياً إلى حد كان معه، عندما يتغير الإيقاع لسبب طارئ، يبقى برهة دون حراك، مبلبلاً كآلية معطلة قبل أن يتمالك نفسه. فعلى سبيل المثال، في حين كان حوض الحمام يمتلئ، كان لديه

الوقت لإعادة ملابسه إلى الخزانة، السترة على علاقة والبنطال مضبوط الثنيات، ثم لتحضير جواربه وقميصه وياقته وربطة عنقه عند آخر السرير. كان هناك وقت لكل شيء، وكان نادراً ما يتفق له أن يقلب ترتيب حركاته.

لو كان المرء يتجشم مشقة تعداد هذه الحركات، فإنه سيجد المئات، وربما الألوف منها. كانت تنتهي، مصفوفة إلى جانب بعضها، بأن تملأ اليوم، وكان يقوم بها بمسرة، خاصة يوم الأحد، لأنه كان يعلم أنه سوف يتمتع، بعد طقوس الصباح الباكر، بيوم طويل حر، وحيداً في المنزل.

عندما نزل، كان قد دفع، من أجل أن يحظى بالتقدم بمقعد ماتيلد إلى أمام النافذة مع الرأس الخشبي في الزاوية المناسبة وأسدل الستائر على الرغم من أن النهار لم يكن قد طلع بعد.

وجد لويز قرب مدفأة المطبخ وفي يدها كوب من القهوة بالحليب، مرتدية كامل ملابسها، مستعدة للخروج بثوب الأحد ومعطفه وقبعتها على رأسها. أعلنت بصوتها الكئيب الذي كان بمثابة نفي لفرح الحياة قائلة:

- كل ما يلزم موجود في خزانة الطعام.

كانت غبية، كانت «بهيمة»، لم يكن ينبغي الانتباه إليها. كانت تأخذ، كل أحد، أول باص إلى شارون حيث تمضي اليوم مع أسرتها وصديقاتها.

كانت لها طريقة في النظر إلى السيد لابيه لم يتوصل إلى الاعتياد عليها. كانت تحدق فيه كما لو لم تكن تراه. أو أنها كانت تراه بصورة مختلفة عن الآخرين، وكان ذلك يقلقه أحياناً. أية فكرة كانت لديها عنه؟ ألم تكن ترى أن هذا منزل غريب؟ هل كانت لديها أفكار خفية؟

هل السيدة بخير؟

- كالعادة. شكراً يا لويز.

كان يفضل أن ينتظر رحيلها ليجلس إلى المائدة لأن وجودها كان كافياً لإفساد متعته. كان يمضي لإغلاق باب المخزن وراءها ويستمع إلى وقع خطاها التي تبتعد على الرصيف، وهي أكثر رنيناً من أي مكان آخر بسبب القناطر. وكانت الأجراس تبدأ في الرنين، كان لديه دائماً، ميل إلى الآحاد، حتى في زمن

ماتيلد عندما كان هذا اليوم يحبسه فوق ولا يعطيه سوى ساعات من الملل الثقيل ربما كان قد انتهى إلى الاعتياد على الملل، قد أخذ يحبه.

كان يقرأ وهو يأكل. كان يقرأ التقرير التحليلي لمحاكمة مشعل حرائق في الجورا، عام ١٨٨٢، اجتذبت حماسة الجماهير إلى حد إشعال ثورة تقريباً واقتضى الأمر إرسال الجيش. لم يكن، فضلاً عن ذلك، يهم ما يقرؤه، لم يكن يتذكره في الغد. كان يشتري كتبه من صالة المبيعات، على مسافة بيتين عنه، ويختارها اتفاقاً، روايات أحياناً، قصص تاريخية أحياناً أخرى. كانت دائماً كتباً مصفرة الصفحات تفوح منها رائحة خاصة، ويجد فيها زهرة يابسة احياناً، وذبابة مسحوقة أحياناً أخرى. كان يتفق له أن يجد فيها رسالة مكتوبة بالحبر الشاحب استخدمت للدلالة على الصفحات، ونادراً ما خلت من اسم مكتوب على الصفحة الأولى أو الخاتم البنفسجي لمكتبة عامة.

وعد نفسه اليوم بأن ينجز عملاً هاماً. مضى زمن طويل كان فيه يشتهيه، لكنه نهض أولاً، ليذهب لغسل كأسه وصحنه ونفض الغطاء وكنس فتات الخبز على الأرض. ذهب، أيضاً، ليرى ما هيأته لويز للغداء، ورضي عن ذلك لأنه لن يحتاج سوى إلى إعادة تسخين يخنة الأمس.

عندما صعد إلى الطابق الأول مجتازاً المخزن الذي لم يكن يشعل، فيه، يوم الأحد، الغاز الذي كان أزرق مخضراً، كانت خطى ترن في الطريق في حين كان صوت الأجراس يغطي كل المدينة.

كان الخياط الصغير الذي لم يكن قد اغتسل بعد يرتدي بنطالاً دون حمالات فوق قميص النوم. كانوا يبدؤون، دائماً، بغسل الأطفال كي لا يزحموا الطريق. لكن الصعوبة كانت، عندما يصبحون جاهزين، منعهم من توسيخ ثيابهم اللائقة.

كانت البكر، استير، تلك التي تعمل في مخازن السعر الموحد، تتجول في الشقة بتنورتها الداخلية، وكان السيد لابيه يستطيع تمييز القسم العلوي من صدرها. كانت لا تزال نحيلة، خاصة في الوركين، ولكن صدرها كان أقرب إلى الامتلاء ككثير من بنات عمرها.

هل كانت تدع نفسها تداعب، مساء، في الزوايا المظلمة، على العتبات أو تحت البوابات، من جانب عشاق؟ كان ذلك محتملاً. كان يصدم السيد لابيه - لم يكن ليستطيع أن يقول لماذا - أن يستمتع رجال مع ابنة كاشودا، مع لحم كاشودا.

لم يكن الخياط الصغير الذي كان وجهه متعباً يعرف أين يقف. كان المرء يحس بأنه ليس على مايرام. يجب أن يكون ضميره يعذبه بقدر ما تعذبه معدته. كان يفيد من الأحد، كالعادة ليرتب ورشته، لكنه كان يفعل ذلك دون رغبة وذهنه في مكان آخر، واتفق له، مرات عدة، أن نظر إلى البيت المواجه حيث كان القبعاتي غير مرئي وراء الستائر. ما فائدة القلق من ناحيته؟

لن يقول شيئاً. لقد كان مذعوراً. هل يستطيع رجل مثله أن يذهب إلى الشرطة ويصرح باللكنة التي لم يتخلص منها:

- القاتل الذي تبحثون عنه هو جاري، القبعاتي.

- حقاً؟

- لقد رأيت قطعة صغيرة من الورق على أسفل بنطاله، حرفين اقتطعا من جريدة.

- عظيم جداً بالفعل!

- تبعته وخنق الآنسة ايرين مولار تحت بصري.

- جميل! جميل!

- ثم قال لي بصوته الطبيعي:

«إنك ترتكب غلطة يا كاشودا».

سيرتكب غلطة فعلاً. ألن تخطر لهم فكرة سؤاله عما إذا ما كان يتفق له، مصادفة، أن يرتدي معطفاً مطرياً أسمر اللون. ألم يكن أمثال كاشودا، في كل الأزمنة، وفي كل بلدان العالم، مشبوهين مختارين؟

هيا! حان وقت العمل، ذلك أن اقتطاع الحروف، واحداً بعد الآخر أحياناً، والبحث في كل المقالات واللصق بصورة متناظرة كانت عملاً بطيئاً حتى حين يكون المرء معتاداً عليه.

لم يكن السيد لابيه يكتب مسودة. كان شعاع شمس يتسرب من النافذة ويسقط على الجدار، تجاهه، زهور الستارة المخرمة المحززة. وفضلاً عن ذلك، كان هناك اسطوانتان صغيرتان من الشمس تتحركان كحيوانين حيويَّيْن، تبدوان كأنهما تلعبان على خزانة الأكاجو.

كانت، في شارع ميناج، أبواب تفتح وتنغلق، وكانت أسر تتوجه نحو كنيسة المخلص الأقدس، بين القناة والمرفأ. كانت تسمع صفارات المراكب. كان الصيادون يفيدون، دون الانشغال بالأحد، من تبدد الضباب ليخرجوا إلى البحر، وكان عليهم أن يتعاقبوا في صف أحادي في الممر.

كانت المدينة مشرقة بأصفر ذهبي في الشمس. وكان لون المرفأ أزرق موحداً. بعد قليل، ستخرج أسرة كاشودا بدورها، الأولاد يمشون في المقدمة بثيابهم الجميلة، ثم كاشودا وزوجته اللذان كانا يبدوان مرتبكين قليلاً في هذا اليوم، أقل ارتياحاً منهما في قلب الأسبوع. سيمرون، بعد القداس، بمتجر بيع الحلويات في شارع العقادين، والخياط الصغير هو الذي سيحمل، أثناء العودة، العلبة من الخيط الأحمر الذي ربطت به.

«مذكرة صغيرة بصدد ضحايا الخناق»

استخدم الكلمة عمداً، دون أن يخلو ذلك من سخرية، لأنها الكلمة التي كان يستعملها الناس. لا أهمية لكونهم يفهمون أو لا يفهمون.

صعد، قبل أن يبدأ، على كرسي ومد يده إلى ما فوق الخزانة حيث أخذ شيئاً، صورة فوتوغرافية مجلدة بالورق المقوى في إطار رفيع من الخشب الأسود. كانت، قبل شهرين، معلقة على جدار قرب سرير ماتيلد حيث كان لا يزال يمكن رؤية مستطيل أفتح على ورق الجدران.

كانت صورة صف في دير الحبل دون دنس في يوم توزيع جوائز. كان هناك حوالي خمس عشرة فتاة. غالباً ما عدهن السيد لابيه، وكان قادراً على وضع اسم على كل وجه. كن، جميعهن، بين السادسة عشرة والثامنة عشرة من العمر. وكن يرتدين الزي الموحد الكحلي نفسه، تتورة بطيات، بشعور مضفورة وحول عنق كل واحدة شريط يحمل ميدالية، كانت تقف وسطهن راهبة نحيلة

وشاحبة،متقشفة كانت تشبه صورة تقوى وتخفي يديها في كميها. وعلى حد قول ماتيلد، كانت جملاً حقيقياً على الرغم من ابتسامتها الملائكية.

كانت فتيات الصف الثاني واقفات على نوع من منبر مغطى بسجادة، وكانت نبتات خضراء تحيط بالجميع.

عاد إلى العمل والصورة أمامه على محبرة نحاسية لم تعد تستخدم على اعتبار أنه كان لديه قلم حبر، وكان يمرر لسانه بين شفتيه أحياناً.

«جاكلين دو لوبيل أرملة نقيب مشاة» كانت الثالثة إذا بدأنا من اليسار، سمراء قصيرة، ذات نظرة ماكرة وأنف مدبب، كان يبدو أنها كانت تمسك نفسها عن الضحك بالنظر إلى المصور الذي كان يجب أن يكون رأسه مندساً تحت قماشة سوداء.

«أسرة طيبة، ابنة كاتب العدل دولوبيل الذي كتب عدة مؤلفات في التاريخ المحلي. عاشت مع زوجها في مدن عسكرية متنوعة منها بيزانسون، أنجبت ولدين، ابنة متزوجة من مستورد من مرسيليا وابن ملازم في السباهي حالياً. كانت تعيش وحدها في شقة في شارع العقادين، فوق تاجر حبال وبراميل. كانت متخاصمة مع ابنتها. معاش تقاعدي صغير. لم تكن تقبل مالاً من ابنها وكانت تبيع سراً بياضات مطرزة».

أضاف بعد برهة تأمل:

«لم تأت ابنتها إلى الجنازة. ابنها الموجود مع حاميته في سورية *لم يمكن إعلامه في الوقت المناسب».*

هذا بالنسبة للأولى. لم تجشمه مشقة. لم تكن، أبداً، في صحة جيدة. كانت تحرم نفسها لتستطيع أن تعيش. كانت تجري، مساء، في المدينة لتسلم أشغالها، ومن الصعب، في لاروشيل، الانتقال من شارع تجاري إلى آخر دون المرور بأزقة مظلمة.

من حسن حظه أنه بدأ بها. ربما كان سيخطئ ضربته مع امرأة قوية مثل ليونيدبرو. وبالفعل لم تكن قد خطرت له، بعد، فكرة تثبيت وتر الفيولونسيل في قطعتين خشبيتين صغيرتين مثل تلك التي مازال بعض الباعة

يضعونها للرزم بمثابة قبضات. على الرغم من ضعف مقاومة السيدة دولوبيل، انعدام المقاومة نفسه، فقد آذى أصابعه إلى حد سال معه الدم منها.

كاد يقترف خطأ آخر. الأمر تم غير بعيد عن القناة، وراء كنيسة المخلص الأقدس، وخطرت له فكرة دفع الجثة إلى مياه القناة. كان المد يهبط، وكان التيار قوياً، لم يكن سيعثر على السيدة دولوبيل إلا بعد عدة أيام، عدة أسابيع، وربما لا يعثر عليها أبداً.

وكان من شأن هذا أن يغير كل شيء لأنه لم يكن، بعد ذلك، ليستطيع أن يفعل الشيء نفسه مع الجثث الأخرى. هل يمكن أن يقال أنه لن يكون هناك، إذ ذاك، تناظر؟ لم يكن ذلك تماماً. على كل حال، لن يكون للأمر الطابع نفسه.

استطاع، بعد ذلك، أن يذهب إلى مقهى الأعمدة ويلعب شوطاً من البريدج وهو يشرب كأس البيكون بالرمان.

«*السيدة كوجا / روزالي، صاحبة مكتبة في شارع العقادين، زوجة رونيه كوجا، الموظف في البلدية*».

ابنة أسرة طيبة أيضاً، سجل ذلك بأمانة. كان يستطيع أن يقول، ببساطة، أنها نشأت في دير الحبل بلا دنس، وهو الشيء نفسه، لكنه كان خطراً. وفضلاً عن ذلك، فإن من الطريف أن لا يكون أحد قد انتبه إلى كون العجائز المخنوقات في فترة بضعة أسابيع قد نشأن في الدير نفسه.

وحده الصغير جانتيه الذي كان ذكياً هو الذي لاحظ أنه كان لهن العمر نفسه وأنه كان بينهن ما يشبه صلة عائلية.

على الصورة، كانت الصغيرة كوجا، احتمالاً، أجملهن، بجمال بارد قليلاً. وسجل ما يلي:

«*كان أبوها العمدة المساعد للاروشيل خلال عشرين سنة*» كانوا أثرياء. كانت تستطيع أن تحصل على أفضل زواج. لماذا انتظرت أن تبلغ الثامنة والعشرين لتتزوج؟

كانت ماتيلد بقول بحدة:

- كانت صعبة جداً. لم تكن تريد إلا الحب الكبير.

وكانت ماتيلد تضيف دون حرارة:

- كما لو كان لهذا وجود.

في عمر الثامنة والعشرين تزوجت كوجا لأن أباها كان قد مات تاركاً إرثاً معقداً ولأن إخوتها كانوا متعجلين للخلاص منها. كان كوجا قد جرب عشرين مهنة قبل أن يدخل إلى البلدية. لم يكن جميلاً، ولم يكن على ذكاء خاص، كان عليلاً، وكانت زوجته هي التي تتكفل بالبيت.

كان السيد لابيه يعرف جيداً المكتبة الصغيرة التي يذهب للتنقيب في صندوقي كتبها المستعملة اللذين يمتدان على طول جدارها عندما لا يجد شيئاً على ذوقه في صالة المبيعات. لم تكن مكتبة هامة. كانت تباع فيها خاصة بطاقات بريدية، وأقلام حبر ورصاص ومماحٍ. إلا أنه كانت هناك صالة خلفية لا يدخلها إلا خاصة الزبائن، وكان القبعاتي يعلم أن بعض أصدقائه، مثل أرنو، رجل السردين، يتزود من هناك بالكتب الجنسية.

كان يعلم أيضاً أن هناك في آخر المكتبة باباً يؤدي إلى درب مسدود.

وبما أنه لم يكن للسيدة كوجا خادمة، وأنها لم تكن تخرج أبداً بعد إغلاق المخزن، إلا مع كوجا لتذهب من حين إلى آخر، إلى السينما، فقد كان يستطيع أن ينتظر شهوراً فرصة مفاجأتها خارجاً في الظلام.

من أجل ذلك، دخل إلى الدكان الخلفية. وقد تكشفت قطعتا الخشب في طرفي وتر الفيولونسيل عن كونهما عمليتين إلى أقصى حد. كانت أكثر عصبية من السيدة دولوبيل. وقد تساءل، عندما خرج، عما إذا كان قد ضغط خلال وقت كاف، ولم يطمئن إلا في الغد لدى قراءة الجريدة.

ذات مرة، منذ إحدى عشرة أو اثنتي عشرة سنة، قالت ماتيلد لصاحبة المكتبة وهما تتحدثان عما آلت إليه رفيقاتهما القديمات:

- ليست الحياة ظريفة.

وأجابت السيدة كوجا بهدوء:

- ولماذا تكون ظريفة؟

لوهذا ما أراد السيد لابيه الإشعار به، لكن ذلك كان صعباً. كان يبحث لكل منهن، عن صيغة. وكتب بالأحرف المقتطعة:

«كانت تعد الحياة محنة».

لم يكن ذلك ليبرئ نفسه. لم يكن يحتاج إلى ذلك. كان الأمر أهم من هذا، لكنه كان يتبين أن المهمة التي كان ينجزها دون إحباط كانت مستحيلة تقريباً. قبل بضعة أشهر، حلم حلماً غريباً، وربما كان يعمل اليوم، بسبب هذا الحلم.

وجد نفسه في قاعة تشبه قاعة تكريم، وكانت كل شخصيات المدينة مصطفة على المقاعد. كان، هو، على المنبر. لأنه كان يلقي محاضرة مع إسقاطات ضوئية.

ما يسقط على الشاشة كان الصورة المأخوذة سابقاً في الدير، وكان يدل على الفتيات واحدة بعد الأخرى.

كان قد بدأ، بخفة، باستبعاد عجول:

- لن نتحدث عن الأموات.

كانتا اثنتين. الأولى بنمش على وجهها وشعر قصير مجعد حول أذنيها وعند بداية ضفائرها، وكانت قد ماتت بالسل في عمر الثانية والعشرين، في مصحة في سويسرا. الأخرى كانت ذات عينين متقدتين، كانت امرأة منذ أيام المدرسة، تزوجت صاحب مصنع أسلحة مهم في المدينة وماتت لدى أول ولادة. الولد عاش وأصبح، بدوره، بائع أسلحة في بوردو.

بقي ثلاث عشرة. إحداهن عاشت في كل عواصم أوروبا مع زوجها القنصل وتقيم الآن في تركيا. لم يكن يعرف عن واحدة ثانية سوى إنها رحلت عن بيتها في عمر التاسعة عشرة وأن ذلك أحدث فضيحة. أمها ماتت بسبب ذلك، وأبوها تزوج ثانية.

بقي إحدى عشرة. كان حضور القاعة يستمعون إليه دون أن يفهموا كثيراً وكان يسعى، عبثاً، إلى جعلهم يفهمون فكرته. بين حين وآخر، كانت تبدل اللوحة في جهاز العرض عندما يقرع المنبر بعصاه فتظهر صورة بانورامية لمدينة لاروشيل، منظر لم يكن له وجود لأنه كانت تظهر فيه كل الأزقة، كل المنازل، المارة، وحتى، وهنا المعجزة، الناس في البيوت.

واحدة من آنسات الدير تزوجت، في باريس، وزيراً وتزوجت ابنتها ارستقراطياً نمسوياً. غالباً ما ترى صورتها في الجرائد. دخلت، مؤخراً، إلى عيادة من أجل عملية لم تحدد.

عادت أسرة كاشودا، وكانت ملابس الصغار تخلع عنهم ليرتدوا ملابس كل الأيام. بعد الغداء، سيأكلون حلوى سانت أونوريه مع قهوة بالحليب. سيبدل كاشودا،أيضاً، ثيابه ويعتلي طاولته إلا إذا أفاد من يوم الأحد ليجري حساباته التي كانت صعبة عليه دائماً.

كان ذلك اليوم الوحيد في الأسبوع الذي يمرّ فيه الجميع بالورشة باستثناء استير التي ستأتي صديقات لاصطحابها بعد قليل، متوقفات عند النوافذ ومناديات:

- أوهو.....

العاشرة.... ارتبك قليلاً كان ينبغي أن يسجل ملاحظات حين كانت ماتيلد لا تزال حية، هي التي كانت تعرف هذا على رؤوس أصابعها. فلننظر..... كانت هناك واحدة عملت في المسرح، ليس في باريس، بل في جولات في المحافظات. هناك اثنتان أيضاً... كان يصوب نحو الصور رأس قلمه كما فعل في حلمه بعصاه. تلك التي أصيبت بجدري الماء.... كانت الأولى في دار أزياء في لندن، وعادت عدة مرات إلى لاروشيل لترى أمها التي كانت لا تزال حية ومحطمة تماماً.

الأخيرة من اللواتي غادرن المدينة كانت تسكن في ليون، وهذا كل ما يعرفه عنها.

بقيت ست فضلاً عن ماتيلد، ويصبح الحساب مضبوطاً. لأنه لم تكن راهبة الصورة التي تدعى الأم سانت جوزفين والتي ماتت منذ زمن بعيد موضع بحث.

«الآنسة آن - ماري لانج، تاجرة خرداوات في شارع سانتيون»

كانت أسرة كاشودا على المائدة. بعد هذا سيذهب لتناول الطعام بدوره، لديه بعد الظهر للأخريات.

امرأة ضخمة كانت تحشو نفسها بالمعجنات، وكان بيتها مليئاً بالقطط. كانت شقراء ووردية، ترتدي الألوان الفاتحة دائماً، ذات صوت مرتفع بتنويعات ترتيليّة.

«أسرة طيبة، أبوها.....»

كان أبوها يجري وراء العاملات الصغيرات، وهذا ما سبب له متاعب. كانت هناك فضائح اقتضى الأمر أن تخنق. استمر في ذلك في عمر الخامسة والسبعين، واضطرت أسرته أن تراقبه وتقتفي خطاه في نزهاته ولم تترك معه أي مال، وقد طردت الخادمات ولم يتم الاحتفاظ إلا بالخدم الذكور في المنزل. هو، الآن، ميت. إحدى ابنتيه كانت في الولايات المتحدة. كانت آن ماري التي لم تتزوج، تعيش في متجر الخردوات مع معلمة سابقة ذات مظهر متسلط، وكانت الألسنة الخبيثة تزعم أنهما كانتا مستغنيتين جداً عن الذكور.

كان ذلك ممكناً. بالنسبة لها على كل حال، الصيغة كانت سهلة. لم يكن عليه سوى أن يستمد من الجريدة.

«كشف التشريح عن وجود ليف وورم كان يحتمل أن يتحول إلى سرطان».

كان المطر ينهمر غزيراً يوم الآنسة لانج، التي استطاع أن يهاجمها في وسط شارع غارغولو على مسافة خطوتين من «أوتيل دي فرانس». كان ذراعاها محملين برزم صغيرة انتثرت على الرصيف، ومن بينها زجاجة قشدة طازجة تحطمت.

كان ينبغي أن يذهب ليأكل. نزل ليسخن يخنته. ألقى بنصفها في المرحاض لأنه لم يكن يستطيع، دائماً، أن يأكل عن اثنين. لم يكن في حاجة، يوم الأحد، إلى أن يصعد بالصينية، وهذا مكسب دائماً. بعد ذلك، غسل الصحون، كانت لويز قد اقترحت:

- تستطيع تركها وسأغسلها عندما أعود.

كان يستطيع ذلك فعلاً. لكنه لم يكن يحب الأمور غير المنجزة وخاصة الصحون المغطاة بالدهون. وفضلاً عن ذلك، كان هذا يشغله. كان جزءاً من طقوس الأحد.

عاد إلى الصعود وغسل يديه بعناية. كان الصغار، عند كاشودا، يلعبون على الأرض. كانت السيدة كاشودا مشغولة بترقيع جوارب صوفية، وكان الخياط يحاول إجراء حساباته مبللاً، بين حين وآخر، قلمه بلعابه وطارحاً سؤالاً على زوجته:

- سبعة وتسعة؟

كان يتفق للسيد لابيه أن ينام القيلولة على مقعده، وهو مقعد مغطى بالمخمل القرمزي كمقعد ماتيلد، لكن عمله اليوم، يثيره. كان يقترب من النهاية. سيكون قد انتهى من الأمر غداً مساءً إذا سار كل شيء على ما يرام. كان يحس، في الوقت نفسه، بفراغ الصبر وبشيء يشبه شعوراً مسبقاً بالفراغ.

لن يكون لديه، بعد ذلك، سوى أن يفكر في تفاصيل صغيرة كانت قد أصبحت روتيناً ولم تعد تشغله.

لم يكن، حتى الآن، قد اقترف غلطة واحدة. كان واثقاً من أنه لن يقترف غلطة. حتى الحادث الطارئ الذي وقع مع كاشودا كان بدون عاقبة. لم يكن هذا يخيفه. على العكس من هذا، كان مسروراً بذلك تقريباً. ربما كان، قبل ذلك، وحيداً أكثر مما ينبغي.

كان قد جازف، عمداً، مع لويز بشيء من التهور.

من الآن فصاعداً، كان هناك أحدٌ ما يعرف، وكان ذلك شيئاً ممتازاً. سيقرأ كاشودا، بعد غد، تقريره في «*صدى الشارانت*».

ربما كان، الآن، يفهم بعض الأمور. «*السيدة جوفروا - لامبير، أرملة رئيس صندوق التعويضات*».

جوستين! هكذا كان كل الناس يدعون شقيقة صديقه جوليان لامبير، رجل التأمين. لقد مشى في جنازتها، مشى في كل الجنازات على اعتبار أن الأمر يتعلق بأشخاص يعرفهم!

هذه أرملة أخرى. كان هناك كثير من الأرامل. صحيح أن جوستين قد تزوجت رجلاً يكبرها بعشرين سنة، شخصاً غنياً، هاماً كان يملك في شارع ريو مور أجمل مسكن عائلي في المدينة وآخر في باريس حيث كان يعيش القسم الأكبر من السنة.

كان واحداً من هؤلاء الموظفين الكبار الذين تبقى مهماتهم سراً بالنسبة للناس العاديين. كان قد مر على التفتيش المالي، وكان مستشار دولة، ويزعمون أنه كان أكثر رجل خدعته زوجته في فرنسا.

وعلى كل حال، عُرفت جوستين، منذ وفاته، بحبها للفتيان إلى أقصى حد. كانوا يشربون، لديها، بنهم ويرقصون حتى الفجر ولم يظهر لديها في عمر الستين، أي اتجاه إلى التخلي عن اللعبة.

كان عندها سائق قيل بأنه عشيقها، لكنه لم يكن أمامها، كي تنتقل في مخازن شارع القصر حيث كانت، بصوتها الحاد، تتصرف كملكة، سوى مسافة قصيرة تجتازها، لحسن الحظ، على قدميها.

كانت هي التي كبدته أكبر المشقة. كانت تمسك بمظلة كاد سيخُها أن يقلع له عينه عندها هجم عليها. أمسك بها، أولاً، من ذقنها، بوتر الفيولونسيل، وتخبطت ورفسته بحيث كان على أهبة أن يهرب دون أن يتم مهمته.

ومع ذلك، أنجز عمله. كانت تلك المرة الوحيدة التي كان عليه، فيها، أن يركض لأن باباً قد فتح على مسافة أقل من عشرة أمتار منه، وكان يعتقد، أيضاً، أنه سمع صوت رجل يقول بأدب:

- شكراً يا سيدتي. سأضع، ذلك، في اعتباري، بالتأكيد. أستطيع أن أؤكد لك أنه لو كان الأمر في يدي وحدي، لكنت، منذ زمن طويل بلغت ما تريدين.

لا شك في أنه كان ممثلاً لأحد المتعهدين أو شيئاً من هذا القبيل.

لم تكن جوستين مريضة، لم تكن شقية ولا مستسلمة. لم تكن لديها أية رغبة في الانتقال إلى عالم آخر. كان القبعاتي ينفر من أن يكتب مثلاً:

«*هل هي خسارة للمجتمع؟*».

ليست كذلك حتى بالنسبة للأسرة التي كانت تعيش في الرعب من فضيحة ممكنة إلى حد كانت، معه، ابنتها المتزوجة من شخصية مرموقة تحرم عليها أن تضع قدميها في باريس.

اكتفى، بعد أن أوجز ترجمة حياتها، بوضع إشارة استفهام.

«*ليونيد برو، ٦١ سنة، قابلة في فيتيي.....*».

كانت أسرة برو قد امتلكت عشرين مزرعة وقصرين، وآل الأمر بليونيد إلى أن تعيش في فيتيي، وهي ضاحية للمدينة، قرب مصنع الغاز، يسكنها عمال في الخطوط الحديدية وموظفون صغار وعمال...

هل كان أبوها الذي خسر ثروته في مضاربات مضحكة، مجنوناً حقاً كما كان يزعم بعضهم؟ هل كان زوجها الذي مات في الحادية والأربعين من عمره مصاباً بداء الزهري؟ على كل حال، ماتت لهما ابنة مشوهة في عمر مبكر، وابنهما لم يكن كالآخرين. ومع ذلك، تزوج، وكان يعيش، دون أن يفعل شيئاً، لدى أهل زوجته الذين كانوا يستثمرون كرماً صغيراً في الدوردون.

كان برو، في حياته، يبات خارج البيت نصف الوقت وكان يتفق له أن يعود إلى بيته بصحبة نسوة كان يلتقطهن من أي مكان، ومن حي التكنات أحياناً، وقد ضرب، ذات ليلة، ليونيد أمامهن بذريعة أنه كان يكره أن يراها تبكي، وأنها كانت تبكي عمداً لتسمم حياته.

كان عليها أن تخضع للعلاج. وفي المستشفى، تعلمت مهنة القابلة. كان شعرها رمادياً، وكان لبشرتها لون الجص. كانت هادئة، جليدية، كان يقال أنها بارعة جداً في مهنتها. لم يرها أحد، قط، تضحك أو تبتسم، وكانت لها طريقة في الإمساك بالمواليد من أقدامهم كانت ترتعد لها الولاّدات.

الصعب كان إفهام كل هذا، ما كان يعنيه، في بضع جمل لأنه لم يكن يستطيع أن يقتطع حروفاً من الجريدة إلى ما لانهاية.

لم يكن القول بأنه ربما هتف لها، صحيحاً. كان قد التقاها مصادفة وهو يطوف حول بيتها ليطلع على روحاتها وغدواتها. بل إنه كان قد تردد في حمل وتره. كان البيت صغيراً جداً مع ضوء فوق الباب.

خرجت ليونيد حين لم يكن هناك إلا منذ بضع دقائق، وكانت تحمل حقيبة بيدها. تبعها حتى مصنع الغاز، انتظر مرور سيارة. تعرفت عليه، تسنى لها الوقت لتدير رأسها، ولكن الوقت كان قد فات. لم تظهر أية دهشة، أي خوف. لم يجرؤ على أن يقول أنها قد استراحت، وهو ما كان صحيحاً تقريباً.

أما بالنسبة لآيرين مولار، فقد كتب، في الغداة، إلى الجريدة بما كان عليه أن يقول. كانت، في الصورة، كما حين خرجت من آخر درس بيانو لها، تجعله يفكر في طائر وقع من عشه. كان عيشها إلى هذا العمر معجزة.

لم تبق سوى واحدة، ارماندين دوتبوا، الأم المقدسة أورسولا، التي كانت، في صور أخرى لتوزيع الجوائز ظهرت فيها مع فتيات أخريات، تلعب بدورها الدور الذي لعبته، في السابق، الأم سانت جوزفين.

كانت هذه الأخيرة قد انتقلت، نوعاً ما، من الصورة إلى الدير. لم تتجشم عناء العيش، ولا المحاولة فقط، ومع ذلك كانت غنية. كان لها إخوة وإخوات شقوا طريقهم في العالم.

سوف يتم الأمر غداً لأنها لم تكن تغادر دير الحبل بلا دنس سوى مرة في الشهر، الاثنين الثاني لتذهب إلى دار الأسقفية. لن تكون وحدها. الراهبات لا يخرجن، أبداً، وحيدات. بالكاد سيكون أمامها خمسون متراً تجتازها في الظلمة، وكان السيد لابيه مرغماً على وضع خطة على درجة كافية من التعقيد.

هل سيتبعه كاشودا من جديد؟ في الحقيقة، كان يرغب في ذلك إلى حد كاف.

إذا جرت الأمور كما كان يتوقع، فسوف ينتهي كل شيء غداً، في الساعة السادسة.

لم يكن يريد أن يفكر في لويز. الإغراء كان مضحكاً. لم يكن يعني شيئاً.

كرر لنفسه عدة مرات وهو يضع حطبات في المدفأة ويسدل الستائر لأن الليل قد حل.

- على وجه الخصوص ليس لويز.....

نزل ليصب لنفسه كأساً من الكونياك الذي كانت زجاجته في خزانة الطعام. جلس ليشربه على مهل، بجرعات صغيرة، بعد أن أعاد السدادة إلى مكانها كي لا يغرى بتناول كأس أخرى.

(٥)

وقعت أكداس من أشياء صغيرة ساءته، أزعجَتْهُ، وذلك منذ الصباح. وصل فالانتان متأخراً نصف ساعة إلى عمله وحول عنقه كمادة وعيناه لامعتان من الحمى. كان زكامه قد بلغ أبعاداً لم يعد، معها، يضيع الوقت في إعادة منديله إلى جيبه. كان المستخدم يسيل، بالمعنى الحرفي للكلمة، طيلة النهار. كان يرى وهو يميع، وكان صوته مجروحاً إلى حد لم يكن المرء يكاد أن يفهم ما كان يقوله.

كان ينبغي على القبعاتي أن يعيده إلى بيته. كانت أم الفتى تعتبره، احتمالاً، وحشاً لأنه كان يحتفظ به في العمل في هذه الشروط. فالانتان نفسه توقع أن يحرر. وما هو أكثر من ذلك هو أن السيد لابيه كان يشفق عليه. لم يكن يفوته أن رأس الفتى المسكين كان يدور به أحياناً.

- هل تناولت الأسبرين يا فالانتاين؟

- نعم يا سيدي.

- هل هناك في حنجرتك بقع بيضاء؟

- كلا يا سيدي. أمي نظرت هذا الصباح. حنجرتي حمراء جداً، لكن ليس فيها بقع.

هذا أفضل لأن السيد لابيه كان يلتقط، بسهولة، نزلة صدرية ولم يكن هذا الوقت المناسب. وكان يزيد في غرابة زكام فالانتان أن السماء لم تعد تمطر، أن السماء كانت صافية. صحيح أن الطقس كان بارداً إلى حد كان، معه، تنفس المارة، في الساعة التاسعة صباحاً، يشكل بخاراً.

عندما ذهب ليشتري جريدته، عاد ومعه سكاكر بالنعناع من أجل فالانتان. مرتين أو ثلاثاً قال له من آخر دكانه الخلفية:

- استرح قليلاً. لا تقف إلى جانب الواجهة. اقترب من النار.

كان الهواء جليدياً إلى جانب الزجاج.

كانت لويز، أيضاً، تشغل باله. كانت، في الأمس، قد عادت، كعادتها، في الساعة التاسعة، ومنذ ذلك الحين تسيطر عليها حالة يسميها رأس العجل. كان ذلك دورياً، وربما كان يتطابق مع بعض وظائفها العضوية. ومع ذلك، فقد لاحظ أن ذلك كان يلي، عامة، إحدى زياراتها لشارون.

يجب أن يكون أحد هناك، أهلها أو عاشق أو صديقة، يوسوس في ذهنها. كان السيد لابيه يدفع لها جيداً. لم يناقش في الأجر الذي طلبته. كان يدعها تأكل ما تريد. ونادراً ما وجه إليها ملاحظة. وعلى الرغم من ذلك، كانت لديها فكرة خفية، وربما ضغينة. من الذي يستطيع أن يخمن ما كان يجري وراء جبهتها العنيدة ؟

كان هذا المزاج يعرف من مجرد مشيتها، من طريقتها في تحريك الأشياء. ماذا كان تأثير ذلك في القبعاتي؟ كان قد ألقى، تعويضاً عن هذه المتاعب الصغيرة، بتقريره في صندوق البريد المركزي ووجد، في الصفحة الأولى من الجريدة، إعلاناً تجشموا عناء وضعه ضمن إطار. «عمدة لاروشيل، الضابط في جوقة الشرف، يرجو، بإلحاح، السكان أن يكونوا أكثر حذراً من أي وقت مضى مساء الاثنين في ١٣ كانون الأول. إن الشخص الذي يرهب المدينة منذ أكثر من شهر والذي أوقع ست ضحايا قد أعلن، حتمًا على سبيل التحدي، عن جريمة جديدة سيرتكبها في هذا اليوم. نطلب إلى السيدات، خاصة، أن لا يخرجن بعد هبوط الليل، ومن الأمهات أن يمنعن الأطفال من الخروج.

«وسوف تنظم البلدية خدمة إعادة موظفات المكاتب والبائعات والعاملات إلى بيوتهن.

«وسوف تعزز الدوريات»

نظر إلى الجهة المقابلة. لم يكن هناك ما يستحق الذكر من جهة كاشودا. كانت قد انتابت هذا الأخير حمى العمل، ولم يكن يكاد أن يرفع رأسه.

أكان هذا كل شيء؟ كان هناك تفصيل آخر: فمنذ الساعة الثالثة من بعد الظهر، وفي حين كانت السماء تميل إلى اللون الوردي، كان يشاهد، فعلاً، قمر ضخم مفضض.

ولم يتصرف كاشودا، أخيراً، في المساء، كالعادة.

- سوف تغلق المخزن يا فالانتان.

- نعم سيدي.

نظرة إلى المنزل الآخر. تباطأ قصداً. انتهى الخياط الصغير إلى الخروج من بيته، ولكن فقط بعد أن اجتاز القبعاتي حوالي مائة متر. في الأمسيات الأخرى، لم يكن ينتظر إلى هذا الحد.

دخل السيد لابيه إلى مقهى الأعمدة، صافح شنترو وكاييه ولود وصاحب المقهى، أوسكار. قال الأخير وهو ينهض:

- أخذت الورق في انتظارك.

- ليس لدي وقت للعب اليوم.

ألح الدكتور قائلاً:

- جولة واحدة يا ليون.

- ماتيلد مصابة بالزكام. وقد وعدتها بأن أعود فوراً.

ماذا كان كاشودا يفعل؟ لم يفتح باب المقهى. في الأيام الأخرى، كان يدخل بعد القبعاتي ببضع ثوان. استثار ذلك الأخير. أراد غبرييل، كالعادة، أن ينزع عنه معطفه، لكنه لم يدعه يفعل، بسبب قطعة الأنبوب الرصاصي التي كانت تثقل جيبه.

- لن أبقى سوى بضع دقائق.

وكان لود هو الذي مزح ببلاهة:

- يخيل إلى المرء، أنك، أنت أيضاً، خائف من الخنّاق. إذا استمر هذا، فسوف تصبح المدينة هستيرية.

ماذا كان يمكن لكاشودا أن يفعل؟ كان وراءه عندما انعطف عند زاوية شارع ميناج. ابتلع كأس البيكون بالرمان. رجاه شنترو من جديد قائلاً:

- جولة واحدة في انتظار أن يصل رابع.

كان مرغماً على الرفض. فقد حان وقت الرحيل. كان بلاط الشارع أبيض تقريباً، تحت ضوء القمر الذي كان يبرز الظلال بجلاء صفائح الحديد. كانت تلك هي المرة الأولى التي تثور فيها أعصابه. تكّون لديه الانطباع، وهو ذاهب، بأنهم كانوا يتحدثون عنه. لكي يقولوا ماذا؟ اجتاز ميدان السلاح ليمضي في شارع ريومور، وعند ذلك، فقط، سمع خطوات وراءه، التفت ولمح طيف الخياط الصغير.

هكذا، إذن غيّر هذا الأخير، عمداً، طريقة تصرفه، لم يدخل إلى المقهى. فبما أنه قد قرأ في الجريدة، كجميع الناس، أن القاتل سيقضي، في هذه الليلة، على الضحية السابعة، فقد تراءى له أن القبعاتي لن يمكث إلا قليلاً في مقهى الأعمدة. كان يريد أن يتجنب الخروج، مرة أخرى، على عقبيه، وهو ما كان سيلاحظ أخيراً.

أم هل كان قد صادف أحداً في لحظة الدخول، المفوض بيجاك مثلاً؟ لم يكن هذا محتمل الوقوع. فيحتمل أن لا يأتي المفوض إلى المقهى في ذلك اليوم. كان عليه أن يقود، من مقره العام، تعزيزات الشرطة ودوريات المتطوعين.

مر السيد لابيه أمام مبنى المحافظة ووصل إلى الميدان الصغير تجاه دار الأسقفية، ولم يعد عليه سوى الانتظار. كان هناك نور في البناء الحجري الرمادي القديم. كان كاشودا يقف بحذر، على مسافة حوالي خمسين متراً. كانت أعصاب القبعاتي فائقة الاستثارة إلى حد كاد معه أن يعدل عن عزمه ويعود إلى البيت. لكنه لم يكن يستطيع أن يعود إلى المقهى بعد الذي قاله عن حالة ماتيلد. كان لديه الإحساس المحبط بظلمٍ كان يقترف بحقه. لقد فعل كل ما استطاع فعله. لم يسمح لنفسه، خلال أسابيع، باسترخاء، فكر في كل شيء، في أتعس التفاصيل. بفضل ذلك، وبفضل العناء الذي تحمله، نجح دون أية عقبة.

وصل إلى الهدف. هذا المساء كان يجب أن ينتهي كل شيء. كان قد قبل، دون تردد، مجازفة إضافية على اعتبار أن راهبة أخرى ستصحب الأم المقدسة أورسولا. كان أنبوب الرصاص مخصصاً لتلك الراهبة، سوف يضربها بقوة بحيث يغمى عليها، وهو ما سيمنحه الوقت للإجهاز على المدعوة، سابقاً، ارماندين دوتبوا. لن تستطيع أبداً، بسبب ثوبها ذي الطيات المتعددة أن تركض. ولم يكن يتصورها، كذلك، تصرخ بأعلى صوتها.

كان ذلك، دقيقاً، صعباً. كان يقتضي الدقة ورباطة الجأش. في الأمس، فقط، كان يفكر في ذلك بشيء من المتعة ويواجه، دون عصبية، حضور الخياط الصغير.

لماذا كان يحس، منذ الصباح، بما يشبه مؤامرة ضده؟ كان وسط الميدان في بياض الحليب. مرت دورية في الطريق وميز طيف تاجر أسماك كان سكراناً دائماً، وكان معروفاً بوحشيته في الأحوال الطبيعية. كان يجب أن تكون الراهبتان، في هذه البرهة، في الأسقفية. كان ذلك يوم الأم المقدسة أورسولا. لم تكن لتفوته أبداً. لم يقتصر الأمر على أن ماتيلد غالباً ماقالت له ذلك، بل إنه تأكد من ذلك في الشهر الماضي.

في آخر مرة، كانت قد غادرت الأسقفية في الساعة السادسة إلا الربع. لكن السادسة إلا الربع كانت قد مرت وبقيت الأضواء كما هي في المبنى الحجري، ولم يكن يسمع أي صوت. كان السيد لابيه يحدق، عبثاً، في الباب الذي لم يكن يفتح، في حين كان كاشودا، بين حين وآخر، يضرب الأرض بنعليه ليتدفأ.

كان القبعاتي، هو أيضاً، بارد القدمين وفجأة، فكر، بمزيد من الكثافة، بالأم المقدسة أورسولا. ألم تلاحظ، هي، أن كل ضحايا الخناق كن رفيقات صف سابقات؟

ألم تكن تقرأ الصحف؟ في هذه الحالة، لا بد من أنهم حدثوها عن ذلك. الأسماء كانت مألوفة لديها. في أقصى الأحوال، كان يمكن تفسير كون الآخرين لم يجدوا هذه المقاربة. أما هي؟

لم يعد ٢٤ كانون الأول بعيداً. هذا التاريخ سوف يحيي ذكرياته حتماً. لم يكن يستطيع أن يذهب للقرع على باب الأسقفية والسؤال عما إذا كانت الراهبة موجودة. دقت الساعة السادسة. بماذا كان كاشودا يفكر خلال كل هذا الوقت؟ ذلك أنه كان يفكر. بل كان لدى السيد لابيه الانطباع بأنه أخذ يفكر بطريقة جديدة. والدليل هو سلوكه الجديد.

كان يريد العشرين ألف فرنك. كان هذا إنسانيا. إذا كان يتبع القبعاتي فذلك لأنه كان يأمل في أن ينتهي هذا الأخير بارتكاب خطأ، بتزويده بدليل يسمح له بالذهاب والمطالبة بالجائزة.

ولكن ماذا عن تعرجات أفكاره؟ هذا ما كان السيد لابيه يريد أن يعرفه. الأسقفية مثلاً؟ بماذا كان ذلك يذكر رجل الشرق الأدنى البسيط؟ لم تظهر الأم المقدسة أورسولا. يحتمل أن لا تكون هناك. لم تغادر ديرها. لا أهمية لكون ذلك عن حذر أو عن أي سبب آخر. قد يكون الأسقف مسافراً، لكن الأمر ليس كذلك لأن السيد لابيه كان يقرأ الجريدة بانتباه، وتحركات رجال الدين كانت تذكر فيها بانتظام.

ربما كانت الحقيقة أبسط من ذلك. قد تكون الراهبة، مثل فالانتان، مصابة بالزكام، بألم في حنجرتها.

كان من المستحيل البقاء هناك إلى ما لانهاية. انتظر الربع، ثم بدأ المشي وهو فريسة لانزعاج لم يكن من القلق فقط.

والحق هو أن ذلك لم يكن قلقاً بالمرة. لم يكن يهم ما كان يفكر، فيه، كاشودا. لقد قدم له طرف خيط. سوف يعمل ذهن الخياط الصغير على خط الأسقفية هذا. وخصوصاً بالنسبة لشخص أمضى طفولته في المدينة، شخص قد تكون له أخت في الدير، ربما يوصله ذلك، عند الضرورة، إلى نتيجة ما لم تكن هذه حالة خياط أرمني صغير. لم يكن السيد لابيه خائفاً من كاشودا، لم يكن خائفاً من أحد. الدليل هو أنه جعل مهمته أصعب وأخطر، عمداً، بإعلانه عن موت الضحية السابعة في هذا الاثنين.

لم يكن يريد أن يعود إلى البيت أبكر من المعتاد بسبب لويز. لم تكن هي الأخرى قادرة على التفكير. كان واثقاً من ذلك، لكنه لم يكن يريد أن يدع شيئاً للمصادفة، لم يكن يرغب في قراءة الدهشة في عيني الفتاة الفارغتين.

مر تحت الساعة الضخمة وأفاد من عدم وجود أحد قريباً منه ليلقي بأنبوب الرصاص في مياه المرفأ. كان على الرصيف كميات من المقاهي الصغيرة التي كانت أبوابها مفتوحة، وبارات يرتادها الصيادون على وجه الخصوص. كان يرغب في أن يدخل إل أحدها ليشرب شيئاً. وكان مرغماً على ضبط نفسه.

لم يكن خائفاً. كان الأمر أكثر تعقيداً وإثارة للقلق. في المرات الأخرى، حتى في تلك التي كان كاشودا، فيها، شاهداً، كان واثقاً من نفسه. كان في كل كينونته ما يشبه موجات ثقة بذاته، موجات سكينة.

حرص كاشودا على البقاء بعيداً عنه إلى درجة كبيرة، من يدري؟ ربما لم يكن، اليوم، مخطئاً، في التزامه الحذر.

كان ذلك غبياً. لم يكن السيد لابيه يريد المضي إلى مثل هذه الأفكار، ومع ذك، لم يكن يتوصل إلى طردها تماماً. كان يعطي نفسه مبررات جيدة.

- مهما يكن كاشودا مرعوباً، فسوف، ينتهي، حقاً، بأن يتكلم.

أولاً، لم يكن ذلك مؤكداً. ربما صح هذا لو كان له أصدقاء. ولكنه كان منعزلاً. فأسرة كاشودا كانت تشكل ما يشبه جزيرة صغيرة أجنبية في المدينة. لم يكن يلعب الورق مع أحد، لم يكن ينتمي إلى أية مجموعة، إلى أي مجتمع، لم يكن، في لاروشيل ،آخرون من جنسه. كان أفراد الأسرة يعيشون فيما بينهم، بمطبخهم، بعاداتهم، برائحتهم. ماذا يفيد القضاء عليه بدلاً من الأم سانت أورسولا؟ وفضلاً عن ذلك، فسوف يركض مثل أرنب منذ أن يتظاهر السيد لابيه بأنه يقترب منه.

ما الذي وضع هذه الفكرة في ذهنه؟ كان يمشي على الرصيف ويداه في جيبه عندما التقت به دورية. قال له اللحام الذي كان يواجه مخزنه بأدب:

- مساء الخير ياسيد لابيه.

مر قرب القناة، هناك حيث هاجم السيدة دولوبيل، وأحس بحنين إلى عهد أنقضى إلى حد أنهكه ذلك تقريباً.

هل سيصبح رخواً، قلقاً، متردداً؟ كان ذلك جسدياً أكثر منه معنوياً، كبعض أنواع التعب التي تنقض على المرء فجأة كنزلة البرد.

هذا محتمل، فقد كان فالانتان مصاباً أساساً بنزلة برد والتقط السيد لابيه العدوى. عزته الفكرة. لم يكن بعيداً جداً عن دير الحبل دون دنس، وتساءل من جديد لماذا لم تخرج الأم المقدسة أورسولا. كان كاشودا لا يزال يتبعه من بعيد، وفكر القبعاتي في أنه يود أن يكلمه.

كان، اليوم، الإنسان الوحيد الذي يستطيع أن يكلمه. كان يعلم. لكن، كيف كان يفسر أفعاله؟

بالطبع، كان غير قادر على الفهم. لن يفهم، لا هو ولا أي شخص آخر، وكان ذلك أيضاً أحد همومه. انطلاقاً من الأسقفية ربما كان في مقدور كاشودا، مع شيء من العبقرية، أن يصل إلى الحقيقة، هو الذي كان، منذ سنوات، يرى خيال ماتيلد ساكناً وراء الساتر الحديدي وروحات القبعاتي وغدواته في الغرفة.

كان للحام المشهد نفسه، تقريباً، تحت بصره. على كل حال، لم يكن يصعد، أبداً، إلى الطابق الثاني إلا لينام. وفضلاً عن ذلك، كان، اعتباراً من الساعة الثامنة، نصف سكران.

ولويز؟ هذه الأخيرة لم تكن تفكر. كان يكرهها. كانت كراهيته لها تزيد كل يوم دون سبب محدد. كانت، في بيته، كشوكة في جلده. وجودها، وحده، كان كافياً لأن يسبب له توعّكاً جسدياً.

مر إلى جانب مكتبة السيدة كوجا حيث كان الأرمل قد وضع فتاة وراء المكتب. كانت تعد وجبات موظف البلدية وتنام في البيت. سوف ينتهيان إلى أن يناما معاً.

فكر السيد لابيه في الآنسة بيرت وتأسف لكونه لا يستطيع أن يذهب ليراها. كان ذلك مستحيلاً اليوم. لقد فات الوقت. كان قد أعلن لأصدقائه أنه كان، بسبب زوجته، مرغماً على العودة إلى بيته مبكراً.

سيزورها غداً. سيكون مسلياً أن ينتظره كاشودا على الباب، في شارع غارغولو، أثناء مضاجعته لها.

لكنه..... لحسن الحظ، كان يفكر في كل شيء، كان أول من دهش لذلك. كان هناك من التفاصيل التي يجب مواجهتها ومن احتمالات يجب توقعها ما يجعل نسيان شيء ما أمراً مبرراً.

اكتشف فجأة، أنه لم يعد يستطيع أن يذهب إلى الآنسة بيرت، كما اعتاد أن يفعل مرة أو مرتين في الشهر، وذلك بسبب كاشودا! فيمكن لهذا الأخير. فعلاً، أن ينتابه الهلع ويتوهم أنه سوف يخنق الفتاة، وأن يركض لإخطار الشرطة.

كان كاشودا مربكاً، ومع ذلك، كان لا يزال ضرورياً. حتى وقع خطاه وراءه، أصبح أمراً لا غنى عنه تقريباً بالنسبة له.

انعطف عند زاوية شارع ميناج وهو يحس بنفسه متزايد الإحباط، ولا يزال يبحث عن السبب. وراح السخط الذي يولده ذلك في نفسه يتحول إلى قلق. كان يحس، في المرات السابقة، بكثير من الامتلاء وهو يصل إلى جوار بيته.

لم يكن ليعترف بهذا لأحد، ولا حتى لكاشودا الذي كان يعلم. كان لديه، اليوم، مايشبه الشعور بالإثم، شعور من لم ينجز المهمة التي كلف نفسه بها.

ربما سيتحدث، ذات يوم، إلى الخياط الذي لن يستطيع، أبداً، أن يخنقه. لم يكن وارداً على القائمة، أولاً، وكان، ثانياً، يسكن تجاهه وربما بدأ الناس في التفكير في القبعاتي.

سحب رزمة مفاتيحه من جيبه وأعاد إغلاق الباب بعناية ووضع عليه القفل. كانت الحرارة عالية في المخزن حيث كانت لا تزال هناك رائحة الأوكاليبتوس التي كانت تشبه رائحة زكام فالانتان.

- هل نادت السيدة؟

- كلا يا سيدي.

هل لاحظت لويز أن سيدتها التي لم ترها قط، لم تكن تنادي أبداً في غياب السيد لابيه؟ ماذا كانت تقول يوم الأحد، لأهلها وصديقاتها؟

كانت تطهي ملفوفاً. كانت تعلم أنه لا يحب الملفوف، وكانت، مع ذلك، تعده له. كانت هكذا. عندما يوجه لها ملاحظة حول ذلك، كانت تنظر إليه بهدوء دون أن تقول شيئاً، دون أن تعتذر.

كانت، هي، تحب الملفوف!

خلع معطفه وقبعته ودس وتر الفيولونسيل في تجويف رأس خشبي في آخر الدكان الخلفية. ثم صعد السلم الحلزوني وهو لا يزال يحس بنفسه حزيناً، دون ميل، دون حيوية.

كان قلقه يتزايد بسبب ذلك. فعل كل ما كان عليه أن يفعله، اتبع كل الطقوس بعناية: الستائر، المقعد، ثم العشاء الذي كان يجب أن يلقي به في المرحاض وطارد المياه. لم ينس التحدث بصوت منخفض، وعندما نزل ثانية، نظر إلى لويز بكراهية، وكان الإغراء من القوة بحيث كاد يذهب ليجلب وتر الفيولونسيل من الورشة.

لم يستمر هذا لحسن الحظ. كان ذلك، حقاً، آخر شيء يجب أن يفعله، خاصة في بيته! خاصة مع أسرة الفلاحين الشكاكين هذه التي سيسلطها عليه. سأل مستعيداً تماسكه:

- هل أتى أحد؟

- لا أحد.

كان يبدو عليها أنها تقول:

- ما جدوى هذا السؤال ما دام لا أحد يأتي على الإطلاق؟

لا أحد على الإطلاق! منذ سنوات وسنوات! لأن كل الناس كانوا يعلمون أن ماتيلد لم تعد تستطيع أن تتحمل وجود كائن بشري غير زوجها وأن أدنى ضجة مبهمة في البيت تضعها في ارتعاش. كان لا يزال، على الرغم منه، يطوف في قاعة الطعام ناظراً، أحياناً، نحو الفتاة البدينة البلهاء، بحقدٍ، وانتهى بفتح البوفيه ليخرج منها زجاجة الكونياك. سحقاً لما قد تفكر فيه!

سحقاً له، هو أيضاً، لأن قيامه بهذه الحركة، صعوده السلم مع الزجاجة وفي يده كأس كان يزيد، أيضاً، من قلقه ومن شعوره بالإثم.

لم يكن أبداً يشرب كحولاً في المساء بعد عشائه. لماذا يشرب اليوم؟ وزاد في اضطرابه كونه، عندما أزاح الستار، لم ير كاشودا في دكانه على الطاولة لأن الوقت تسنى للخياط كي يتعشى. بحث عنه، عبثاً، بعينيه في الغرفة. كان باب المطبخ مغلقاً كما لو كانت تلك مصادفة. ماذا كان يدبر؟ هل أغلق على نفسه كي يطلع زوجته على الأمر؟

كان يجب قطعاً أن يتمالك السيد لابيه نفسه. زادت نقمته على ذاته عندما كاد أن يشرب جرعة من الكونياك من الزجاجة نفسها وأرغم نفسه على المضي نحو طاولته ليملأ كأسه على مهل ويفرغه بجرعات صغيرة.

عندما عاد إلى النافذة وأزاح الستار من جديد. كان كاشودا هناك. كان يبدو أنه لم يغادر مكانه أبداً إلى حد تساءل القبعاتي معه، عما إذا كان قد نظر جيداً منذ قليل. كان يجب أن يكون كل شيء قد انتهى في هذه الساعة. لطالما وعد نفسه بهذا الانفراج! كان يفكر فيه منذ أسابيع، يوماً بعد يوم! وها أن شيئاً لم ينته. كانت الأم سانت أورسولا حية في ديرها. ربما تكون قد احتفظت، أيضاً، بصورة توزيع الجوائز. كان يكفي أن تقع نظرتها على هذه الصورة لكي تفهم.

فجأة، تجمد وسط الغرفة وزال كل التشنج من قسمات وجهه واسترخت عضلاته. مرت برهة قصيرة كاد، فيها، أن ينفجر ضاحكاً. وفي نهاية المطاف، ابتسم فقط، لكن ذلك كان الشيء نفسه.

يخيل إلى المرء أنه فكر في كل شيء، يتفنن في عدم نسيان شيء، ويكون هناك شيء صغير يهمل أخذه في الحسبان. كان ذلك بسبب الصورة. كان قد بدأ مستنداً إلى الصورة، بمساعدة هذه الأخيرة وضع قائمته. الصورة استمرت في السيطرة على أفعاله وحركاته، وكذلك على أفكاره.

لماذا تعجل إلى هذا الحد بحيث قضى على امرأتين في أسبوع واحد إن لم يكن ذلك بسبب ٢٤ كانون الأول؟

إلا أن الأم المقدسة أورسولا، لم تطأ، قط، أرض مخزن القبعات، لا في ٢٤ كانون الأول ولا في أي تاريخ ألم تقل له ماتيلد أنه كان ممنوعاً عليها الدخول إلى بيت أمها حتى عندما كانت هذه الأخيرة تحتضر؟

اكتفت بإرسال صورة دينية مع رسالة من أربع صفحات، بكتابة أنيقة ومنتظمة تنتهي، دائماً، بعبارة:

- *أصلي إلى الله كي يحفظك في حراسته المقدسة.*

إذن؟ لم يكن قد فكر في هذا، وتسبب لنفسه بهموم لا ضرورة لها، أضاع وقته في الوقوف تجاه الأسقفية. لم يكن هناك أي سبب لوضع الأم المقدسة أورسولا على اللائحة. هل كانت هناك أشياء أخرى، من هذا النوع، فاتته؟ عاد إلى القلق، وضع حطبات في المدفأة، عاد إلى النافذة، تأكد من كون الخياط الصغير في مكانه، ومن الباب المنفرج في آخر الغرفة، لمح السيدة كاشودا التي كانت تغسل ثياب طفل في حوض المطبخ. كان ينبغي أن يستعيد كل شيء منذ البداية، ولكنه كان عاجزاً عن ذلك هذا المساء. لقد أتى على شرب ثلاث كؤوس كونياك واحدة بعد الأخرى وكان ذلك يشعره بالخزي راح يتذكر،بمرارة، الأسابيع الماضية حين كان يشعر بثقة كبيرة بنفسه وبأنه متفوق على كل الناس.

صعدت لويز الدرج وهي تجر قدميها محدثة، كعادتها، جلبة على المنبسط، وتشنجت أصابع السيد لابيه كما لو كانت تريد أن تتشنج على حنجرتها.

سوف يكفي هذا للإيقاع به. سيوقع بنفسه، حتماً، إذا ترك نفسه يمضي إلى هذا الحد. وماذا بعد؟ ألن تكون فرصة لشرح كل شيء لهم؟ شرب أيضاً. لم يمس كتابه. كان ينبغي أن يكون قد غاص، بسلام، منذ نصف ساعة،في محاكمة مشعل حرائق الجورا.

كم تجشم من عناء في عرض فكرته في رسائله إلى الجريدة، عدة مرات لا مرة واحدة، بإلحاح، معرضاً نفسه لأن تقتفي الشرطة أو الفتى جانتيه أثره؟

«بأن الأمر كان يدور حول ضرورة»؟

كان قد قال لهم إجمالاً:

- أنتم تعتبرونني مجنوناً، مهووساً (كان قد جرى الحديث عن هوس جنسي أيضاً، على الرغم من أن واحدة من العجائز لم تغتصب). أنتم واهمون. أنا رجل سليم العقل تماماً. وإذا كانت أفعالي تبدو لكم غير سوية، فذلك لأنكم لا تعلمون. وللأسف، فإن شاغل سلامتي الشخصية يمنعني من إطلاعكم. ربما سوف تفهمون هناك سبع نساء على اللائحة، وأنا لم أحدد هذا العدد بالمصادفة. أنا أتصرف بصورة منطقية لأنه ينبغي ذلك. سوف تلاحظون ذلك بعد أن تموت السابعة. لن يحدث شيء بعد ذلك وسوف تستعيد لاروشيل طمأنينتها.

لم يقتل السابعة. الجريدة ستعلن ذلك غداً صباحاً. وبذلك لن يعودوا يصدقونه. ولم يقتصر الأمر على أنه لم يقتلها، لكنه أتى على اكتشاف كون موت الأم المقدسة أورسولا نافلاً.

ماذا سيقول الناس؟ إنه يكتب أي شيء كان لجعل نفسه مهماً؟ إنه كان يختار ضحاياه بالصدفة؟ إنه خاف؟ إن إعلان العمدة قد أعطى مفعوله؟

كان ينتعل خفيه ويرتدي الرداء المنزلي كالأمسيات الأخرى. أشعل غليونه، ذاك الذي كان يدخنه، عادة، في هذه الساعة والذي كان له مذاق مختلف عن مذاق الغلايين الأخرى. وجلس في مقعده، مع كتابه، لكنه احتفظ بالكونياك في متناول يده. كان ذلك يكفي ليدله على أن شيئاً ما قد اختل.

إذا كان قد أحس بنوع من العاطفة حيال الفتى جانتيه،فذلك لأن هذا الأخير كان يعطيه فرصة مناقشة حالته الخاصة. كان سجالاً حقيقياً قد انعقد على صفحات جريدة «صدى الشارانت» يبحث كل منهما، فيه، دائماً، حججاً جديدة.

بل إن جانتيه ذهب إلى بوردو ليسأل طبيباً نفسياً مشهوراً عن رأيه. وقد تنبأ هذا الأخير، بعد تأملات علمية طويلة، قائلاً:

- لن يتوقف إلا عندما سيقع.

وأضاف، بعد برهة تفكير - كان جانتيه هو الذي ركز على ذلك - قائلاً:

- إلا إذا انتحر.....

كان القبعاتي قد رد بثقة قائلاً:

- لن يقبض علي، ولن انتحر، ليس لدي أي سبب لأفعل ذلك. عندما يقضى على الشخص السابع في اللائحة سينتهي كل شيء.

كان قد كرر:

- إنها ضرورة.

لم يعد قتل السابعة ضرورة على اعتبار أن الأم المقدسة أورسولا لم تكن، في ٢٤ كانون الأول تضع قدميها في بيت شارع ميناج.

فبموجب ما كان قد أعلنه، هو نفسه، إذن، مع فارق وحيد، فقد انتهى الأمر ولم يعد أمامه سوى أن يسترخي. كان يستطيع الاستمرار في لعبة القط والفأر مع كاشودا الذي لن يفهم شيئاً وهو يراه يعيش، بعد الآن، حياة طبيعية تماماً.

سوف يستمر في متابعته كل يوم. في مراقبته في مقهى الأعمدة. مرت، في الطريق، دورية من ثلاثة أو أربعة رجال كانت خطواتهم ترن على بلاط الشارع المتجمد. ربما كان هناك عشرون دورية عبر المدينة كان الشرطيون المتطوعون يتوالون، يذهبون ليتدفؤوا، كل بدوره. قرب مدفأة مخفر الشرطة الضخمة. كان العمدة مداوماً باستمرار في مكتبه الذي كانوا يهتفون إليه فيه بتقارير سلبية. كان جانتيه باقياً في المطبعة، قرب الآلات التي لن تلبث أن تدور من أجل أن يستطيع كتابة مقال صغير عند بداية الطبع.

انتصب السيد لابيه واقفاً متوتر الأعصاب. كان على أهبة التحرك، فعل أي شيء لشدة تأثير الجمود عليه، في هذه الغرفة التي كان الهواء فيها صلباً تقريباً لفرط سكونه.

أخطأ عندما شرب، وكان، الآن، مرغماً على الاستمرار وإلا لكان قادراً على الخروج، على المشي في الشوارع، وربما كان قادراً على أن يأخذ معه وتر الفيولونسيل وقطعتي الخشب.

سمع صرير السرير الحديدي في غرفة الخادمة وبلغت كراهيته للفتاة الضخمة درجة من الحدة أصبحت معها، مثيرة للإشفاق.

ظن أنه يهدئ نفسه بالإمساك بمقصاته وبالجرائد التي كان يقتطع منها الحروف والكلمات، بفتحه زجاجة الصمغ، بوضعه ورقة بيضاء أمامه.

سيقول لهم.....

ماذا يقول لهم؟ توقف هنا والمقص في الفضاء، وللمرة الأولى، منذ سنوات، أحس فجأة برغبة في البكاء، كان يحس بشعور ضاغط بمكر الحظ. لقد فعل أكثر مما ينبغي، ببساطة، بشجاعة، رتب كل شيء بالصبر والحذر، فكر في كل شيء، لقد...

هذا المساء، كان يجب أن ينتهي كل شيء، وها أن شيئاً لم ينته. سيسخرون منه، وهم الذين سيكونون على حق.

لم يكن الخياط الصغير القاطن تجاهه هو الذي كان يبعث فيه الاضطراب بتفكيره الشحيح الذي لن يؤدي إلى شيء، ولا الأم المقدسة أورسولا الارستقراطية، المترفعة، في سكينة ديرها.

لم يكن خائفاً من أحد، هذا ما كان يجب أن يقولوه لأنفسهم جميعاً، المفوض بيجاك، أولاً، والعمدة الذي كان يظن نفسه شخصية كبيرة وجانتيه الصغير معهما.

«لم يكن أحد يخيفه».

إلا هو نفسه. ذلك أنه بدأ يفهم ماذا حدث له منذ قليل، بالضبط عندما كان يمشي على رصيف دوبيريه. كان قد اعتقد، أولاً، أن مزاجه السيء كان ناجماً عن كون الراهبة قد أفلتت منه في الأسقفية.

لم يتوقف انزعاجه، بعد ذلك، عن التفاقم، وخلال ثانية، فكر في استبدال الأم أورسولا بالخياط. كان ذلك يثبت أنه أخطأ. لماذا حام، بعد ذلك، حول لويز؟

لم تكن تلك هي المرة الأولى، اكتشف ذلك الآن. اتفق له أن قال لنفسه وهو ينظر إليها:

- ربما فيما بعد، عندما أنتهي من الأخريات.

شرب. كان في حاجة إلى الشرب. كان يحس بأن دواراً يلفه. ما كان يلمحه كان مخيفاً. ظن أنه سيستعيد رباطة جأشه، أنه سيرغم نفسه على التفكير بمزيد من الهدوء إذا ذهب ليحضر الصورة، ولكن وجوه الفتيات المتجمدة في تعبير صنعي لم تعد توقظ لديه أي شيء.

لم تكن هذه البغي لويز تنام، ولا تكف عن التقلب بثقل في سريرها كما لو كانت تشم رائحة خطر في البيت. فلتطمئن! لن يفعل لها شيئاً. كان هادئاً، عاد إلى الهدوء. كان ببساطة، يحتاج إلى التفكير، ولكن لا فائدة من أن يحاول ذلك اليوم. كان قد شرب. بئس الأمر! الأفضل أن يستمر لكي يخدر نفسه، كي ينام نوماً ثقيلاً، وغداً سيكون في خير.

سوف يثبت لهم، إذ ذاك، أنه سليم العقل كما هو سليم الجسد. لم يكن فيه أية عاهة، تأكد من ذلك عدة مرات باستشارة أطباء جديين. أبوه كان قد مات بداء في القلب، في الثانية والسبعين من عمره وهو في كامل قواه العقلية. كان قبعاتياً في المخزن نفسه، في الشارع نفسه، في عهد كان، فيه، شارع ميناج شارعاً لتجار المدينة، وكان شخصية هامة وعضواً في المجلس البلدي.

بدأ ابنه دراسة الحقوق في بواتييه، وبرضاه الكامل، قرر، في السنة الثالثة، استعادة مخزن القبعات.

كان هذا من شأنه. لم يكن من شأن أحد سواه.

كان سليم العقل تماماً.

كان لا يزال هناك نور لدى الخياط الصغير، ولكنه لم يعد على طاولته. كان يسند ظهره إليها، ويدخن سيجارة أتى على لفها، وراح يثرثر، بهدوء، مع زوجته التي جلست برهة قصيرة.

لن يدع السيد لابيه أحداً يرهبه.

- فليقولوا ما يشاؤون، فليفكروا، فليكتبوا مايريدون!

كان قد شرب ما يقرب من نصف الزجاجة وبدأ يفهم. لم تكن مصادفة أن يكتب هذا أو ذاك عنه. كان ذلك جزءاً من خطة مسبقة. كان الأمر يدور حول دفعه إلى الهاوية، حول تحطيم أعصابه ليوقعوا به بشكل مؤكد.

كان جانتيه والعمدة وبيجاك، وحتى صديقه كاييه، متفقين. كانت لديهم خطة. ربما كانت مقابلة الطبيب النفسي في بوردو خدعة، هذا إذا لم يدخلوه في اللعبة هو نفسه.

كانت لويز تستطيع أن تتقلب كما تشاء في سريرها الذي يئن. إنه لن يتحرك.

سيذهب للنوم بعد قليل. ماذا بقي عليه أن يفعل؟ لا ينبغي نسيان شيء. كان رأسه ثقيلاً. من الغباء أن يلتقط عدوى نزلة البرد من فالانتان، وكان من الأفضل أن يرده إلى أمه.

أعاد الصورة والمقصات والجرائد إلى أمكنتها وسد زجاجة الصمغ.

لقد أخطأ الأم المقدسة أورسولا، فليكن! فما دامت لا تأتي، أبداً، في ٢٤ كانون الأول، فليس لذلك أهمية.

لقد انتهى إذن.

هذا ما كان يجب أن يكرره. لقد انتهى. لم يكن عليه سوى أن ينام، أن يشرب، عند الحاجة، جرعة أخيرة من الكونياك، وهذه المرة شربها من الزجاجة.

هل استحق ذلك أم لا؟

انـــ ـــ ـــتـــ ـــ ـــهى!

مهما فعلوا!

لماذا، إذن، كان يضم وسادته بتشنج كطفل سيبكي.

(٦)

كان يقوم بكل الحركات ولا ينسى شيئاً. ولكنه كان يتفق له، بصورة متزايدة، أن يتجمد كما لو كان في حالة وجد وأن ينظر حوله بهيئة قلقة، أولاً، ثم وجيعة. في ذات مرة، أراد فالانتان أن يساعده.

- هل نسيت شيئاً؟

نظر إليه السيد لابيه كما يجب أن ينظر المرء إلى البشر عندما يكون خارج الكوكب، دون أن يكلف نفسه عناء الرد عليه. بالكاد هزّ كتفيه. بعد ثوان، عاد الاتصال. عرف من جديد ما الذي يجب عليه أن يفعل واتجه نحو الخزانة المغلقة بالمفتاح ليسحب الحبل.

في صباح الثلاثاء، كان شاحباً، متعب الوجه، محمر الجفون. مر عليه زمن طويل لم يشرب فيه كما فعل مساء الأمس وكان رأسه فارغاً وارتعشت أصابعه وهو يحلق.

الغريب كان أن الخياط الصغير هو الذي كان، من بين الاثنين، مريضاً. ربما لم يكن مرضه خطيراً. لم يكن السيد لابيه يستطيع بعد أن يعلم. كان يخمن، من أدنى روحات البيت وغدواته، أن أمراً غير عادي يجري. كانت السيدة كاشودا هي التي شوهدت أولاً ثم خرجت استير، أبكر من المعتاد بكثير، في كامل لباسها، من المطبخ.

من الطريف أن يرى كيف يتخذ مسكن ما سمات الكارثة، بسهولة، منذ أن تضطرب الطقوس. نزلت الفتاة وأمضت برهة طويلة في سحب أقفال المخزن، ثم ابتعدت على الرصيف، كانت هناك، في ذلك الصباح، على بلاط الشاعر، طبقة زلقة من الجليد الأبيض. كيف فهم السيد لابيه، حالاً، أنها كانت

ذاهبة إلى الصيدلية؟ ربما كان ذلك لأنه لا يوجد ما يمنع رجالاً مثل كاشودا من أن يكونوا في مواقع عملهم سوى المرض أو الموت.

كانت زوجته تستعجل الصغيرتين اللتين كانتا ترتديان ثيابهما للذهاب إلى المدرسة. كان على استير أن تذهب إلى عدة صيدليات قبل أن تجد واحدة مفتوحة. عندما عادت، كانت في يدها رزمة، وبينما كانت تصعد السلم، ظهر كاشودا في الورشة على الرغم من احتجاجات زوجته. كان ينتعل خفين ويرتدي بنطالاً وسترة قديمين فوق قميص نومه ويضع شالاً أسود لزوجته حول عنقه. كان يرى أنه محموم، وكان يفهم، من طريقته في الكلام، حتى عبر الشارع، أنه كان مبحوحاً.

فتحت رزمة الصيدلية. أعطت استير، بزلاقة لسان، توضيحات. وضعت السيدة كاشودا في فم زوجها ميزان الحرارة الذي أحضروه وفكت ألغاز التعليمات على زجاجة وعلبة صغيرة. سوعد المريض على ارتداء معطفه، لا لأنه كان يريد الخروج، بل لأنه بدأ يرتجف على الرغم من النار المشتعلة في المدفأة.

كانوا،هم الثلاثة، رزينين وهم يقرؤون ميزان الحرارة. كانوا يتناقشون. يجب أن يكون قد اقترح استدعاء طبيب، وكان كاشودا يرفض ذلك بشدة. ذهبت استير إلى عملها. قادت أمها الصغيرتين حتى الرصيف واتجهتا نحو المدرسة متماسكتين باليدين. كان على رأس أصغرهما طاقية من الصوف الثقيل الأحمر المنسوج، وفي يديها قفازان من اللون نفسه.

بدا على السيدة كاشودا، وهي تعود إلى زوجها، أنها تقول:

- الأمر بيننا، نحن الاثنين، الآن.

وضعت ماء للتسخين على النار وهيأت كمادات وأعطته أقراصاً يحتمل أنها مسهلة ليبتلعها. أما الخياط الصغير الذي تعطّل عن عمله، فقد كان ينظر، بأسى، إلى طاولة عمله ويحاول، ما أن يترك وحده، النهوض عن مقعد الخيزران الذي وضع فيه أمام المدفأة.

لا بدّ أنه مصاب بنزلة برد أو نزلة صدرية مثل فالانتان الذي كان يتمخط دون توقف.

هل خافت لويز، حقاً، من القبعاتي عندما دخل إلى غرفة الطعام وهي تعد المائدة؟ وعندما رفعت رأسها بشيء من السرعة، بدت متفاجئة لرؤيته أمامها، بعد صمت سألته بدلاً من أن تحييه قائلةً:

- ماذا بك؟

كان جاف الحلق بالتأكيد، لكن الذي كان به، خاصة، هو أنه كان يتفحصها بعينين جديدتين. لم يكن يفحصها فقط، بل كان، أيضاً، يشتم رائحتها وهو فريسة اشمئزاز هائل، حقد لم يعد يتخلص منه. كم مرة أغري مساء الأمس بالنزول إلى المطبخ، ثم، فيما بعد، حين كانت نائمة، بأن يوافيها إلى غرفتها وينتهي منها؟

الآن، كان يراها، يزنها، يقيسها. كان يتخيلها على الأرض وشعر بالغثيان من جراء ذلك. كان يحقد عليها، وربما سيحقد عليها إلى الأبد لما كاد يفعله.

كان هذا يذكره بأولى تجاربه الغرامية عندما كان في السابعة عشرة من عمره. قاوم طويلاً قبل أن يغوص في حي الثكنات حيث توجد خمسة بيوت أو ستة بأرقام كبيرة، مع نساء على العتبات. كان يبدأ بالمرور سريعاً، ينعطف عندما يصل إلى آخر الزقاق ليعيد اجتيازه من أوله. كان يعد نفسه، في كل مرة، بأن يختار، ولكنه ينتهي بالدخول، وفي أذنيه طنين، إلى أول رواق يصادفه.

وبعد ذلك، يُمضي ساعات كارهاً لهنّ، جميعاً من أجل الخجل من ذاته ومن الجنس البشري الذي كنّ يتسببن له به. هن اللواتي كان يأخذ عليهن أنه انصاع للإغراء، وكان هذا الشعور من القوة بحيث كان يخلق لديه اندفاعات إجرامية.

مع هذا العجل، لويز، كاد يقع أيضاً أمام الإغراء، أمام إغراء آخر، وكان أخطر. حتى ذلك الحين، لم يفعل سوى ما كان قد قرر أن يفعله، ما كان ضرورياً، لا غنى عنه، كما كتب إلى الجريدة.

خلال الصباح، فكر في أن يطردها، ولكن ذلك لم يكن يتصف بالحذر. هل كان فالانتان قادراً على تمييز الفرق؟ هل كان الفتى الأصهب، ذو الأنف المدمى، تقريباً، أهلاً للملاحظة؟

كان القبعاتي أكثر ثقلاً. في السابق، كان خفيفاً، حتى حين يبقى صامتاً ومستغرقاً في التفكير، مهما بدا ذلك غريباً. كان يبدو، بالتأكيد، رصيناً، ولكن بسكينة. كان يعيش وحيداً، في الداخل، لكن ذلك دون أن يعطي الإحساس بوجود أية معركة، أي قلق.

إذا كان، هذا الصباح، أقل قلقاً مما كان عليه في العشية، فالاضطراب، مع ذلك، دخل فيه.

لا يفكر بوضوح. كانت صورة لويز المقيتة تلاحقه، وكانت تعود إليه، بسبب ما كاد يحدث وبسببها، صور أخرى للحي، للثكنات وأخيراً، حتماً، ذكرى السيدة بينه.

كان يعمل، في الدكان الخلفية، في ترطيب القبعات وتجهيزها. ذهب مرتين في ساعة إلى المخزن لخدمة زبائن مع نظرات قصيرة إلى البيت المواجه.

وفجأة، وهو ينظر إلى الديكور المألوف، الرفوف البنية، الرؤوس الخشبية، مدفأة الغاز، اسمه الذي كان يستطيع أن يقرأه، مقلوباً، على الواجهة، شَعَر بأن شيئاً ما، هنا، قد توقف كساعة.

لم يكن شيء قد تغير، حوله، منذ أن امتلك المخزن.

كان آخرون قد حاولوا، على الأقل، التحرك في اتجاه ما. حتى بول شنترو، الدكتور، تخبط طويلاً.

كان، هو، قد عاد، في عمر الثالثة والعشرين، من بواتييه التي كان يدرس فيها ليتلطى هنا كما تغوص بعض الحيوانات، لدى الإعلان عن الشتاء، في أوكارها.

حسناً! كان ذلك بسبب السيدة بينه. لم يقل ذلك قط. لم يسلم به أبداً. لم يكن ذلك صحيحاً تماماً. ومع ذلك، فقد كان أقرب شيء إلى الحقيقة.

كان يعيش لديها في بواتييه. كانت أرملة، هي أيضاً. كان قد أتى على تبين عدد الأرامل الكبير وحدتهن.

كانت في الرابعة والثلاثين أو الخامسة والثلاثين من عمرها. كان زوجها، في حياته، موظفاً على درجة كافية من الأهمية، وكانت تملك بيتاً جميلاً في أعلى المدينة كانت تعيش فيه مع ابنها ألبير الذي كان، في ذلك الحين، تلميذاً في الرابعة عشرة من عمره.

كانت قد قررت، لزيادة دخلها، أن تؤجر غرفة لطالب. علمت والدة السيد لابيه بذلك. كيف؟ لقد نسي. تم ذلك عبر العلاقات، جرى تبادل مراسلات، التقت المرأتان وعادت السيدة لابيه إلى لاروشيل مطمئنة على وضع ابنها.

كانت السيدة بينه سمراء اللون. كان اسمها جان، وكان ابنها السيئ التربية إلى حد بعيد يناديها باسمها.

جرى ذلك، أول مرة، بالضبط حين كان ليون لابيه مصاباً بنزلة صدرية. كان، في كل سنة، يصاب، حوالي الخريف أو بداية الشتاء، بنزلة صدرية. لم يذهب إلى دروسه. كانا وحدهما في البيت. كانت السيدة بينه ترتدي منشفاً أزرق صارخاً كانت تلمح الدانتيلا من انفراجه.

كانت حرارته مرتفعة قليلاً. كانت الغرفة عابقة برائحة الأوكاليبتوس - كانت تعتني به بإلحاح. ألحت كي تضعه في السرير، ولم يمنع سلوكُها الأمومي كونهما انتهيا إلى ممارسة الجنس.

كانت تلك المرة الأولى التي يحصل له فيها ذلك خارج حي الثكنات. خاف من عنف شريكته، مما جرى لها بسرعة كبيرة وشوه ملامحها. كان، وهو يفكر في الفتى الذي سيعود، بعد قليل، يحس بالإثم.

دام هذا سنتين ونصف السنة، المدة التي أمضاها في بواتييه. كان أصدقاؤه في الجامعة يسمون المؤجرة: بينيت[1] وكانوا يزعمون أنه لم يكن الأول. وبما

---

(١) La Binetle بالفرنسية وتعني معزق أو قدّوم.

أنه كان، في ذلك العهد، نحيلاً، فقد كانوا يؤكدون أنها كانت تستنزف حيويته، وربما كان ذلك صحيحاً، فهي لم تكن تدعه في سلام، وكانت تلحق به إلى غرفته في حين كان ابنها يستطيع أن يسمعها، وتهتاج بصورة لم يشهد، فيما بعد، امرأة عليها. كانت فاحشة إلى الحد الذي يستطيع إنسان أن يكونه. كانت تفعل ذلك عمداً، بشراسة. وعندما تبلغ درجة النشوة، كانت تستخدم أقذر الكلمات، كلمات لم يسمعها إلا في المباغي وكان يحمر لها خجلاً.

لم يجرؤ على تغيير مسكنه لأنه كان عليه، في هذه الحالة، أن يقدم تفسيراً لوالديه. وفضلاً عن ذلك. فقد كان من شأنها، دون شك، أن تلحق به في الأمكنة الأخرى.

أصبح شيئاً مزعجاً أن يسميه رفاقه في الدراسة «بينه البينيت»[1]. وفي السنة الثالثة حدس أنه سيرسب في الامتحانات. خجل من ذلك. وعندما عاد إلى لاروشيل ليمضي عطلة الفصح، أحس بالأمان في مخزن قبعات شارع ميناج. تردد، أيضاً، يومين أو ثلاثة. كانت تلاحقه ذكرى ألبير الذي أصبح، آنذاك، في السابعة عشرة من عمره والذي كان يعرف كل شيء ويحدثه، بصفاقة عن أمه.

قال، ذات يوم، لأبيه:

- ما دمت قد تمنيت مني، دائماً أن أستلم مخزن القبعات، فإني أظن أني سأتخذ هذا القرار.

وكان ذلك كل شيء.

هذا ما كان يفكر فيه اليوم، وفي أشياء أخرى ليست ألطف بكثير لأنه كان يحس بحاجة إلى وضع كشف بالحساب. اتفق له، عدة مرات، أن ينظر إلى نفسه في مرايا المخزن، وكانت رؤية وجهه تجعله عابساً. وجَدَ نفسه مسناً. كان مهتماً بصحة الخياط الصغير. شد الحبل عدداً من المرات أكبر من المعتاد لتوفر له فرصة الصعود إلى فوق، حتى أن فالانتان المسكين استجمع شجاعته وسأل:

---

(١) ربما تعني قبضة المعزق، أو أسطوانته. والغاية من اللعب على الألفاظ هو السخرية.

- أليست السيدة لابيه على مايرام؟

حدق في عينيه دون أن يجيب. عبثاً بدت السماء في صفاء قشرة صدف المحار، فقد خيّم الضباب، مع ذلك، حولها وشوه هيئة الناس والأشياء.

هل لاحظت هذه البهيمة القذرة، لويز، أن زجاجة الكونياك لم تكن في البوفيه؟ لقد تركها فوق وذهب، قبل الظهر بقليل، ليشرب منها جرعة.

أخر برهة شراء الجريدة من زاوية الطريق لأنه كان يعلم أن هذا سيزيد مزاجه قتامة.

كتب جانتيه، بوقار، قائلاً:

«لأول مرة لم ينجز القاتل ما كان قد أعلن عنه»

واستخلص، من ذلك، عموداً كاملاً من الافتراضات: خديعة؟ مرض؟ خوف من الانتشار الاستثنائي للشرطة؟

«مالم يكن أن الضحية السابعة تبعت تعليمات العمدة فلم تخرج من بيتها»

واندفع جانتيه في ميدان الفرضيات.

«هل كانت هناك ضحية سابعة محددة؟ هذا ما سنعرفه خلال بضعة أيام. لقد حاول الخناق، منذ البداية، الإيهام بأنه لم يكن يهاجم أية امرأة، بالمصادفة، بل إنه كانت لديه قائمة موضوعة، وأنه كان يتبع خطة مسبقة.

«هل هذا صحيح؟ هل هو مزيف؟ ألا ينبغي أن لا نرى في ذلك سوى تفسير معطى بعد الحدث، بل سوى حيلة لتحويل الشكوك أو لإعطاء الذات شيئاً من المكانة؟»

الناس يوسخون كل شيء، هذا أقوى منهم.

هل سيضطر للإيقاع بنفسه كي يشرح لهم الحقيقة، ليقدم إليهم أدلة؟ ساوره إغراء بأن يفعل. ربما لم يكن قوياً جداً، لم يكن صادقاً جداً، ولكنه ساوره. من يعلم ما إذا لم يكن هذا أفضل؟

كان كاشودا لا يزال في مقعده، وكانت زوجته تغير له، كل ساعة، كمادته الرطبة. عند الظهر، قدمت له بيضاً بالحليب أكله ببطء. بملعقة صغيرة، واضعاً الصحن على ركبتيه. نزلت زوجته مرة، عندما سمعت جرس المخزن وناقشت زبوناً لا بُدَّ أنها أوضحت له أن زوجها كان مريضاً.

حوالي الساعة الثانية، قرر السيد لابيه أن يفيد من ذلك. كل شيء قد ترابط. كان قد فكر، بسبب الخادمة، في حي الثكنات، ثم في السيدة بينه، وعاد، مرتين، إلى فوق ليشرب.

كان رأسه يؤلمه كثيراً. لم يجد الأسبيرين فتيلاً. كان يحتاج إلى شيء آخر. ناضل حتى حوالي الساعة الرابعة، في برهة إشعال المصابيح، وعند ذلك، ارتدى معطفه واعتمر قبعته.

- لدي عمل أنجزه يا فالانتان. إذا لم أعد قبل الساعة السادسة أقفل المخزن.

كانت يده على مقبض الباب عندما عاد واتجه نحو الدكان الخلفية. انزلقت يده في تجويف الرأس الخشبي. تجمدت لحظة. قاوم، وهو خائف، لأنه مازالت لديه قوة المقاومة.

مضى دون أن يأخذ شيئاً واتجه نحو شارع غارغولو.

كان يذهب إليه، بين حين وآخر، حوالي مثل هذه الساعة دائماً. قبل ميدان السلاح بقليل، كان هناك، إلى اليسار، بيت من القرن الثامن عشر آوى شخصيات مشهورة. كانت البوابة الكبيرة لا تزال يعلوها شعار يحيط به حجران. كانت هناك ردهة مبلطة ومساكن على جوانبها الثلاثة، وكان البيت مقسوماً الآن إلى عدة شقق. كانت حتى ترى رقاع نحاسية عند المدخل. في آخر الطابق الأول، كانت هناك عيادة طبيب أسنان كان السيد لابيه قد عرفه في المدرسة. وكانت، في مكان آخر، شركة تبيع برادات، وفي الأعلى، كانت هناك شقة موظف أرشيف المحافظة.

لم يكن للجناح الأيسر سوى طابق واحد، وله مدخلان. كان الباب الثاني ينفتح مباشرة على سلم يؤدي إلى الدور الأول، وهذا الباب هو الذي توقف القبعاتي عنده.

في كل مرة جاء فيها إلى هنا، أحسَّ بالقلق الصغير نفسه الذي كان يحس به، سابقاً، عندما كان يدخل إلى حي الثكنات. ومع ذلك، لم يكن الوحيد الذي كان يتوقف عند هذه العتبة. الآخرون، بمن فيهم الدكتور، لم يكونوا يحسون بأي خجل من التحدث عن ذلك. كان شنترو يقول بفجاجة عندما يصل متأخراً عن اللعبة:

- ذهبت لمضاجعة بيرت.

لم يكن جوليان لامبير يقول شيئاً لأنه كان بروتستنتياً نقياً، وخاصة لأنه كان يخاف جداً من زوجته، لكنه لم يكن ينكر، بدوره، ويكاد أن لا يتستر.

كم كان عدد الذين يترددون على الشقة الناعمة المنجدة، بكاملها، بالساتان الباهت مع عدد كبير من السجاد والوسائد والكراسي الواسعة المنجدة والتحف الهشة والجميلة؟

سبعة أو ثمانية. لم تكن الآنسة بيرت موسماً عمومية. لقد كان ينفق عليها، لمدة سنتين، ريست تاجر السلاح، ريست البكر لأنه كان هناك أربعة أو خمسة ريستات وكانوا يشكلون عشيرة في المدينة، بروتستانتيون أيضاً، يملكون إحدى أضخم ثروات البلاد.

كان ريست البكر في الستين من عمره آنذاك. كان ابنه وابنتاه متزوجين، أحد الصهرين كان يدير مكاتب باريس.

كانت كل الأسرة تعلم، ولم يشاهد، قط، أحد أفراد أسرة رست في مقهى ولا في كازينو على الساحل.

ربما لم يعرف ريست البكر أبداً حتى عمر الستين، امرأة غير زوجته التي جفت إلى حد كانت تسمع معه طقطقة مفاصلها.

كان هو الذي استأجر شقة الآنسة بيرت وأثثها. بدا متحفظاً بالقدر الممكن، ومع ذلك، كان ملاحقاً خلال سنتين من جانب كل القبيلة، بمن فيها أولاده وصهراه.

يزعمون أنه كانت هناك مشاهد ملحمية، أنه مضى إلى درجة توسله إليهم، جاثياً على ركبتيه، أن يدعوه يحصل بسلام على قليل من المتعة في أيامه الأخيرة.

انتهت العشيرة إلى كسب الجولة. وفي ذات مساء، أقسم أمام كل أفراد أسرة ريست مجتمعين، رسمياً، على أن لا يضع قدميه، أبداً، في بيت شارع غارغولو وعلى أن لا يرى، ثانية، الآنسة بيرت.

ولا حتى ليعلمها بالقرار الذي اتخذ. كان أحد الأصهار هو الذي تولى المهمة وناقش، بشدة، مسألة المال.

منذ ذلك الحين، كان ريست البكر يذهب، مرة في الشهر بقطار الليل إلى باريس، ويزعمون أنه كان مسموحاً له بالذهاب إلى بيت مواعيد في حي نوتردام دولوريت.

حافظت الآنسة بيرت على أوضاعها الوادعة، على حياتها المرفهة كامرأة ينفق عليها، ولكن، بما أن أحداً في المدينة، لم يكن يستطيع أن يحل محل تاجر السلاح، فقد فتحت بابها لبعض أفراد مختارين بعناية.

رأى السيد لابيه نوراً من خلال شقوق الستائر وعلم أنها كانت في بيتها. كانت، دائماً، تقريباً، في بيتها، إلا أنه يبقى اجتياز اختبار الجرس الكهربائي. أكانت تلك فكرتها أم فكرة أحد عشاقها؟ المهم هو أن الجرس جهز بقاطع. فعندما يكون لديها زائر، كانت تقطع الوصلة ولم يكن أحد يلح لأن كل واحد يعلم معنى ذلك.

مد السيد لابيه ذراعه، ضغط على الزر ولم يسمع أي صوت من الجانب الآخر للباب. كان هناك أحدهم، ربما الدكتور، وزاد مزاجه سوداوية. لم يكن يشعر بأنه على ما يرام. كان في حاجة إلى شيء، ولا يعرف ماذا بالضبط.

ظن أنه وجده هنا ولم يكن يستطيع، كذلك، أن يهيم على وجهه في الحي ويعود، بين حين وآخر، ليقرع الجرس.

لم يكن قد أتى بوتر الفيولونسيل، لكن هذا لم يكن يعني، بالضرورة، أنه قد اتخذ قراراً. في الواقع، لم يكن وتر الفيولونسيل لازماً إلا في الخارج، حين يكون مرغماً على التصرف سريعاً جداً، دون صوت وبالمفاجأة.

لم يستعمله مع ماتيلد التي كانت راقدة. الحقيقة هي أنه لم يكن قد قرر شيئاً وهو قادم. راح الآن يمشي ببطء على طول الأرصفة متهدل الكتفين. لم يكن

يريد أن يشرب كحولاً أمام أصدقائه لأن ذلك لم يكن من التقاليد. ولأنه ماضٍ في الحذر. يستطيع، في أقصى الظروف، أن يدخل إلى مقهى آخر. سبق أن فعل ذلك. كانت هناك عدة مقاهٍ حول السوق المغطاة. مر إلى جانب سلال بائعات السمك وتعرف على إحداهن التي كان قد اشتهاها سنتين على الأقل، وهو ينهي دارسته الثانوية. لم يكلمها أبداً. كانت في ذلك الحين صبية صغيرة ذات ثديين مدببين. رآها عدة مرات في زوايا مظلمة مع رجل. كان رفاقه يعرفونها، كان معروفاً عنها أنها تفعل كل ما يطلب منها، مع أي شخص كان، لا من أجل المال، بل للمتعة. كانت قد أعطيت لقباً يصف، بفجاجة، إحدى مواهبها.

لم يجرؤ أبداً، وهاهي، الآن، عجوز جالسة على كرسي نقال أمام بسطة من سمك الميرلان. كانت تعرف من يكون، ككل الناس في المدينة. ما لم تكن تعرفه هو أنها احتلت هذا المكان في أفكاره وأنه بسببها، غالباً ما ذهب يسعى وراء الاشمئزاز في المباغي إلى جانب الثكنات.

شرب كأسين من الكونياك، وكانت نظرة النادل تربكه. مع أن النادل لم يكن يبدو أنه كان يفكر في شيء.

قطع عهداً على نفسه بأن لا يعود إل شارع غارغولو. كان يعلم أن المكان لن يكون، بعد، حراً. دخل إلى الردهة وضغط على الزر الكهربائي عبثاً.

كانت يده في جيب معطفه تبحث آلياً عن وتر الفيولونسيل الذي لم يكن فيها. دخل، مثقل النظرة، كمرتاب، إلى مقهى الأعمدة، ولم يكن ممتعاً أن لا يحس بالخياط الصغير وراءه.

كان بالغ الهدوء، بالغ التحكم في أعصابه في الأسابيع السابقة! من المؤكد أنه كان عليه أن يفكر في كل شيء أن يحسب أدنى أفعاله وحركاته ولكنه كان واثقاً، كان يمضي إلى الأمام ببطء، بثقة، قائمته في رأسه كرجل فرض على نفسه مهمة ولا شيء يمكنه بعد الآن أن يؤثر فيه.

كان الطبيب هنا. لم يكن هو، إذن، الذي يزور الآنسة بيرت اليوم، ولا جوليان لامبير الذي كان يربت على الورق، في حين كان، مع أرنو ينتظران بصبر، لاعباً رابعاً.

لماذا قطب شنترو حاجبيه لدى رؤية القبعاتي يجلس؟ لأن الموعد لم يكن قد حل بعد؟ سأل غبرييل، الذي كان يبدي رعاية أموميّة للمجموعة الصغيرة:

- الشيء نفسه سيد لابيه؟

- هل تلعب؟

كان لديه كل الوقت للعب، فلا شيء لديه قبل الساعة السابعة مساء. بعد الآن، لن يكون لديه مايفعله وكان هذا يبعث فيه إحساساً بالفراغ يسبب الدوار تقريباً.

بل إنه لم يعد عليه أن يتخذ احتياطات!

لاحظ بول شنترو، وهو ينظر إليه من فوق ورقه:

- تبدو متعباً.

- لا أدري.

- هذا غريب. زملائي يدعون أن الرطوبة ضارة. إلا أنني ألاحظ هنا، كل سنة، الظاهرة نفسها. الناس يصمدون خلال الأمطار. ثم، منذ أولى التجمدات، لا تعود نزلات البرد وآلام الحنجرة تحصى. استقبلت،هذا الصباح أحد عشر مصاباً بها.

لم يكن السيد لابيه مصاباً بنزلة برد، كان، الآن، متأكداً من ذلك. ولم يقلل هذا من شراسته. كان يحقد عليهم جميعاً، دون أن يعرف بالضبط، لماذا، كما كان يحقد على لويز منذ ساعة، كما كان يحقد على الآنسة بيرت.

ومع ذلك، لم يكن مصاباً بهوس الاضطهاد، لم يكن مجنوناً. لم يتوصل جانتيه الصغير إلى التأثير فيه بمحاكماته ولا بمعارفه الحديثة تماماً في الطب النفسي.

لم يكن جانتيه، ولا رب عمله كابيه، هنا. وفي الواقع، ربما كان كابيه، ببطنه الكبير وكل شعر جسمه، هو الذي كان في سرير الآنسة بيرت.

حقد عليه أيضاً. وحقد على الخياط الصغير الذي بقي كرسيه شاغراً.

كان جوليان لامبير هو الذي لاحظ، بعد برهة طويلة، وهو ينظر إلى الساعة التي تشير إلى الخامسة والربع:

- هه! لقد فقدت كلبك.

لم يفهم القبعاتي حالاً. وبما أنه كان يصاب بالرعب من عدم الفهم، فقد جعله ذلك فظاً. زمجر قائلاً:

- لم يكن لدي كلب قط.

الآخرون الذين فهموا انفجروا ضاحكين:

- كاشودا ليس على كرسيه. إنه يصل، في العادة، على أعقابك. ارتاب في كونه يضبط ساعته على ساعتك، أو أنه ينتظرك على عتبته.

هل كان لدى جوليان لامبير فكرة خفية وهو يتكلم هكذا؟

- كاشودا مريض.

- كيف تعرف ذلك؟

- رأيته من النافذة.

وبما أن أرنولم يكن يحب الثرثرة أثناء اللعب لأنه يرتكب أخطاء بسهولة فقد قال بنفاذ صبر:

- قلت ثلاثة سباتي! بول مرر دوره، اندريه قال: واحد ديناري وليون مرر دوره، أنا قلت: ثلاثة سباتي. جاء دورك يا جوليان.

كان الجو دبقاً. لم يكن في مقدور السيد لابيه أن يقول لماذا هو دبق.. كان الطقس جافاً والطرقات مغمورة بضوء القمر. لم يكن دخان التبغ قد غزا المقهى بعد. ولم يكن أوسكار، صاحب المقهى، المزروع وراءهم قد أحس، بعد، بشعرة على لسانه.

ومع ذلك، كان الجو دبقاً، دبقاً كفخ غربان. ينبغي أن يعود إلى التفكير بصورة مستقيمة دون أن يدع الإحساسات الباعثة على الاضطراب تكتسحه.

ومع ذلك، فقد كان الشرب يفيده. كان قد أفرغ كأسه التي تدوم، عادة، نصف ساعة، وأشار إلى غبرييل ليملأها:

- كيف حال ماتيلد؟

كان هناك، دائماً، من يطرح عليه هذا السؤال. كيف ستبدو وجوههم لو أنه أجابهم بهدوء:

- ماتت منذ ستة أسابيع.

نادراً ما كان كاييه هو الذي يستعلم على هذه الصورة لأنه كان، قبل القبعاتي، خطيباً لماتيلد. لم يكن أحد يعرف، بالضبط، لماذا فسخت الخطوبة. جرى ذلك بهدوء قبل زواج السيد لابيه. هل تضاجعا؟ كان الأمر محتملاً. إلا أن أمه كانت قد قالت له:

- فتاة طيبة ذات تربية ممتازة.

كانت فعلاً، قد ربيت في دير الحبل بلا دنس. كان أبوها في الجمارك برتبة عالية إلى درجة كافية. وكانت أمها ميتة.

- لن أكون هنا، دائماً، لأدير البيت.

كانت السيدة لابيه شخصاً صغيراً مغموراً، وكانت تجتاز كيلومترات يومياً لا لشيء سوى العدو بين الغرف، عندما كانت تمر قرب أحدهم، عندما يكون هناك زبون في المخزن، عندما كانت تسبب أدنى ضجة، كانت تتعجل إلى القول متلعثمة:

- عفواً.

كان يشبه أمه أكثر مما يشبه أباه، جسدياً على كل حال. أبوه كان رجلاً هادئاً، قوياً، واثقاً من نفسه.

- أنت تعلم جيداً يا ليون ما قال الطبيب.

قال أنه لم يبق لها وقت طويل. دام ذلك عشر سنوات، عشر سنوات لم يبق خلالها للسيدة لابيه الأم وقت طويل. قال لها ذلك طبيب غبي واستخدمته في نوع من الابتزاز.

- لماذا لا تتزوج ككل الناس؟ أبوك كان في عمرك، متزوجاً.

هل كان أبوه راضياً إلى الحد الذي كانت تحمل على افتراضه؟ على كل حال، لم يكن يتدخل أبداً في هذا النوع من المناقشات التي أصبحت يومية تقريباً، في النهاية.

كانوا يملكون دارة صغيرة في فورا قرب المكسر قرر السيد لابيه، الأب، الذي كان يحب الصيد أن يقيم، فيها، ذات يوم.

- بسببك أنت لن نذهب منذ الآن لنعيش فيها.

- أنت مخطئة. يمكنني، حقاً، أن أتدبر أموري، جيداً، وحدي.

كان ذلك صحيحاً. لم يكن على أبويه سوى أن يدعا له الخادمة التي كانت في البيت منذ عشرين عاماً.

- ألم تلاحظ، أبداً، أن كورتوا الصغيرة مغرمة بك؟

كورتوا الصغيرة كانت ماتيلد التي كان أبوها يرتاد البيت. كانت سمراء، كالسيدة بينه. في ذلك العهد، لم تكن تشبه أرملة بواتييه وإلا لانتَبَه ربما إلى ذلك. إلا أنه كان لها البؤبؤان الداكنان جداً، اللامعان جداً ذاتهما اللذان ينظران بإلحاح إلى الناس والأشياء كما لو كان ذلك للسيطرة عليها أو تمثلها.

لماذا انتهى إلى أن قال نعم؟ ربما لأن صحة أمه ساءت، وأن عدة نوبات كانت تصيبها في اليوم. كانت تعاني كثيراً، تنطفئ بمرأى من العين.

- سأمضي وأنا أكثر اطمئناناً بكثير إذا علمت أنك متزوج.

خطب، وماتت أمه قبل العرس بثلاثة أسابيع. فات الأوان. أبوه كان متعجلاً إلى شيء واحد هو الانسحاب إلى بيته في فورا. كان قد اشترى مركباً صغيراً كان يستخدمه في أيام آحاد الصيف.

سأله شريكه حين أتى على الإلقاء بورقة الستة الدينارية:

- أليس لديك ورق طرنيب؟

نظر إلى أوراقه واضطرب:

- عفواً! لدي منه.

- بماذا كنت تفكر؟

- بلا شيء.

كان شنترو يراقبه، بين حين وآخر، خلسة، بعين حادة كما لو أنه قد كلف بوضع تشخيص. كان، على الرغم من لحيته الشعثاء وهندامه غير

المعتنى به، أذكى الجميع، وكان، حتى عندما يشرب، بل خاصة عندما يشرب، مقلقاً في حدة نفوذه.

تردد القبعاتي في طلب كأس ثالثة من البيكون. كان في حاجة إليها. كان يعيش، أمام أصدقائه، مغامرة مروعة. كان هناك، هادئاً جداً في الظاهر، الورق في يده، يبذل جهده في متابعة اللعب، متوصلاً إلى ارتكاب الحد الأدنى من الأخطاء.

وفجأة اندلع شيء فيه: أخذت أصابعه ترتعش وبصره يضطرب، شعر بأنه يتراخى، بأن أعصابه تخونه، بأنه معرض لخطر فادح في بقائه جالساً في حرارة المدفأة، بأنه ينبغي عليه، بأي ثمن، أن ينهض، يتحرك، أن يقوم بحركة محددة.

- غبرييل!

- نعم يا سيد لابيه.

لماذا كان شنترو ينظر إليه؟ ألا يحق له أن يشرب ثلاث كؤوس من البيكون؟ هل كان يبدو سكراناً؟

ربما لم يعد هناك أحد في شقة شارع غارغولو. ذكره ذلك بذكرى مقيتة، عندما مارس الجنس مع امرأة قرب التكنات، بعد جندي مباشرة. لم يكن لهذا أن يحدث مع الآنسة بيرت. ربما كانت، من بين كل اللواتي عرفهن على وجه الاحتمال، تلك التي كان يمكن لها أن تكون ألطف زوجة. كانت عذبة، مبتسمة دائماً. كانت، غريزياً، تحترم الرجال، ومع ذلك كانت تعرفهم جيداً، كان لديها ما يشبه تسامحاً خفياً. كان طبعها، كبشرتها، ككل منحنيات جسدها، كتماسك لحمها، كالإطار الذي أعَدّتهُ لنفسها.

بعد قليل، سيجد نفسه أمام لويز، في قاعة الطعام التي لم تكن مضاءة جيداً، وحيث كان النور الكهربائي مصفراً دائماً. يجب أن يقاوم لأن الأمر عاد يساوره. كان يرغب في الانتهاء منه. كان ذلك مبهماً. لم يكن يعني شيئاً. كان السؤال هو عما إذا كان الشرب يفيده أم على العكس، يزيد في دواره.

كان يستطيع طرح السؤال على شنترو. كان يرغب في ذلك تقريباً. ما الذي كان يمنعه من أن ينتظر أن يذهب بول، وهو ما لن يؤخره كثيرا، ويخرج معه كما لو كان الأمر مصادفة؟

- قل يا بول!

كان يحق له، قطعاً، أن يطالب باحترام السر المهني. وكان ذلك، إذن، أقل خطراً من الكلام مع كاشودا.

- هناك نصيحة أطلبها منك. في ذات مساء قتلت ماتيلد.

بهدوء، ينبغي، خاصة، أن يشرح له أنه فعل ذلك بهدوء، بأعصاب باردة. كان قد أتى بالضبط، على شراء مجلدات محاكمات القرن التاسع عشر المستعملة، من صالة المبيعات. كان قد بدأ بمجلد السيدة لافارج التي لم يكن يعرف قصتها إلا بصورة مبهمة إلى درجة كافية. في كل ربع ساعة، على الأقل، حين يكون جالساً أمام النار، كان يسمع صوتاً جافاً، شريراً، ينادي:

- ليون!

لم يكن يجدي أن يتظاهر بعدم السماع. اللهجة متسلطة. مضى زمن طويل تبنت خلاله، هذه اللهجة، قبل مرضها بكثير، بعد زوجهما فوراً، تقريباً، في الوقت نفسه، تقريباً، الذي أخذت، فيه، تشبه السيدة بينه. ذلك أنه اكتشف، ذات يوم، هذا التشابه الذي لم يبرز له من قبل. كان الصوت ذاته، الثقة بالنفس ذاتها، وكان خاصة، ملامح التملك ذاتها.

ما كاد يبدأ فصلاً ، حتى لفظت، دون أن تتحرك، وهي تكاد أن لا تحرك شفتيها:

- ليون!

كان مرغماً على النهوض. كانت تأخذ وقتها قبل أن تقول ما تريد، كأس ماء حيناً، رفع الغطاء أو تصحيح وضعه حيناً آخر، أو أن يمرر لها وعاء التبول أو إعطاؤها واحدة من أقراصها. كانت تشعر بالحر الشديد أو بالبرد الشديد، أو أيضاً أن الضوء كان يجرح عينيها.

كل ذلك كان زائفاً. كانت تستمتع بالاختراع، تمضي وقتها، منذ أن يعود إلى الجلوس، في اختراع شيء جديد. كانت تلاحقه، وهو يطيعها، بنظرة قاسية، ولم تكن تقول شكراً أبداً. منذ زمن طويل وهي ترتاب فيه، منذ السنة الرابعة أو الخامسة لمرضها، وكانت تزعم أنه كان ينوي أن يسممها ليتحرر منها.

لم يكن هذا، بدوره صحيحاً. لم تكن تصدق ذلك حقاً. كان، أيضاً، اختراعاً لتعذبه.

- أكلت من جديد بصلاً، عمداً، كي تجعلني أمرض من رائحة نفسك. لا تستعجل لم يبق لي وقت طويل.

كان يندر أن يتوصل إلى قراءة صفحتين دون أن تقاطعه. كان مرغماً على إعادة قراءة المقطع نفسه مرتين أو ثلاث مرات وينتهي إلى الخلط بين الأسماء والتواريخ.

- ليون!

كانت تعلم أن هذا الكتاب يشوقه، ومنذ أن بدأ قراءته، كانت تتفنن في مضاعفة الذرائع.

- أقرأ لي مقطعاً بصوت مرتفع.

كان ينفر من ذلك، خاصة حين كانت تطلب منه إيضاحات حول الفصول السابقة، لا تفهم شيئاً وتجبره على العودة إلى الوراء.

- ليون!

لم تكن ظمآنة. لم تكن تحتاج إلى وعاء التبول. كانت تتظاهر ولهب ماكر صغير في عينيها.

كان مُلْكاً لها! لم تعد تملك سواه في العالم، لكنها كانت تملكه حقاً، وكانت في حاجة إلى أن تتأكد من ذلك باستمرار. وهذا هو السبب الذي لم تكن تريد، من أجله، ممرضة أو خادمة في غرفتها، السبب الذي، من أجله، كانت ترفض رؤية أي كان. كانت تملكه بصورة أفضل هكذا. لم يكن لديه أي عذر ليذهب كي يتنفس، ولو لحظة، هواء غير هوائها.

- ليون!

خلال خمس عشرة سنة لم يقرأ كتاباً واحداً بسلام، وكان هذا، مع ذلك، ملاذه الأخير.

لم يكن قد وصل إلا إلى منتصف قصة السيدة لافارج، بالضبط إلى شهادة الصيدلي الذي باع السم.

- ليون!

كانت الرواية رمادية، دون شعاع شمس. كان كل شيء يجري داخل الجدران الخانقة، وليس هناك شخص واحد يبتسم مرة واحدة ككل الناس.

- ليون!

عند ذلك، نهض ذات مساء، نهائياً، وأغلق كتابه. هل فهمت ما الذي تغير فيه. هل أحست بأنه انتهى، أخيراً، إلى اتخاذ قرار؟

- أنت ترى يا بول، كنت هادئاً جداً، هادئاً بصورة مخيفة. كنت أعلم، منذ وقت طويل أن هذا يجب أن يحصل.

كيف كان يمكن أن تكون ردة فعل الدكتور؟

أتى القبعاتي على كسب شوط صغير، آلياً، بقوة العادة. راح شنترو ينظر إليه من جديد، بصورة ملحة. كلا! لن يفهم. كان ذلك يعني جهداً لا جدوى منه. وفضلاً عن ذلك، لم تكن لحالته أية علاقة بالطب. لم يكن مريضاً، لم يكن مجنوناً. لم تكن لديه أية عاهة.

- غبرييل!

سحقاً! قل تفكيره بلويز التي كانت تذكره بلحاف ريفي ضخم. كان يراها هائلة، كما يكون الأمر عندما يصاب المرء بحمى، عندما يحس بانتفاخ في أصابعه، في يديه، في كل جسده، سنفتح، ويتكون لديه الانطباع بأنه يملأ الغرفة.

ضحك لأن الفتى جانتيه كان في مكانه. لم يكن قد رآه يدخل. كان هناك، يسوّد، بوقار، ورقاً على طاولة الرخام.

لا بدّ أنه يعد نفسه شخصية عظيمة.

(٧)

مساء ذلك اليوم، الثلاثاء في ١٤ كانون الأول، بدأ يكتب. لم ينتظر شنترو كي يخرج من مقهى الأعمدة. يذكر أنه فكر وهو يفتح الباب:

- ماذا سيقولون، الآن، وقد أدرت ظهري؟

كان هناك شيء يعرفه ولا يسره. لم يلمح إليه أبداً. وفضلاً عن ذلك لم يكن لذلك سوى أهمية قليلة جداً. عندما كانوا يتكلمون عنه. في غيابه - وقد سمعهم في ذات مرة لم يكونوا يعرفون، فيها، أنه حاضر - لم يكونوا يقولون «لابيه» ولا «ليون» بل «القبعاتي».

لم يكن ذلك يستحق حتى مجرد التفكير فيه، بالتأكيد، كان يمكن أن يجيبوه بأنهم كانوا أيضاً يقولون «الدكتور» و«السيناتور» لكن ذلك كان مختلفاً لأن هاتين الكلمتين كانتا تترددان كلقبي شرف. والدليل هو أنه لم يخطر لأحد أن يقول: «المؤمّن» أو «الطباع»

مضت عشر سنوات، على الأقل، منذ أن عثر، مصادفة، على هذا الاكتشاف الصغير: لم يتحدث عنه إلى أحد، ولم يأخذ عليهم ذلك، مما يدل على أنه لم يمس.

كان شارع ميناج خالياً بصورة بشعة، دون صوت، دون خطوة أمامه أو خلفه. كان للنور الفج على نافذة الخياط الصغير، شيء حزين.

فعل ما كان يجب عليه أن يفعل، ولكنه فعله، للمرة الأولى، من فوق، بازدراء متعال، ناطقاً بالكلمات دون أن يصدقها، كما يستمر بعضهم في تلاوة صلواته.

- هل نادت السيدة؟

لم تكن الفتاة القذرة تحتاج إلى أن تخاف: فهو لن يمسها. كان واثقاً من نفسه الآن. مهما حصل، فليست هي التي سيحمل عليها.

صعد، تكلم من طرف شفتيه، لم ينس أي طقس. بدل موضع مقعد ماتيلد. ذهب ليلقي نظرة من النافذة وتلقى صدمة عندما رأى، في الورشة المقابلة، السيدة كاشودا تتحدث مع الدكتور مارتينز.

لم يكن كاشودا في الغرفة. لا بدّ أنهم وضعوه في السرير. يجب أن يكون الأمر خطيراً ليستدعي هؤلاء القوم الدكتور. تذكر ولادة أصغر الأبناء قبل أربع سنوات. لم تصل القابلة إلا عندما انتهى كل شيء. كان يرى جيداً، أنها تتكلم بصوت خافت، أنها تطرح أسئلة وأن الدكتور مارتينز - من جيل ما بين الأربعين والخمسين - يجيب بارتباك.

هل سيموت كاشودا؟ خاف السيد لابيه من ذلك إلى حد كاد معه حقا أن ينزل لينتظر الدكتور في الطريق ويسائله بدوره.

مرة أخرى، وبعد انصراف مارتينز أرسلت استير إلى الصيدلية، مع وصفة هذه المرة، ورأى تردد الفتاة، وفهم، فجأة، أنها كانت تخاف من الخنّاق. كان ذلك بلا معنى. كان يود أن يصيح بها بأنها ليست عرضة لأي خطر.

أكل. صعد بالصينية. ألقى بطعام ماتيلد في المرحاض وسحب طارد الماء عدة مرات. كان مشغول البال. كان تعبير وجهه، كل الوقت، تعبير رجل لديه مهمة ساحقة، مسؤولية كبيرة.

ربما لاحظت لويز أن رائحة الكحول تنبعث منه. ألم تعترف بأن أباها كان يسكر كل يوم أحد وأنه كان ينبغي في معظم الوقت حمْلُهُ إلى سريره بكامل ملابسه والاكتفاء بسحب حذائه الضخم من قدميه؟

لم يكن ينبغي نسيان شيء. لم ينس شيئاً. نزل إلى القبو وجلب زجاجة كونياك أخرى، وأرغم على الاقتراب أقلَّ من مترين من ماتيلد، لكنه لم يفكر في ذلك. وبعبارة أصح، فكر في ذلك في قفص الدرَج وهو يصعد ثانية.

لاحظ أنه لم يكن يثير، فيه، أي انفعال أن ينزل إلى القبو، أو أن يتذكر ما حدث في ٢ تشرين الثاني، غداة عيد جميع القديسين.

لو كان اتبع الطقوس بدقة، لكان بدأ، بعد وضع الحطب في المدفأة وارتداء ثوبه المنزلي، باقتطاع حروف مطبوعة ليرد على مقال الجريدة. لكن ذلك كان عبثاً كلياً! لم يكن يستطيع أن يقول شيئاً، تقريباً، بهذه الصورة.

دار حول نفسه مثل كلب يبحث عن مكان يلقي بنفسه فيه. دخن غليوناً كاملاً تقريباً دون أن يثبت في موقع، ذهب مرة أخرى، لينظر من النافذة ورأى المرأتين، السيدة كاشودا واستير جالستين قرب طاولة الخياط وتتحدثان بصوت منخفض وتلقيان، من وقت إلى آخر، نظرة قلقة على الباب الداخلي.

عند ذلك، جلس أمام المكتب الصغير، أخذ ورق رسائل من الدرج، ورقاً يحمل اسم مخزن القبعات، وهو ما كان يثبت أنه كان، بعد الآن، يسخر من الاحتياطات. سكب لنفسه كأس كونياك وغمس، فيها، شفتيه قبل أن يكتب.

«لا أهمية لما سوف يقال وما سوف يجري التفكير فيه.....»

لم يكن ذلك صحيحاً على اعتبار أن كان يتجشم عناء الإمساك بالقلم. ولم يكن زائفاً، كلياً، كذلك. رسالته لم تكن موجهة إلى أي كان. لكنه، مثلاً، لم يكن يريد أن يرحل الخياط من دون أن يعرف.

كان ذلك معقداً إلى أقصى حد، وكان يعاني من رأسه، كان رأسه يؤلمه طيلة النهار. اضطرب عندما رأى كتابته. كانت الحروف غير منتظمة، وكان بعضها يتداخل بسبب الكحول، احتمالاً، وبسبب ارتعاش أصابعه.

كان الجو في الغرفة حاراً كالعادة. إلا أنه كان يتلقى نفحة باردة على خده الأيسر لأنه كان على مسافة متر من النافذة، ولأن الزجاج كان جليدياً.

ما كان يجب البرهان عليه، بوضوح، هو أنه تصرف، حتى الآن بصفاء ذهن، عن وعي تام للأمر. ظن أنه قد وجد الجملة:

«تحملت مسؤولياتي ومازلت أتحملها».

لم يكن هذا صحيحاً تماماً بدوره. فليكن أنه قد تحملها. ولكن هل كان واثقاً من تحملها في المستقبل؟ ألم يكن هذا، على وجه الدقة، ما يخيفه؟ مهما قيل، فقد تحمل، طيلة حياته، مسؤولياته بهدوء. لم يكن صحيحاً تماماً أنه أصبح قبعاتياً بسبب هذه «البينيت» التي كان يكرها كراهيته للويز تقريباً.

سوف يشرح هذه النقطة. كلا، هذا يعني الرجوع إلى زمن أبعد مما ينبغي. لن يعود ينتهي من ذلك. هذا لم يكن يهم سوى بضعة أشخاص. كان يفهم نفسه. كان الأمر واضحاً جداً في ذهنه. ما الذي جرى، مثلاً، لفتيات الصورة، للخمس عشرة اللواتي تخرجن، في السنة نفسها، من دير الحبل بلا دنس؟ بعضهن رحلن وبقيت أخريات. كانت بينهن من تزوجت وأخريات بقين عازبات.

إحداهن تخلت عن الدنيا، حالاً، من تلقاء ذاتها، بكامل رضاها ودون أن يرغمها على ذلك أي شيء خارجي. إنها هي التي كانت في الدير باسم الأم المقدسة أورسولا.

حسناً! بالنسبة للرجال، حدثت الظاهرة نفسها، تكررت في كل جيل. كان مؤسفاً أن لا توجد صورة لزمرة من بلغوا، الآن، عمر الستين.

هناك، من جهة، أمثال شنترو وكاييه وجوليان لامبير والسيناتور لودو ولوسيان أرنو وبضعة آخرين لم يكونوا يرون في مقهى الأعمدة ولا يصادفون إلا نادراً، ولكنهم ظلوا أوفياء للمدينة.

وهناك، من جهة أخرى، من رحلوا ليجربوا حظهم في بوردو وباريس وغيرهما. بل إنه يذكر بينهم من أصبح شخصية عالية جداً في إدارة الهند الصينية.

بعضهم كان يعود إلى الظهور بين وقت وآخر، لمناسبة زواج أو جنازة، ليروا أسرهم التي بقيت في المدينة. كانوا، عامة، يطلون إطلالة قصيرة على مقهى الأعمدة. وكان يبدو عليهم أنهم يريدون إحاطة أنفسهم بهالة. تصرفاتهم كانت، في وقت واحد، أليفةً وقصيّة، كانت بالمختصر متنازلة.

- إذن، كيف حال مدينتنا القديمة الطيبة؟

كان ذلك يصدر، خاصة، عن الذين نجحوا، الذين كانت تنشر أخبارهم، أحياناً، في الصحف. كانوا يتنهدون:

- لديكم الحياة الطيبة هنا!

يقولون ذلك وهم حريصون على أن يفهم أنهم لا يؤمنون بذلك. كان بينهم محام أصبح اختصاصياً مشهوراً في علم الجريمة وكانوا يتحدثون عنه بوصفه نقيب المحامين المقبل.

أتيح الاختيار للسيد لابيه أيضاً، لكنه اختار مخزن قبعات شارع ميناج. وبالمناسبة، كان بعضهم يتصور أن ذاك كان البيت الذي ولد فيه. كان ذلك غير صحيح. لقد ولد، حقاً، في شارع ميناج، في بناء شبيه تماماً بذاك الذي كان يسكنه الآن، لكنه يبعد عنه خمسين متراً، وكان في الثامنة من عمره حين بدل أبواه سكنهما.

أثارت مدام بينيه اشمئزازه، مثلما باتت لويز تثيره بعد أربعين سنة. ومع ذلك، كان يستطيع أن يبقى في بواتييه، على الرغم منها، أو حتى أن يذهب إلى باريس.

اختار لاروشيل. لم يكن ذلك خوفاً من النضال. لم يكن يخاف، لم يكن يخاف من شيء.

من الذي اختار أن يؤدي خدمته العسكرية في سلاح الفرسان، في حين لم يكن قد مس جواداً خلال كل طفولته؟ كان هو. بل إنه استبق الاستدعاء ليستطيع أن يختار السلاح.

ومن الذي طلب، خلال حرب ١٩١٤، أن ينتقل إلى الطيران. كان هو أيضاً، ليون لابيه. عندما اندلعت الحرب، وبعد عمليات نقل غامضة، ألحق بلواء مشاة. عرف الخنادق. عانى منها في الوحل، في الحشد، في الكتلة الغفل التي كانوا يحركونها كأنها مادة.

عندما أصبح طياراً، لم يخف أبداً: كان لا يكاد يتنازل وينشّط نفسه بكأس كحول عندما يذهب في مهمة، بمفرده في طيارة مقاتلة.

كان يعيش في عالم على حدة، مع نخبة. كان لديه وصيف يعنى به، بثيابه وبحذائيه.

لم يصبه حتى جرح، كانا أفضل عامين، في حياته، تناغماً.

ولكنه لن ينتهي إذا عاد إلى ذلك العهد على الرغم من أنه كان يرى ذلك ضرورياً لملفه. كتب على ورق مخزن القبعات، وهو يسمع لويز تصعد لتنام:

«*لقد اخترت عن تصميم دائماً، وأنا مستمر، وسوف استمر في الاختيار*».

ما لم يفعله لم يكن يسمى تخلياً عن المعركة، أو تراجعاً أو انسحاباً.

على العكس من ذلك، بقدر ما كانت تنقضي السنين كان هو الذي يبتسم بمزيد من الازدراء عندما كان يرى جماعة باريس يعودون لبضعة أيام إلى البلد ويخيل إليهم أنهم مرغمون على التظاهر.

كان يعلم جيداً أنه كان على صواب، أنه سلك الدرب القويم.

«*فيما بعد، اخترت أن أتزوج*».

كان ذلك صحيحاً، تقريباً، أيضاً، لأنه تلزم امرأة للبيت، ومن الباعث على الاشمئزاز أن يذهب الرجل، من وقت إلى آخر، ليرتوي حيثما كان. في ذلك العهد، لم تكن هناك آنسة بيرت في شارع غارغولو، وكان يجب الانحدار إلى مستوى هابط جداً، في القذارة.

لم يكن قد اختار ماتيلد. كان ذلك، أيضاً، غير صحيح. اختار أن لا يتصارع مع أمه، اختار أن يرضيها لأنها كانت مريضة، لأنه كان يرى أن الفرق بين فتاة وأخرى لم يكن يستحق أن يضيع وقته ويؤلم الآخرين من أجله.

بعد أن أسس نادي الطيران المدني - لأنه هو الذي أسسه - اختار أن ينسحب منه لأنهم سموا تاجر السلاح بوران رئيساً له، معتذرين منه، لأن بوران الغني والمتكبر، كان قابلاً لأن يغذي الصندوق بسخاء.

كان يستطيع أن يكون أميناً عاماً، نائباً للرئيس. فضل أن لا يكون شيئاً. لم يكن ذلك عن غيظ، ولا نقصاً في القتالية. لو تحمل عناء القتال ضد بوران لانتصر. كان هو، وهو وحده، الذي حكم بأن هذا لم يكن يستحق العناء.

كان من المستحيل، تقريباً، أن يعرض هذا الشعور البالغ القوة في سريرته الداخلية. كان يحس، يرى ما يشبه خطاً متصلاً في حياته، كان يستطيع أن يرسمه بطرف ريشته. إلا أن الكلمات كانت تشوش كل شيء، تقول أكثر مما ينبغي أو لا تقول ما يكفي.

وبدأت البهيمة القذرة لويز جلبتها اليومية المقرفة: كانت، وحدها، ضمن مساحة ثمانية أمتار مربعة، تحدث من الجلبة بقدر ما يحدثه كل جنود مهجع. كان يسمع صوت وقوع فرْدَتَيْ الحذاء، واحدةً بعد الأخرى، على الأرضية، كان يمكن تخمين الثوب الذي كانت تُدخله من رأسها، وهي تلهث ووجهها الذي يخرج من هذه الحركة أحمر تماماً، بل كان يظن أنه يراها تفرك ثدييها بعد خلع حمالة صدرها، ثم الخط الأحمر الذي كان مطاط سروالها يتركه على خصرها.

كان اختياراً، أيضاً، أنه لم ينم معها. كان يستطيع ذلك. من يعلم ما إذا كان هذا هو ما انتظَرَتْه دوماً؟ كان يمكن أن تستسلم منصاعة. وهي، بلا شك، لم تكن تفهم لماذا لم يأت إليها.

كان قد أحس بأنه كاد يفعل في البداية، وكان لايزال ينقم على نفسه لهذا الإغراء.

كانوا يدعونه «القبعاتي» كما لو كانت تلك شتيمة، كلمة مضحكة على كل حال، شيئاً هازلاً.

إلا أنه اختار كل شيء دائماً. وبالتالي، فقد كان، هو، الأقوى، أليس كذلك؟

اختار، أيضاً، أن ينتهي من ماتيلد، ولم يحس بالانفعال أمام جثتها، لم يشعر بأي تبكيت ضمير. لم يضعف لحظة حين كان يضغط عليها وكانت تنظر إليه بذهول أكثر مما كانت تنظر بخوف.

ربما كان ذلك، في الحقيقة، مقرراً، خفية عنه، منذ زمن طويل جداً. كان قد قال لنفسه:

- إذا تجاوزت الحدود.....

كان قد وضع هذه الحدود بعيدة جداً، من أجل أن يمنحها فرصة. صبر خمس عشرة سنة. ترك الخيط سائباً إلى حد ظنت، معه، أن كل شيء كان مسموحاً لها به.

لم يقض عليها بسبب السيدة لا فارج، بل لأنها بالغت.

كانت لويز التي كانت جديدة في البيت لا تزال تنام في غرفة استأجرها لها في المدينة، سقيفة في ميدان السوق، فوق مخزن أقمشة.

بعد ذلك، كانت لديه ليلة كاملة، وقد أخذ كل وقته من أجل أن لا يدع شيئاً للمصادفة.

لم تكن أرضية القبو مفروشة بالاسمنت، كان أكثر من ثلث المساحة، تحت الكسوة مغطى بالفحم.

تجشم عناء ليهيئ جزئياً على هذه المساحة ويحفر الأرض إلى عمق ما يقرب من متر. كان قد أنزل جثة ماتيلد على ظهره، وهو ما لم يكن سهلاً في السلم الحلزوني، ثم عاد إلى الصعود ليجلب غطاء من الغرفة، بدافع الحشمة.

بل إنه لم ينس، وهو يعمل، أن يسد الكوة لأنه يمكن أن يُدهَش أحد من رؤية الضوء في القبو طيلة الليل. في الساعة الخامسة صباحاً، كان الأمر قد انتهى، كان الفحم قد عاد إلى مكانه وفتحت الكوة. غسل درجات السلم واحدة واحدة، ثم نظف ثيابه في المغطس.

في تلك البرهة، كان يظن أن مهمته قد انتهت. أوقف احتياطاته، وهو ما كان سهلاً على اعتبار أن ماتيلد لم تكن تريد أن ترى أحداً، ولأنه كان، منذ سنوات، الكائن البشري الوحيد الذي كان يدخل إلى الغرفة.

«سيدعي بعضهم أني أردت أن أتحرر. هذا غباء».

كان يعلم، قبل أن يتصرف، أنه لن يكون أبداً أكثر حرية من ذي قبل، على اعتبار أنه سيكون عليه أن يتصرف كما لو أنّ زوجته على قيد الحياة، وبالتالي أن ينجز، يومياً، الحركات نفسها، أن يبقى في بيته في الساعات نفسها.

لقد جاوزت الحدود، ولم يكن هناك شيء آخر يقال.

في اليوم الأول، كان مرحاً تقريباً. فقد كان طريفاً أن يصعد بالوجبات ويلقي بالطعام في المرحاض، أن يستمر في عدم أكل الأسماك لأن ماتيلد لم تكن تتحمل رائحتها، أن يشد حبلاً لتقليد صوت عكاز على الأرضية، أن يدفع بالرأس الخشبي إلى أمام النافذة ويتكلم بمفرده وهو يروج ويجئ في الغرفة.

- *هل نادت السيدة؟*

لم يشك فالانتان في شيء، ولا لويز أيضاً. على كل حال، لم تدع شيئاً يظهر عليها.

اليوم الخامس هو الذي توقف، فيه، أمام صورة المجموعة. كانت لا تزال معلقة على الجدار في تلك البرهة. عند ذلك، وخلال لحظة، خانته أعصابه، أصبح شاحب اللون، خاف حقاً.

ذلك أنه لم يكن صحيحاً، تماماً ،أن أحداً لم يكن يدخل الغرفة.

كان تقليداً، منذ أن لازمت السرير، أن تزورها، في عيد ميلادها، في ٢٤ كانون الأول، رفيقاتها في المدرسة الداخلية اللواتي كن لا يزلن يعشن في المدينة ويقدمن لها تمنياتهن وهداياهن.

لم يعدن سوى عجائز، عوانس، ومع ذلك كن، في ذلك اليوم، يغردن كتلميذات صغيرات.

كان عليه أن يواجه الموقف بأعصاب باردة. كان يستطيع أن يذهب لرؤيتهن، الواحدة بعد الأخرى، قبل عيد الميلاد ببضعة أيام، ويعلن لهن أن ماتيلد لم تكن في حالة جيدة وتفضل أن لا ترى أحداً.

كان يجب أن يعاود في السنة التالية، ثم في السنوات الأخرى إلى أن يمتن جميعهن، وكان ذلك مهدداً، في نهاية الأمر، بأن يبدو غريباً.

كان أمامه ستة أسابيع. كان يعرف تاريخ كل منهن وعاداتهن. كان ذلك الحديث الوحيد لماتيلد تقريباً. عندما تكون في حالة طيبة، كانت تروي، بلا نهاية، قصص الدير بحماسة كما لو كان ذلك قد حدث في الأمس. كان يتفق لها، أيضاً، أن تحلم بالأم المقدسة جوزفين بعد أكثر من أربعين سنة.

- هذا الليل، حلمت بأن ماري لانج كانت تقول لي.....

كانت غالباً ما تقفز من الماضي إلى الحاضر دون مرحلة انتقال.

- أتساءل عما إذا كانت روزالي كوجا سعيدة. في هذه الساعة، يجب أن تكون في مخزنها في سوق العقادين.

فكر كثيراً. أكثر ما فاجأه لدى موت ماتيلد هو السرعة التي تم بها ذلك.

الأخريات كن في صحة جيدة بالتأكيد. ولكنهن كن في العمر نفسه تقريباً. انقضت عليه عدة أيام قبل أن يفكر في وتر الفيولونسيل الذي ذهب ليحضره من الطابق الثاني مروراً بالزقاق الضيق. كان قد اختار. لم يختر، بجبن، أسهل الدروب. كان قد واجه كل الاحتمالات وما قرره لم يكن محبباً على نحو خاص.

كتب حوالي الساعة العاشرة والنصف مساءً:

«أقسم على أني لم أجن أية متعة غير سوية»

لم يكن سكراناً. كان مقتنعاً بأن لا علاقة للكحول فيما كان يحسه. والدليل على ذلك أنه أحس به منذ الصباح، بل وفي مساء الأمس على رصيف دوبيريه، في حين كان الخياط الصغير في أعقابه.

خطرت له مقارنة، سجلها لأنه كان يعتقد من المفيد، بعد الآن، أن يسجل كل شيء. كان يعلم أن الأمور ربما لن تكون، في الغداة، بمثل هذا الوضوح في ذاكرته.

إلا أن المسألة كانت بالضبط مسألة وضوح. عندما كان صغيراً، كانت له عينان قويتان جداً. وكانت الصور بالنسبة إليه، إذن، جلية تماماً، وكل شيء كان يرتسم بدقة، حدود الأشياء، الألوان، أدنى التفاصيل.

في ذلك العهد، كانت لا تزال لديه جدته - والدة أبيه - وكانت تضع نظارتين بإطارين من فضة. كان زجاجها سميكاً كعدستين مكبرتين، وكان يتسلى، أحياناً، بوضعهما أمام عينيه، وفي الحال، كانت الأشياء تغدو غائمة وتتغير أبعادها ويكتشف العالم كما لو كان ذلك عبر نقطة ماء.

حتى حادثة الأسقفية - غياب الحادثة، في الواقع، لأنه لم يجر شيء - كان كل شيء كامل الوضوح، بل وأكثر وضوحاً من السابق، مع ألوان فجة، بياضات وسوادات ذات حدود قاطعة، خطوط كما لو كانت مرسومة بالحبر.

كان يمضي في دربه بصورة مستقيمة، يفعل ما قرر أن يفعله، ولم يكن، أبداً، في حاجة إلى الشرب ليوطد رباطة جأشه، وهذه الكلمة، بالذات، لم تكن تخطر في ذهنه.

عندما كان يعود، كان يمحو، في ذهنه، اسماً من اللائحة، رأساً من الصورة متذوقاً مسرة كونه قد أنجز مهمة.

وصل، الآن، إلى اعتبار هذه الفترة من حياته إحدى أسعد الفترات، أكثرها امتلاء، وربما كانت تعادل، في زمنها، تلك التي أمضاها في الطيران حين كان أيضاً يعد بهدوء الطائرات المعادية التي يسقطها والسعفات على صليبه الحربي.

وكما في الطيران، كان يلامس، دون انقطاع الخطر. كان يجب أن يفكر في كل شيء، أن يمتلك ارتكاسات متينة، أن لا يدع شيئاً للمصادفة.

وكما في أثناء الحرب، أيضاً، كان يقول لنفسه:

- في بضعة أسابيع سوف ينتهي كل شيء وسوف أكون مطمئناً.

لم تكن لديه كوابيس، لم يكن مضطرباً. تعود على شيء من الحمى كان يساوره في برهة الخروج في إحدى حملاته، على انطباع الارتياح الذي كان يحس به عندما يعود بعد ذلك إلى بيته.

هل كان سيصبح كذلك، أيضاً، الآن لو كانت الأم المقدسة أورسولا قد خرجت يوم الاثنين كما كان يجب أن تفعل، ولو استكمل لائحته؟

كتب بحركات متقطعة من يده التي لم يكن قادراً على التحكم فيها:

«لا شيء تغير على اعتبار أن موتها، في الواقع، غير ذي فائدة. إنها لم تدخل، أبداً، إلى المنزل. في ٢٤ من هذا الشهر، ستكتفي، كالسنوات الأخرى، بإرسال تمنيات وصورة دينية. وكنت أنا، دائماً، الذي يرد، باسم ماتيلد، لشكرها.

وليس لدي، من جهة أخرى، أي سبب للنقمة عليها، ليست لدي أية مصلحة في موتها.

وبالتالي، فقد انتهت مهمتي. أنجزت، بالضبط، ما فرضته على نفسي».

لم يكن ذلك صحيحاً، وهذه النقطة هي التي كان يضطرب عندها، ينقب، نوعاُ ما، في زوايا نفسه، قلقاً، غير مرتاح في جلده.

كان مرغماً، الآن، على الشرب ليحتفظ برباطة جأشه، كي لا يحس، مرة أخرى، بأعصابه تنثني، ليتجنب هذا الهلع الداخلي الذي لم تكن له أية علاقة بالخوف.

ذلك لأنه لم يكن يخاف من شيء، ولا حتى من أن يعتقل. سيكون هذا، على العكس من ذلك، فرصة لكي يفصح عما يريد قوله. ينبغي أن يستمعوا إليه، وسيأخذ كل وقته. اتفق له، أحياناً، أن يرغب، عمداً، في ارتكاب زلة كي يلامس الخطر كما كان قد طار، بطائرته، على مستوى الأرض، فوق الخنادق المعادية على الرغم من الأنظمة.

ما كان يجب الإلحاح عليه، ما كان هاماً، أكثر أهمية من كل شيء في العالم، هو أنه بقي صافي الذهن.

لماذا، إذن، تعطلت الآلية، فجأة، دون سبب؟ لم يكن لديه أوهام. اعتَبَر هذا بداية نزلة برد، لكن ذلك لم يكن صحيحاً. كان فالانتان مزكوماً، وكان كاشودا مريضاً. أما هو فلا.....

ومع ذلك، فقد بدأ العالم حوله يشبه ما كان يراه، سابقاً، من خلال نظارتي جدته.

لم يكن قد ذهب إلى منزل الآنسة بيرت بحالته الذهنية المعتادة. كان صريحاً مع نفسه: عندما ذهب لم تكن لدي أية رغبة في ممارسة الجنس، لم يكن قد قرر، كذلك، أن يفعل شيئاً آخر ولم يأتِ بوتر الفيولونسيل.

كان ذلك، بالضبط، الشيء الخطير. الأمر نفسه كان مع لويز. لم يفعل شيئاً للويز، كان مقتنعاً بأنه لن يفعل لها شيئاً، لكن الإغراء كان باقياً، لا في ذهنه الذي كان يسخر من هذه الفتاة الضخمة البلهاء، بل في ما يعلمه الله من ثنايا لحمه.

كان جانتيه قاسياً في روايته لأقوال طبيب ليون النفسي:

«لن يتوقف عن القتل إلا حين سيقبض عليه».

لماذا؟ هذا الرجل لم يره قط، لم يكن يعلم عنه شيئاً، وكان يسمح لنفسه، من بعيد، من فوق، بالحسم في مصيره بثقة شيطانية.

نهض وذهب لينظر من النافذة، وكان لايزال هناك نور تجاهه. كانت السيدة كاشودا وحيدة، تغفو على مقعد الخيزران. وعلى طاولة الخياط، وضع منبه.

كان الأمر إذن خطيراً أو أن هناك دواء يؤخذ بفواصل منتظمة. ربما كان مصاباً بالتهاب رئوي: كان السيد لابيه واثقاً من أن الخياط الصغير رفض أن ينقل إلى المستشفى.

هؤلاء الناس يتشبثون ببيوتهم، يولدون ويموتون فيها.

لماذا كانت فكرة موت جاره المحتمل تصيبه بالذعر؟ لم يكن كاشودا يفيده في شيء. كانا لا يكادان أن يكونا متعارفين. وها هو يبدو متشبثاً به.

كان هناك شيء مختل، كل شيء كان مختلاً.. أقسم، ثلاث مرات، هذا المساء على أنها الكأس الأخيرة التي يشربها قبل أن ينام، وفي كل مرة كان يصب لنفسه كأساً أخرى.

ترك النار تنطفئ، ملأ بالكتابة صفحتين كان مرآهما يسبب له توعكاً. متى بدأ بالكتابة بهذا الشكل الردئ، بحروف ناقصة وأخرى متداخلة؟ كان قد سمع عن علم الخطوط. نوقش أمره في مقهى الأعمدة. تذكر أن بول شنترو قال:

- يبالغون كثيراً، لكن هناك شيئاً من الحقيقة العلمية. الذين يدعون اكتشاف الماضي والمستقبل في الخط دجالون أو سذج. ومع ذلك، فمن المؤكد أنه يمكن أن يميز فيه طبع رجل، وحالته الصحية غالباً. إن مريضاً في القلب لا يكتب كمصاب بالسل مثلاً.

لا أهمية لما قاله، فالسيد لابيه لم يكن مريضاً قط، خارج التهابات الحلق السنوية، ولم يكن مريض قلب. لقد تمّ فحصه فحصاً معمقاً قبل ستة أشهر.

لن يشرب بعد، لأن ذلك كان خطراً، وكان يتلف له أعصابه، وبالفعل، فإن شنترو نظر إليه، في المقهى، بصورة غريبة.

على اعتبار أن مهمته قد انتهت، فلن يقرأ، بعد، الصحف. كان جانتيه يستطيع أن يواصل المماحكة حول حالته. أما بالنسبة للصحفيين الآخرين فسوف ينتهون، لكونه لن يحدث شيء بعد، إلى الملل. ذلك أنه قد جاء من باريس ستة أو سبعة منهم أقاموا في «فندق الأجانب» واختاروا مقهى البريد، تجاه البلدية، مقراً عاماً لهم.

وبما أن الوقت قد طال، فقد رحل بعضهم، لكنه يجب أن يكون قد بقي منهم ثلاثة على الأقل، بينهم مصور كان يصادف، في الطرقات، مع آلته على بطنه، وغليون ضخم.

وكان هناك، أيضاً، مراسِلَيْ جريدة من بوردو وجريدة من نانت، لكن هذين كانا يسكنان المدينة ويمضيان معظم أوقاتهما في بار قرب الساعة الضخمة. وكان الاثنان يعرفان السيد لابيه ويحيّيانه باسمه.

كان يكفي أن يصمد. كل ما أتى على كتابته كان غبياً. لم يكن يفسر شيئاً. لم يجد الكلمات. خيل إليه أنه سيكون أوضح إذا ركز على بعض المقاطع، لكن ذلك لم يكن يعني شيئاً لسواه. سيعاود الكتابة، سيأخذ الأشياء من بدايتها، بهدوء، مستريح الذهن.

يحتمل أن لا يقرأه أحد أبداً. لم يكن لذلك أهمية. كانت تلك أموراً كان يحتاج إلى أن يقولها ولو لم يكن ذلك إلا لنفسه.

ما أن أتت النار على الانطفاء حتى اكتسح البرد، الغرفة، وبالكاد انتبه القبعاتي إلى أنه يذرع أرض الغرفة ويداه في جيبيه، وأن عقارب المنبه كانت تدور وأنه جاوز ساعته منذ وقت طويل.

هل كان هادئاً إلى حد كاف؟ شرب أيضاً جرعة وأحس بنفسه في حال أفضل. كان يتزايد اقتناعاً بأن كل شيء سيتدبر. الخياط الصغير سوف يشفى. ربما سيتحدث إليه، ببساطة، ببساطة كبيرة، ذات يوم.

سيقول له ليطمئنه، ليعيد إليه السلام:

- *هل تعرف يا كاشودا؟ انتهى كل شيء، لم يعد ينبغي التفكير فيه.*

الغريب هو أنه كان يبدو له أن الخياط الصغير مرض بسببه وأشعره ذلك بالندامة. كان يود أن يحصل على أخباره. ما الذي يمنعه من أن يذهب غداً للسؤال عنه؟ كانا جارين يتبادلان التحية كل صباح عبر الشارع. عندما سيقرع الجرس، ستنزل السيدة كاشودا.

ثم ستذهب لتقول لزوجها:

- القبعاتي جاء ليسأل عن أخبارك.

سيشعر كاشودا بالخوف. الله يعلم ماذا سيتصور. كان ذلك مستحيلاً. لم يكن ينبغي أن يقدم عليه.

لم يعد ينبغي أن يفعل شيئاً سوى الالتزام بجدوله اليومي، بالحركات التي فرضها على نفسه سوى أن يتبع جدوله بدقة، هذا كل شيء.

أصاخ السمع، كانت الزجاجة، بالضبط في يده. كانت آخر جرعة. غداً سيلقي بالكونياك في القمامة ولن يشرب سوى كأسي البيكون اليوميتين، أثناء لعبه البريدج.

أحدهم كان يمشي في البيت. كان صوتاً غير مألوف. كان هناك حفيف على الباب. قال صوت قبيح:

- ألا تستطيع أن تدع الناس ينامون؟ ماذا بك لتتنزه طيلة الليل كحيوان؟

بقي لحظة جامداً، جامداً تماماً. لم يكن بعيداً عن الباب. لم يكن عليه سوى أن يمد ذراعه ليدير المفتاح في القفل.

- لا ينبغي، خاصة، بأي ثمن، أن أفعل!

فعل ذلك، فتح الباب تماماً ورأى في إطاره بالضبط، كلوحة، لويز التي لم تكن مضاءة جداً والتي كانت في قميص قطني أبيض، شعرها على ظهرها، حافية القدمين - لم يكن لخطواتها الوقع المعتاد نفسه لأنها كانت حافية.

كانت الزجاجة لا تزال في يده. والزجاجة هي التي حدقت، فيها، بدهشة، ثم حدقت في وجه القبعاتي. لم تكن خائفة بعد. وبما أنها كانت دون

ماكياج، فقد كانت لها شفتان غريبتان شاحبتان. وكان ثدياها، تحت قميص النوم، منتفخين كضرعي بقرة.

لم يتحرك. كان جامداً تماماً، وربما لم يتنفس خلال كل هذا الوقت. كانت ترى الغرفة وراءه وانزلقت نظراتها على السريرين الخاليين وتوقفت على المقعد، على الرأس الخشبي.

عند ذلك، فتحت فمها إلى أقصى حد من أجل صرخة لم تخرج. يجب أن تكون قد أرادت الهرب بكل سرعة، شعر بذلك. لكنها لم تكن تستطيع أن تتحرك أيضاً.

كان هو أول من انتزع نفسه من جموده. تحطمت زجاجة الكونياك على الأرضية.

بدلاً من المقاومة، سقطت لويز مرتخية تماماً، ووقع فوقها، رأسه على المنبسط وإحدى قدميه عالقة بين قضبان قفص السلم. كانت لا تزال حارة ودبقة. كانت لإبطيها رائحة قوية. أمسكت إحدى يديها بأذن القبعاتي كأنها كانت تحاول انتزاعها.

ترنح عندما نهض. لم تتيسر له القوة لأكثر من أن يدخل الغرفة، ويرتمي على حافة سرير ماتيلد دون أن يعيد إغلاق الباب. لم ينظر إلى الساعة، لم يعرف، أبداً، كم من الوقت دام ذلك، حصل لديه الانطباع بأنه يتدحرج نحو قعر هاوية، كما في كابوس، وكان يحدّق في السجادة ولم يجرؤ على رفع رأسه.

أول إحساس محدد شعر به كان إحساساً عذباً وفاتراً. الدم الذي يسيل من أذنه الممزقة كان ينزلق على عنقه ويدغدغه.

حرك رأسه قليلاً ورأى قدمي لويز الحافيتين وساقيها وبطنها العارية وقميصها الممزق.

كانت زجاجة الكونياك حطاماً.نهض متراخي الجسم، أسرع إلى الحمام ليشرب كأس ماء وتسنى له، بالضبط، الوقت لينحني على الحوض ليتقيأ.

(٨)

هذا الصباح، أيضاُ، لم يستطع أن يهتف عبْر الطريق:

- نهارك سعيد كاشودا.

لم يكن وضع الخياط الصغير، دون شك، أفضل. إذا كانت الصغيرتان قد ذهبتا إلى المدرسة، فلم يكن يبدو على البكر، استير، أنها كانت تستعد للذهاب إلى المخزن. فهي لم تكن، في الساعة الثامنة والنصف قد بدأت في ارتداء ملابسها، وكانت ترتب البيت في حين كانت أمها، دون شك ترتاح.

كان ذلك يوم السوق الصغيرة، كانت تسمع ضجة من جهة السوق المغطاة. وفي شارع ميناج، كانت هناك بعض العجائز، ذاتهن دائماً، في الأمكنة ذاتها، مع كرسي نقال، وبعض سلال الخضار، كستناء وطيور حية.

عندما وصل فالانتان، كان السيد لابيه ينهي كنس المخزن ودفع النفايات إلى الطريق من الباب المفتوح.

لم يلاحظ المستخدم شيئاً غير طبيعي. قال له معلمه بصوته الوقور - كان له صوت جميل:

- نهارك سعيد يا فالانتان. كيف حالك؟

ونظر إليه باهتمام. رد الفتى الأصهب قائلاً:

- أعتقد أني في حال أفضل يا سيدي. أسعل قليلاً هذا الصباح، لكن أمي تقول أن ذلك يخرج عن طريق الحنجرة.

كان كل شيء منظماً في البيت. كانت مدفأة الغاز مشتعلة. كان السيد لابيه هادئاً، أقرب إلى العطف، وهو ما كان يتفق له بين وقت وآخر. كان،

في تلك الأيام يبدو أبوياً مع فالانتان، يتحدث بصوت أكثر عذوبة ويتفنن أحياناً، في إضحاكه.

كان حليق الذقن كعادته، يرتدي قميصاً نظيفاً وينتعل حذائين لامعين وربطة عنق معقودة جيداً.

- أنا قلق إلى حد ما يا فالانتان. مساء أمس،حين كنت قرب السيدة، سمعت لويز تخرج. ظننت أنها على موعد مع عاشق في زاوية الشارع، وانتظرت كي أقفل الباب. إلا أنها لم تعد إلى البيت.

- أتعتقد أنه قد خُنِقَت؟

- سأخطر الشرطة على كل حال.

مرة أخرى، فعل ما كان يجب أن يفعله. وعلى العكس من توقعه، لم يكن وجهه منتفخاً، كما كان في العشية، ولم تكن نظرته آبقة. لم تكن يداه ترتعشان. كان هادئاً، ورصيناً، دون قلق كما يتفق للمرء عندما لاينام جيداً.

ذلك أنه قد نام. عندما خرج من الحمام، جلس على المقعد، أمام النار الخامدة، ولم يكن أبداً، خلال حياته، قد شعر بمثل هذا الخواء. ألم يأت، حرفياً، على إفراغ نفسه بكل الصور الممكنة؟

لم يكن ينظر إلى شيء، ولا يفكر في شيء، وبعد خمس دقائق، كان يغط في نوم دون أحلام. عندما فتح عينيه، كان المنبه الموضوع على المدفأة يشير إلى الساعة نفسها التي كان يشير إليها لدى استيقاظه كل يوم، وكان هو نفسه فعلاً مثلما يُشاهَد الآن، هادئاً، هادئاً جداً، بطيء الحركات قليلاً، مع تعب كبير في داخله، ولكن مع ارتياح كبير أيضاً.

انطلق تفكيره بصورة طبيعية جداً. كان يحتاج إلى التأمل، إلى أن يجمل الوضع، لكنه لم يكن يأخذ شيئاً على صورة مأساوية.

فات الوقت على إنزال الجثة إلى القبو، وفضلاً عن ذلك، لم يجد الشجاعة اليوم على تحريك كومة الفحم. كان قد سحب لويز إلى الغرفة من

قدميها ودفع بها إلى تحت سرير ماتيلد. كان من غير المفيد إخفاؤها. إذا دخل أحد على الغرفة فسوف ينكشف، بالضرورة، كل شيء.

لم تكن الخادمة هي التي تهم، بل كانت ماتيلد. إلا أنه كان يفضل أن لا يرى الفتاة الضخمة كل مرة يكون عليه، فيها، أن يصعد.

أشعل النار، فعل ما يفعله في الأيام الأخرى، وفوق ذلك، أعد قهوته، بل اتفق له أن تكلم في روحاته إلى الغرفة وغدواته منها، في حين أن ذلك لم يكن، اليوم، لازماً.

كان لايزال هناك ضوء تجاهه. السيدة كاشودا التي لم تنم في الليل تتناول، بلا مبالاة، طعام الإفطار.

أكثر ما أثر فيه كان الذهاب إلى غرفة الخادمة، لكن ذلك كان ضرورياً. كان السرير غير مرتب، مع بقع على الأغطية. كان عليه أن يرتبه. كان المشط مليئاً بالشعر. كانت الرائحة تقلب معدته. كانت الملابس مبعثرة في كل مكان وكانت هناك، في زاوية حقيبتان رخيصتان.

من الأفضل أن لا يدعي أنها قد رحلت مع حوائجها. كان يكفي أخذ الملابس التي كانت ترتديها في الأمس، السروال، حمالة الصدر، التنورة الداخلية، الثوب، وكذلك المعطف لأنها ما كانت لتخرج دونه في هذا الجو البارد.

كاد يفسد كل شيء. كان على أهبة أن ينزل عندما فكر، بأعجوبة، بدبابيس الشعر، وهي أكثر ما كان ينفر من مسه. ألقى بها في المرحاض كما كان يفعل في الأيام الأخرى، بطعام ماتيلد. أما بالنسبة للملابس، فقد اكتفى بأن دسها تحت السرير مع الجثمان.

ألم ينس شيئاً؟ عاد إلى غرفة لويز، فتح درج طاولة الليل، رأى علبة مغطاة بأصداف. كانت تحتوي على خواتم وسوارات مما يشترى من أسواق الملاهي، بطاقتين أو ثلاث بطاقات بريدية، مفتاح هو، دون شك، لإحدى الحقيبتين، بعض القطع النقدية وصورة شاب بشعر كثيف، منفوش، فلاح في ثياب الأحد تصور على طائرة من ورق مقوى مدهون، تركها في مكانها.

كان ذلك كل شيء. عدا ذلك كان الأمر مجازفة لا بد من قبولها، وكان واثقاً. أكثر ما كان يشغل باله كان مرض كاشودا. فاجأ مرتين السيدة كاشودا تنظر من النافذة المواجهة إلى مخزن القبعات.

هل قال لها الخياط الصغير شيئاً؟ هل سألها، ببساطة:

- ماذا يفعل السيد لابيه؟

ربما كان يهذي. وماذا لو أحس بأنه مصاب إصابة خطيرة، ألا يستقدم كاهناً؟

كان يتمنى أن يذهب ليراه. كان ذلك مستحيلاً تقريباً. الخطوة لم تكن تتوافق مع علاقاتهما الرسمية.

مع ذلك، بقيت الفكرة في زاوية من رأسه.

- يحتمل أن أعود خلال نصف ساعة يا فالانتان. لا أظن أن السيدة ستنادي.

- حسناً يا سيدي.

ارتدى معطفه واعتمر قبعته، كاد يتلف وتر الفيولونسيل. فكر، أيضاً، في الحبل الذي كان يطلق، من الخزانة، إشارة الطابق الأول. ما الفائدة؟ في كل الأحوال سوف يكتشفون الحقيقة إذا بدؤوا في تفتيش البيت. كانت الشمس فاترة تقريباً، كان للمدينة هذا الصباح، مظهر مرح جداً، لم يكن قد شرب، حاذر، جداً، من أن يشرب. بالكاد أحس بالرغبة في ذلك.

اجتاز ميدان السلاح موارباً، سار في شارع ريومور، وصل إلى البناء الذي كانت، فيه، مكاتب بيجاك. لم يكن بناءً إدارياً حقيقياً، بل كان بيتاً خاصاً، واسعاً جداً، جميلاً جداً حولوه، في تاريخ حديث جداً، إلى مكاتب. كانت، في الطابق الأرضي، مكاتب التأمينات الاجتماعية حيث كانت تعمل، على نحو خاص، فتيات.

صعد إلى الطابق الأول. كان هناك باب مفتوح. كان ثلاثة رجال يتحركون في جو دخان كثيف. لم تكن المدفأة تعمل، وكانت ترد كل الدخان

إلى الغرفة التي اقتضى الأمر فتح نوافذها المطلة على الباحة. كان بيجاك ينتظر جالساً على حافة المكتب مرتدياً معطفه وقبعته. قال:

- من؟ القبعاتي؟

- نهارك سعيد يا سيد بيجاك.

كان هناك باب آخر مفتوح يطل على حمام ترك مغطسه واكتفي بتركيب رفوف كانت مليئة بالملفات.

سعل السيد لابيه بسبب الدخان. كان بيجاك يسعل أيضاً، وكان مفتشاه يعالجان المدفأة.

- اعذرني على استقبالك بهذه الصورة. انقضت خمسة عشر يوماً على طلبي تنظيف المدفأة ولا أرى أحداً قد أتى. هل تريد أن نذهب إلى المنبسط؟

لم يكن ذلك مؤثراً، بل كان العكس.

- أية ريح طيبة ساقتك إلينا يا سيد لابيه؟

- أخشى أن تكون ريحاً سيئة يا سيدي المفوض. الحق هو أني لا أدري. ربما كنت على خطأ في قلقي.

كان واثقاً من نفسه إلى حد كاف لأن ينمق عباراته.

- يجب أن لا أكون أول من يزعجك عبثاً منذ الأحداث الأخيرة. لدي خادمة، ككل الناس، فتاة ريفية، من شارون بالضبط. أنت تعرف، دون شك، الحالة الصحية لزوجتي التي لا تريد، منذ سنوات، أن ترى أحداً وتعيش محبوسة في غرفتها. حتى الأوقات الأخيرة، وبسبب ذلك، كانت الخادمة تنام خارجاً، في غرفة استأجرتها لها في ساحة السوق.

كان بيجاك يصغي وهو ينظر إليه بانتباه، بل ببعض الإلحاح، لكنه كان ينظر إلى كل الناس على هذا النحو معتقداً أنه يعطي لنفسه، بذلك، مزيداً من الأهمية. كانت تسمع ثرثرة الموظفات الصغيرات، تحت، في مكاتب التأمينات الاجتماعية.

ذلك كله لم تَبدُ له هيئة جدّية.

- منذ هذه الجرائم التي أرعبت السكان طلبت مني هذه اللويز أن أسمح لها بالنوم في البيت كي لا يكون عليها الخروج بعد هبوط الليل. وعلى الرغم من نفور زوجتي، كنت مرغماً على الموافقة وإلا لكانت تركتنا.

- منذ كم من الوقت تنام في بيتكم؟

- منذ حوالي ثلاثة أسابيع. إذا كانت ذكرياتي مضبوطة، فقد كان ذلك بعد موت السيدة كوجا مباشرة.

- وهل تنام في الطابق نفسه معكم؟

- نعم، في الطابق الأول، في غرفة صغيرة تطل على الردهة. مساء أمس، في الساعة التاسعة تقريباً، لا أستطيع أن أكون دقيقاً لأني كنت مشغولاً بزوجتي، سمعتها تنزل. ظننت أنها نسيت شيئاً في المطبخ أو أنها كانت تحضر مشروباً ساخناً لها.

- هل كان هذا يتفق لها؟

- كلا، ولهذا انتهيت إلى الإحساس بالقلق. نزلت بدوري، ولم أجدها. لاحظت أن مزلاج المخزن كان مسحوباً، وهكذا علمت أنها خرجت لأني كنت قد أغلقت المزلاج قبل أن أصعد.

- ألم تعد؟

- كلا، لا في الليل، ولا في هذا الصباح. انتظرتها إلى وقت متأخر إلى حد كاف. واليوم، وجدت غرفتها كما كانت في الأمس. السرير بقي مرتباً.

- هل أخذت حوائجها؟

- لا أظن. رأيت حقيبتين وأثواباً في الخزانة.

- أكانت فتاة رصينة؟

- لم يكن لدي، أبداً، أي سبب للشكوى من سلوكها.

- أهي المرة الأولى التي تخرج، فيها، مساء؟

- منذ أن سكنت لدينا، نعم.

- سأرافقك.

دخل بيجاك إلى المكتب الذي كان لايزال رمادياً من الدخان وقال بضع كلمات لمفتشيه. ثم جعل السيد لابيه يتقدمه على الدرج. كان مهذباً، لكنه كان بارداً. في الطريق، وضع القبعاتي على يمينه دون قصد منه احتمالاً.

- هل تعرف أسرتها؟

- أعرف فقط أن أهلها مزارعون صغار من شارون. كانت تذهب لتراهم كل يوم أحد، تذهب صباحاً وتعود مساءً.

- في أية ساعة؟

- في الباص الذي يصل إلى ميدان السلاح في الساعة التاسعة، حوالي التاسعة وخمس دقائق، دائماً، كنت أسمعها تعود.

مر أمام مقهى الأعمدة حيث حياهما غبرييل الذي كان يفرك الزجاج بالطبشور.

توافقت خطواتهما. كان إحساساً طريفاً، بالنسبة للسيد لابيه، أن يجتاز المدينة هكذا في صحبة المفوض الخاص. كان في حاجة إلى أن يكون طبيعياً، إلى أن لا يتكلم كثيراً.

كان بيجاك هو الذي قال:

- ربما سنجدها قد عادت.

- هذا ممكن جداً. لم أكن لأزعجك لولا ما جرى هذه الأسابيع الأخيرة.

- حسناً فعلت.

هذا هو الأمر. كان ينبغي، خاصة، أن لا يقلق. كانت هناك تسعون فرصة من مائة في أن تستمر الأمور بهذه البساطة. ومع ذلك، عندما رأى السيد لابيه بيت كاشودا. من بعيد، خطرت له فكرة ضايقته.

لم يكن الخياط الصغير هناك ليراهما. لكنه كان يمكن، حقاً، لزوجته أن ترى الرجلين. هل استيقظت. لم يكن من شأنها أن ترتاح طويلاً. ليس هذا نوع هؤلاء الناس. يمكن لإستير، أيضاً، أن تتعرف على بيجاك الذي ظهرت صورته عدة مرات في الجريدة والذي يجب أن تكون قد رأته في مخازن السعر الموحد.

إن قال أحدهم لكاشودا:

- المفوض أتى على الدخول إلى بيت القبعاتي.

لم يكن ينبغي نسيان جائزة العشرين ألف فرنك. الخياط الصغير سيقلق على الرغم من حمّاه. من يدري ما إذا كان سيريد إحراز قصب السبق؟

- ادخل يا سيدي المفوض.

لفتهما الحرارة حالاً. كان السيد لابيه معتاداً عليها، وكذلك على الضوء الباهت الذي كان يسود البيت، وعلى الروائح. هل كانت الرائحة على درجة من الخصوصية كافية لأن تملأ خياشيم بيجاك؟

- مستخدمي فالانتان. لقد وصل في الساعة التاسعة، كالعادة، إنه لا يعرف شيئاً.

تقدم السيد بيجاك ويداه في جيبيه ولفافته ملتصقة بشفته السفلى.

- افترض أنك تريد زيارة غرفتها.

لم يقل الآخر لا ولا نعم، وصعد، وراء القبعاتي، السلم الحلزوني.

- هذه غرفة زوجتي التي لم تغادرها منذ خمسة عشرة سنة.

كان السيد لابيه يتكلم بصوت خافت، وقلده المفوض، كان ذلك مثيراً للفضول: كان يبدو مشمئزاً، كما كان من شأن السيد لابيه أن يبدو، مثلاً، لو شم روائح بيت كاشودا.

- من هنا.

اجتازا الممشى، وفتح السيد لابيه باب غرفة الخادمة.

- كان يمكن أن أجعلها تقيم في الطابق الثاني حيث توجد غرف كبيرة خالية، لكن لا مدخل له إلا من الخارج وهو ما لم يكن عملياً.

كان الآخر ينظر حوله متخذاً مظهر الأهمية، أخرج يده من جيبه ليفتح الخزانة. لم يكن قد خلع قبعته. مس، بلا مبالاة، ثوباً ورديا قانياً وتنورة من المخمل الأسود مهترئة إلى درجة كافية وقميصين أبيضين على علاقتين. كان

هناك، على الأرض، زوج من الأحذية المبرنقة، وعند طرف السرير، حذاء مشوه لا يصلح إلا للقمامة.

- على وجه الإجمال، لم تأخذ حوائجها.

- كما ترى.

ليته يفتح الدرج ويرى الصورة في علبة الصدف!

فعل ذلك.

- هل لمحت الفتى في هذه النواحي؟

تظاهر السيد لابيه بفحص الصورة باهتمام.

- اعترف لك بأني لا أتذكر. كلا.

- هل كنت تعلم أن لها عاشقاً؟

- كلا، كنت قليل الانشغال بها. كان لها طبع منغلق إلى حد كاف، أقرب إلى التذمر.

- سآخذ هذه الصورة.

دسها في محفظته، جرب المفتاح في الحقيبتين، لكنه لم يفتحهما. ربما كان مفتاح خزانة في شارون.

- أشكرك يا سيد لابيه.

نزل. في المخزن توقف قليلاً.

- ربما يجدر بي أن ألقي نظرة على المطبخ. هؤلاء الفتيات يدْسُسْن حوائجهن في كل مكان.

كانت قاعة الطعام، في هذه الساعة،أكثر إظلاماً من بقية البيت، وبدا المفوض مشمئزاً حقاً.

سأل وهو يدخل إلى الحجرة الصغيرة التي كانت تستخدم مطبخاً:

- أهو هنا؟

لم يجد شيئاً.

- هل أقدم لك كأساً! لدي نبيذ أبيض ممتاز في القبو.

- شكراً.

لم يدل بتعليقات. كان هذا نوعه، ولم يعلق السيد لابيه بدوره. كان هادئاً تماماً. طبيعياً كلياً.

- أفترض أنه ليس علي إخطار أسرتها. وأنكم ستتولون هذا الأمر.

- بالمناسبة، ما اسمها؟

- شابو، لويز شابو.

سجل اسمها في دفتره الذي أعاد إغلاقه بمطاطة، وأعاد تزرير معطفه قبل أن يخرج. لم يكن هناك من هو متأثر سوى فالانتان المسكين.عندما أعيد إغلاق الباب المزجج، نظر إلى المفوض يبتعد وسأل:

- هل يعتقد أنها خنقت؟

- لا يعرف أكثر مما نعرف نحن.

يوم غريب. كل شيء كان صافياً، خفيفاً، براقاً، ومع ذلك كان ينسحب ما يشبه سحابة خفيفة على الناس والأشياء.

- هل نادت السيدة؟

- كلا يا سيدي.

صعد، لم يلق نظرة واحدة على السرير الذي كان الجسد لا يزال تحته. ذهب إلى النافذة بالضبط في اللحظة التي وقفت فيها سيارة الدكتور الرمادية عند حافة الرصيف. السيدة كاشودا التي سمعتها أسرعت على السلم. كانت استير تهز أخاها الصغير الذي يبكي، مشيرةً بإلحاح، نحو طرف الشقة، مكررة له، دون شك، أنه يجب أن لا يحدث ضجة من أجل أبيهما.

كانت الزيارة طويلة. وضع ماء للغلي في المطبخ، من أجل حقنة احتمالاً. كانت السيدة كاشودا تبكي فيما كان الطبيب العائد من الغرفة يتحدث إليها، ومسحت عينيها بمنديلها عدة مرات.

لمح القبعاتي، على الطاولة، الصفحات التي كان قد كتبها مساء الأمس وأمسك بها ومزقها وتوجه نحو المدفأة كي يحرقها.

كان فالانتان الذي كان يسكن مع أمه، بعيداً عن المدينة معتاداً على جلب طعامه في علبة حديدية. كان يسخن قهوته في إبريق صغير على مدفأة الغاز الموجودة في المحل، ويأكل وحده في الدكان الخلفية. وهو يقرأ مجلة رياضية في أغلب الأحيان.

تردد السيد لابيه في تحضير غدائه لنفسه وقرر أخيراً أن يرتدي معطفه وقبعته.

- سأكون هنا بعد ثلاثة أرباع الساعة.

توجه نحو ساحة السوق التي يوجد فيها، عدة مطاعم صغيرة. اختار واحداً ينزل إليه بدرجة وكانت تقوم بالخدمة، فيه، فتاة طويلة سمراء بمريولة بيضاء، كانت تعرف كل زبائنها. كان هناك، من بين آخرين، موظفان أو ثلاثة من البلدية والبريد وموظف لدى الكاتب بالعدل وعانس كانت تعمل في وكالة سفريات.

اختار طاولة بعناية، لا ليوم واحد، بل كما لو كان ينوي أن يصبح زبوناً منتظماً. كانت قائمة الطعام مكتوبة على لوح، وكانت هناك خزانة لمناشف الزبائن المعتادين.

في الواقع، كانت تلك هي المرة الأولى منذ خمس عشرة سنة، التي كان يأكل فيها في المطعم. نظر إليه صاحب المطعم بدهشة ووافاه إلى طاولته.

- أية مصادفة أن أراك هنا يا سيدي القبعاتي.

ربما كان قد نسي اسمه، لكنه كان يعلم أنه قبعاتي شارع ميناج.

- أنا دون خادمة اليوم.

نادى صاحب المطعم ملتفتاً نحو النادلة:

- هنرييت!

وأضاف قائلاً:

- لدينا أضلاع عجل وطبق إضافي من حلزون بورغونيا

- سآخذ حلزونات.

كان إحساساً لطيفاً. شعر كما لو كان معلقاً في الهواْء. كان فيه شيء هوائي، شيء طافٍ. لم يكن الناس والأصوات والأشياء تبدو له واقعية جداً.

- زجاجة بوجوليه؟

- من فضلك.

- زجاجة يا هنرييت.

كان لذيذاً، بل لذيذاً جداً. لم يكن لما تطهيه لويز طعم. كاد يأخذ دزينة أخرى من الحلزون، ولم يفطن، إلا وهو يتناول الجبن، إلى أنه كان يفترض في ماتيلد أن تأكل أيضاً.

- قولي لي ياهنرييت.

كان الجميع ينادون النادلة باسمها الأول

- أود أن آخذ معي غداء لزوجتي، هل لديكم وعاء ما؟

- سوف أرى.

تحدثت إلى صاحب المطعم. اختفى هذا الأخير وعاد بطنجرتين صغيرتين مطليتين لهما قبضة.

- هل ينفع هذا؟

كانت الشمس تلعب على طاولته. لم تكن توضع أغطية على الطاولة، بشكل أدق كانت الأغطية من ورق عسلي اللون يتم تغييره مع كل زبون. كانت هناك سلة في زاوية كان يلقى بها فيها.

- هل أضع لها حلزوناً؟

لم لا؟ سيأكلها. اجتاز الطريق الذي يفصله عن بيته حاملاً الوعائين من القبضة. كان ذلك شيئاً مسلياً.

- هل نادت السيدة؟

- كلا يا سيدي.

صعد، ألقى بالضلع والخبز والبطاطا المقلية، لكنه أكل الحلزونات دون أن يفكر، لحظة، في أن لويز لا تزال هناك. وفضلاً عن ذلك، كان يفضل أن لا يفكر فيها بسبب العمل الذي ينتظره في ذلك المساء.

في مخزن كاشودا، كانت زوجة الخياط تشرح الموقف لزبون بحركات حزينة. بدا الزبون مزعوجاً. يجب أن يكون قد وعد بتسليمه بزته اليوم، والبزة لم تكن جاهزة ربما كانت تلك التي تُشاهَد على طاولة الخياط دون أكمام ولا بطانة.

نعس السيد لابيه، لكنه لم ينم. فكر كثيراً في كاشودا وهو يعمل على قبعاته. كان يفتقد جاره. لماذا كان لديه، حياله، ما يشبه الشعور بظلم؟ ظلم كان هو، السيد لابيه، يقترفه. كان يود أن يذهب لرؤيته.

كان يبدو له أنه يستطيع طمأنته، التشديد من عزمه. بل كانت هناك فكرة في ذهنه، وهذه الفكرة كانت تتزايد تجسداً. كان لكاشودا،إجمالاً، الحق في جائزة العشرين ألف فرنك. كان مريضاً جداً، ولا بدّ أنه في عسر. ماذا ستفعل أسرته إذا مات؟ ستكون زوجته مرغمة على الخدمة في البيوت. والصبي ذو السنوات الأربع؟ والبنتان اللتان كانتا تعودان من المدرسة في الساعة الرابعة؟ كان لدى السيد لابيه مال. كان يستطيع، دون أن يضايقه ذلك، أن يسحب عشرين ألف فرنك من مصرفه أو أن يستخدم الأوراق المالية في المحفظة القديمة: التحرك لإعطائها كان أصعب. هل كان ذلك مستحيلاً؟ لو ذهب إلى الجهة المقابلة، فإنه يحتمل أن يدعوهما وحدهما. سيدس ببساطة، الأوراق في يد الخياط الصغير.

سيكون هذا شيئاً رائعاً. كان الوقت قد فات على الذهاب إلى المصرف. سيفعل ذلك غداً صباحاً. لديه حتى ذلك الحين، الوقت للتفكير.

توقفت شاحنة قديمة تجاه مخزن القبعات. بقي سائقها والذي يرتدي ملابس حدَّاد قروية وراء المقود، في حين نزل رجل أصهب الشاربين وكثهما، متقد النظرات، فتي المظهر. دفع الباب. تقدم منه فالانتان. وعندما اقترب السيد لابيه قال:

- أنا والد لويز.

لا بدّ أنه لم يتجاوز الأربعين بكثير. كان قد شرب في منزله، أو على الطريق، لأن نفسه كان يحمل رائحة الخمر.

- هكذا، إذن، يبدو أنها رحلت؟

كانت الشرطة قد ذهبت، فعلاً، إلى شارون. الرجل أتى إلى المدينة في سيارة أحد الجيران.

- هل احتفظت بحوائجها؟

- بقيت في غرفتها.

- حسناً، حسناً، جئت لآخذها.

لم يكن قد نزع عمرته عن رأسه. اتفق له أن بصق على الأرض نافورة من اللعاب الأصفر لأنه كان يمضغ تبغاً: كان يبدو أنه جاء بنوايا عدائية، لكن هدوء البيت أثر فيه.

- أهنا، إذن، كانت تمضي الأسبوع؟ ورحلت،هكذا، دون أن تقول شيئاً؟

كرر السيد لابيه وهو يقود زائره في الدرج:

- دون أن تقول شيئاً.

- هل صحيح أنه كان لها عاشق؟

وبما أن صوته أصبح مهدداً، اكتفى السيد لابيه بأن يجيب قائلاً:

- لم تحدثني عنه قط، لم أره!

- أزوجتك هي المريضة؟

- نعم، إنها زوجتي. أطلب منك أن لا تتحدث بصوت مرتفع لأنها وراء هذا الباب.

لم يقع شيء. الرجل كوم حوائج لويز في الحقيبتين، وكان القبعاتي هو الذي سلمه علبة القواقع التي كانت في الدرج. تعمد الفلاح أن يمشي متثاقلاً. ربما كان قد أعلن، وهويغادر شارون، إنهم سيرون ماذا سيحدث.

- هل تعتقد أن الخناق أمسك بها؟

- لا أدري، لم أسمع شيئاً.

على الرغم منه، مشى على رؤوس أصابعه وهو يمر أمام باب غرفة ماتيلد، وكاد أن يقع على الدرج الحلزوني الذي كان غداراً بالنسبة لمن لم يعتد عليه.

- على كل حال، إذا وجدوها فلا تعتمد عليها بعد الآن. هذه آخر مرة أدع، فيها، إحدى بناتي تعمل في المدينة.

لم يقل وداعاً واكتفى بملامسة عمرته بصورة أرادها وقحة ولم تكن إلا خرقاء.

صدم إطار الباب بالحقيبتين، وضعهما في الشاحنة وركب إلى جانب السائق. لم يعد الرجلان، حالاً، إلى شارون لأن الشاحنة توقفت، بالضبط، في زاوية الشارع، تجاه خمارة. كانت تلك ساعة إشعال المصابيح، ساعة الصعود إلى ماتيلد لرؤية ما إذا كانت تحتاج إلى شيء وإسدال الستار.

الصغيرتان، في البيت المواجه، عادتا من المدرسة منذ قليل، وكانتا تذكّران في كل لحظة، بأنهما يجب أن تتكلما بصوت منخفض. إحداهما كانت تكتب وظائفها ودفترها موضوع على طاولة الخياط التي حررت جزئياً.

- أرجو يا فالانتان، أن تتلطف بإغلاق المخزن.

البيت سيبقى خالياً وأحدث ذلك فيه أثراً غريباً، خاف قليلاً كما لو أن شيئاً كان يمكن أن يحدث فيه، في غيابه. لم يعد لديه سبب ملح لأن يعود في هذه الساعة، لا في تلك. سيذهب للعشاء في المطعم الصغير الذي تغدى فيه.

كان يستطيع، لو أراد، أن يذهب إلى السينما، ولكن ذلك لم يكن يتّصف بالحذر.

فضلاً عن ذلك، كانت لديه رغبة في أن يكتب من جديد، ولكن ليس بلهجة الأمس. كان أقل قلقاً، وعلى صفاء ذهن مختلف، وعندما دخل إلى مقهى الأعمدة وألقى عليه صديقه بول نظرة متسائلة، أحس بما يغريه بالابتسام.

لم يبتسم بالتأكيد. كان يجب أن يتخذ مظهر الظرف لأن الخبر عرف من قبل. جلس دون أن يقول شيئاً، مستعداً للعلب، رأى، حالاً، أن بيجاك كان على طاولة الأعمار بين الأربعين والخمسين، ونهض للذهاب كي يتحدث إليه، سأله:

- هل عثرتم عليها؟

- لا شيء بعد...

- ألا تعتقد أن.....

كان بيجاك يلعب الورق ويجيبه دون انتباه. شعر القبعاتي بأنه أقل ارتياحاً بقليل. لم يكن ذلك بسبب المفوض الذي يكاد أن لا يكون مهذباً، - كان ذلك، من جانبه، تصنعاً - بل لأنها كانت الساعة السيئة.

كان ذلك يحدث، دائماً، عند حلول الليل، مع الفوانيس التي تشعل في الشوارع والخطوات التي تسمع على بلاط الشارع قبل رؤية ظل على الرصيف بكثير.

كانت، في شارعه، واجهة سيئة الإنارة، ضؤوها أزرق مخضر، كانت رؤيتها تسبب له انزعاجاً أصم دائماً. كان ذلك صعب التحليل، كان دبقاً، هل كانت هذه الكلمة تعني شيئاً؟ كانت تباع، في هذه الدكان، أحذية، وكان لديه انطباع بأن الناس لم يكونوا يتكلمون، بأنهم كانوا يحركون شفافهم دون صوت، كأسماك في حوض.

كل المدينة كانت، في هذه الساعة، هكذا، علبة أعيد إغلاق غطائها. الناس الذين لم يكونوا أكبر من نمل كانوا يتحركون بلا طائل.

كان الأمر مقلقاً حتى في ضوء مقهى الأعمدة. عندما يحدق في مصابيح السقف التي ذهب طلاؤها - كان هناك خمسة منها - كان ينتهي إلى أن يصاب بالدوار.

كان ذلك، إلى حد ما، كما لو أن الزمن قد توقف، كأن كل شيء قد توقف. الحركات، الأصوات، الضجات، كل ذلك لم يعد يعني شيئاً، مات. كان استمرار الأشياء راجعاً إلى القوة المكتسبة، ولكنها كانت تدور بلا طائل.

هذا ما سيحاول تفسيره بدلاً من الجمل المشوشة التي كتبها أمس.

اليوم لن يدع نفسه عرضة للإغراء. كان هادئاً. وعد نفسه بأن يكون هادئاً، بأن يلعب اللعبة حتى نهايتها، كما لو كان ذلك حقيقياً.

لم يعد يستثير أعصابه أو يقلقه أن يرى شنترو، الطبيب الملتحي، يراقبه خلسة. لماذا كان يتفق له أن يحدق في يديه؟ لم تكونا ترتعشان. كانت له يدان جميلتان، بيضاوان، ناعمتان، بأصابع مربعة وأظافر معتنى بها. قيل ذلك دائماً. وقالته ماتيلد نفسها في البداية.

قال كابيه الذي كان يخلط الورق:

- يجب أن يكون قد ألقى بها في القناة.

سوف يفتشون فيها، إلا أنه من المحتمل أن يكون المد قد حملها إلى البحر.

تمتم شنترو الذي لم يكن يبدو على ما يرام.

- سيدهشني ذلك.

- ما الذي سيدهشك؟

- القناة. هذا لا يبدو ملائماً. هؤلاء الناس لا يغيرون تقنيتهم إلا......

وصمت. ألح كابيه قائلاً:

- إلا ماذا؟

- يصعب شرح ذلك. إلا إذا كانت سلسلة أخرى، إلا إذا لم يعد لذلك المعنى نفسه.

- أي معنى؟

- لا أدري. دور من في اللعب؟

تجنب، وهو يتحدث على هذا النحو أن ينظر إلى القبعاتي، واحمر هذا الأخير قليلاً لأنه كان يحس بأن شنترو كان يرتاب فيه.

لماذا؟ هل ارتكب خطأ؟ أكان ذلك مرئياً؟ هل كان يجب الاعتقاد بأن طبيب بوردو النفسي كان مصيباً؟

كان جانتيه، من جديد، في مكانه، قرب الزجاج. كان يكتب بشكل محموم، وكانت خصلة من شعره الطويل، على طريقة الفنانين، تقع على وجهه.

من العطر، عرف السيد لابيه أن الآنسة بيرت قد دخلت وجلست على طاولتها المعتادة. بذل جهده في أن لا ينظر جهتها.

لم يكن لديها ما تخشاه: كان سيد نفسه. لم يكن قد أتى بوتر الفيولونسيل، ما جرى مع لويز لم تكن له أهمية كان قد كرهها دائماً. لم يعد يستطيع، في النهاية، أن يتحمل وجودها. أما ما جرى بعد ذلك، فإنه يكاد أن لا يتذكره.

- اثنان ديناري.

- منذ البداية؟

- قلت اثنان ديناري.

كل شيء كان يتغير باعتباره سيتناول وجباته خارجاً. لم يكن ينوي استخدام خادمة جديدة. ستكفيه امرأة تتولى تنظيف البيت وترتيبه، وليس كل يوم أيضاً، أو لمدة ساعتين يومياً، مثلاً. ولولا كلام الناس لفضل أن يستغني عنها.

كان جوليان لامبير يزعجه بتوجيه ابتسامات مسموعة إلى الآنسة بيرت. هل ذهب إليها بعد ظهر هذا اليوم؟ هذا محتمل لأن هندامه كان أفضل من المعتاد وكان قد مرّ على الحلاق. كانت رائحة كولونيا خفيفة تنبعث منه.

بعد ثلاثة أرباع الساعة، لم يكن القبعاتي قد أفرغ كأسه الأولى وكان هذا يسرّه، يمنحه الثقة.

كانوا قد انتهوا، جميعهم، مع الصحف، إلى التأثير فيه. تغير الوضع: لم يكن هناك أي سبب كي يستمر الأمر. كان يكفيه، أن يكون حذراً، مع نفسه أكثر منه مع الآخرين.

لماذا كان شنترو ينظر إليه نظرات غريبة في الوقت الذي كان فيه، على وجه الضبط، طبيعياً تماماً، بل ومنطلقاً؟ وقع حادث أغرب، أكثر إثارةً للحيرة. في برهة ما، أخطأ الدكتور ووضع على الطاولة ورقة سباتيه بدلاً من ورقة البستوني الذي كان ورق الكرنيب، في حين كانت، في يده، ورقتان بستونيتان. احتد أرنو الذي كان دون رأفة لدى أخطاء الآخرين:

- ماذا بك؟ بأي شيء كنت تفكر؟

عند ذلك، تمتم شنترو كما لو كانوا ينتزعونه من حلم عميق:

- المسكين.

يجب أن يكون قد شرب كثيراً في هذا اليوم، لأنه كان عاطفياً.

- أي مسكين؟

رفع شنترو كتفيه وزمجر قائلاً:

- أنتم تعرفونه جيداً.

- الخناق؟

- لم لا؟

- أترثي له؟

لم يرد، قطب حاجبيه واستعاد ورقته من على الطاولة وألقى ببنت بستونيه. للمرة الثانية في هذا اليوم نفسه، وبسبب الدكتور في المرتين، أحس السيد لابيه بوجهه يحمر، ومن أجل تماسكه، أشار إلى غبرييل ليملأ كأسه.

(٩)

حين كان يتجه نحو باب المقهى، طويلاً متراخياً وبطيئاً، توقف لحظة أمام الطاولة الأخيرة ونظر، بوقار،من فوق إلى تحت إلى الفتى الذي كان لايزال يكتب والذي رفع رأسه عندما رأى ظلاً فوق ورقته. كان هو أكثر من آذاه بفكرته عن الذهاب لإجراء مقابلة مع طبيب بوردو النفسي وتعنته، منذ ذلك الحين، كل يوم تقريباً، في العودة إلى التشخيص ليعلق عليه، ليفسر أحداث الأمس ويتوقع أحداث الغد.

لم يتعمد جانتيه ذلك. كان طفلاً. لم يكن شريراً. لم يكن السيد لابيه يحقد عليه. هل سيجلس، بعد أربعين سنة، بدوره، على طاولة ما بين الأعمدة، قرب المدفأة؟

لم يتبادلا كلمة. لم يكن لدى أحدهما ما يقوله للآخر. كانت هذه السنوات الأربعون، بالضبط، هي التي كانت بينهما، ربما لم يكن بينهما شيء آخر، وربما كانت بينهما أكداس من أشياء أخرى. تنهد القبعاتي تنهيدة خفيفة ومد يده نحو مقبض الباب. رفع جانتيه كتفيه وقطب حاجبيه محاولاً أن يستعيد تسلسل جملتِهِ

كان المراسل قد بدأ، وهاهو، الآن، صديقه بول يتدخل بدوره. هل تعمد أن يتكلم كما فعل؟ هل كانت أقواله التي بدا أنه يتلفظ بها دون أن يعلق عليها أهمية، في الحقيقة، رسالة؟

كان السيد لابيه يكاد أن لا يحس بالبرد. كان هناك من الرطوبة في الجو ما يزيد قليلاً عن الأمسيات السابقة، كان هذا يرى من الأضواء، من الفوانيس، التي كانت عيونها كما لو أنها مقنعة.

كانت كلمتا شنترو المخيفتان تلاحقانه، كانتا على كتفيه كحجرين ثقيلين لم يكن يتوصل إلى الخلاص منهما، ومع ذلك، كانتا كلمتين بريئتين في الظاهر.

- المسكين!

جانتيه، أيضاً، كان فتىً بريئاً ووجه إليه أقسى ضربة ممكنة.

لم يكن يحقد على هذا ولا على ذاك. لم يكن يحقد على أحد. كان يسير على الرصيف الأيمن لشارع ميناج، لأنه لم يكن عائداً إلى بيته، كان يجب أن يذهب للعشاء، في ساحة السوق، في المطعم نفسه الذي كان، فيه، ظهراً.

ولكن، هاهو ما كان يشبه ثقباً مضيئاً على الرصيف، على مسافة كافية، وهاهو القبعاتي يحس بمزيد من القلق كلما اقترب منه.

كان باب دكان الخياط مفتوحاً وكان يستطيع، الآن، أن يميز ظلين خارجاً، تعرف على الاسباني الذي كان يملك دكان فواكه على مسافة بيتين وزوجته احتمالاً.

عندما أصبح قريباً جداً، سمع صوتاً يشبه نباح كلب يبكي في ضوء القمر، توقف عند قطعة النور، نظر إلى الداخل ورأى السيدة كاشودا منهارة على كرسي في وسط المخزن كانت هي التي كانت تصرخ بهذا الشكل وهي تحدق أمامها، في حين كانت زوجة اللحام تمسك بكتفيها وتحاول تهدئتها.

في أسفل السلم، كانت استير ترتعش وعلى كتفيها شال لأن الدكان لم تكن مدفأة. لم تكن تبكي، لم تكن تقول شيئاً. لم يكن ممكناً قراءة شيء سوى نوع من الرعب البهيمي في نظرتها.

خرج أناس آخرون من المنازل المجاورة،وكانوا عديدين حول السيد لابيه، جامدين، متأثرين. نزلت امرأة لم يعرفها، وبين ذراعيها الطفل، وكانت تعاني مشقة في حمله أعلنت وهي تمر:

- أنا آخذه.

أفسحوا لها المجال، دخلت بيتاً يبعد بضعة أبواب. ماذا فعلوا بالبنتين؟ هل أخذوهما أيضاً؟ من بقي فوق؟ كان للعويل تأثير صفارة المرفأ في ليالي الضباب.

لم ينقض على ذلك وقت طويل لأنه سمع صوت محرك، توقفت سيارة عند طرف الرصيف، اجتاز الدكتور المجموعة مستعجلاً، نظر لحظة إلى السيدة كاشودا، وعاد على أعقابه ليغلق الباب.

كان هذا كل شيء. مات كاشودا. عندما أغلق الباب، بدأ الناس يتكلمون بلهجة الانتحاب، وابتعد القبعاتي يساوره الشعور نفسه بالظلم الذي ضغط على صدره، منذ قليل، عندما تمتم صديقه بول:

- يا للشخص المسكين!

لم يعد جائعاً. كان يمكنه أن يعود إلى بيته حالاً. التفت لينظر إلى بيته، القبعة العالية الأطراف الهائلة التي كانت تسيطر على الواجهة، إلى النافذة المضاءة في الطابق الأول، مع خيال جامد يبرز عبر الساتر المعدني.

هذه اللحظة هي التي تولد لديه حدس بأنه لن يضع فيه قدميه بأنه لن يراه ثانيةً دون شك، أبداً. لم يقبل بذلك في الظاهر، كان هو نفسه في كل الأيام، الشخص الذي كانه في المقهى منذ قليل. لم يحدث شيء أمكن أن يمسه شخصياً.

مع ذلك، كان لديه، هذه الليلة، عمل كثير في بيته. لم ينس شيئاً كان يعرف المهمة المقيتة التي كانت تنتظره تحت سرير ماتيلد. سوف ينبغي أن ينزل إلى القبو، أن يحرك، مرة أخرى، كومة الفحم، أن يحفر ثم، خاصة، أن ينزل الجسد الثقيل الضخم، يعيد غسل الدرجات، يعيد غسل كل المنزل تقريباً. لم يفسر شنترو أقواله،ولكنه كان يحزر ما يعنيه.

- أهلاً! بالسيد القبعاتي. أراهن على أنك نسيت إحضار الوعائين. لدينا هذا المساء نقانق جيدة مع هريس البطاطا.

ابتسم بأدب. ذهب ليجلس في مكانه. خدمته الفتاة. كان الناس أقل مما كانوا عليه ظهراً. القاعة كانت شبه خالية. كان يعتبر، منذ الآن، زبوناً ويتم تناول منشفته من أحد الأدراج، كما يفعل بوابو الفنادق مع مفاتيح الزبائن.

كان قد أعلن في الجريدة أن كل شيء سينتهي مع السابعة مؤكداً، بصدق، إن السابعة، كالأخريات، كانت ضرورية. إلا أن السابعة لم تكن الحقيقية. كان حادثاً. كانت من مجال آخر، من سلسلة أخرى.

إلا أن أحداً غيره لم يفكر في ذلك. هل فكر، فيه، المفوض بيجاك؟ جانتيه، على كل حال، سيفكر، فيه، عاجلاً أم آجلاً.

سوف ينطلق، إذن، من فكرة كون موت لويز ضرورياً للقاتل، «لا غنى عنه» كما كتب القبعاتي.

ما الاستنتاجات التي سوف يستخلصها؟ لم يكن يهتم، في الحقيقة،كثيراً، بما كان الآخرون يفكرون فيه. كان المهم مايفكر، فيه، هو، لابيه.

لم يلاحظ الطريق بسبب ما كان يجري في بيت كاشودا. كان عليه أن يفعل. ربما كان بيجاك قد وضع مفتشاً في محيط مخزن القبعات. ربما كان هناك من يتبعه. لم يكن ذلك شيء غير محتمل وكان، وهو يأكل، يحاول أن يرى عبر زجاج المطعم الصغير.

كان غريباً كم كان تعباً فجأة. كان كئيباً، تلك كانت الكلمة. كانت له الهيئة العاطفية نفسها التي كانت لشنترو في نهاية اليوم، عندما شرب كثيراً.

كان يفكر في بيته ويحس بالمرارة لدى التفكير في أنه لا يجرؤ على دخوله، في أنه ربما لن يدخله أبداً. لماذا؟ ما فعله مرة، كان قادراً على أن يفعله أيضاً. هل كان ذلك لأن لويز أوحت له، دائماً، بنفور لم يكن يمكن تجاوزه؟ أم بسبب كاشودا؟

كان يرغب بالاستغفار، ليس من الخادمة، بل من الخياط. كان نادماً لأنه لم يمر بالمصرف بعد الظهر. لو كانت هناك أوراق نقدية في جيبه لوضعها في مظروف وأرسلها حالاً إلى الأسرة. لو عاد إلى بيته لأرسل مال المحفظة، لكن لم يكن يصدق ذلك.

كان صاحب المطعم بلا مشاكل، ولا أشباح. كان يعبئ خمراً في زجاجات. ذكره ذلك بأنه كان يمكن أن يشرب، أنه سبق أن فعل وأن ذلك هدأه برهة.

كل ذلك كان بعيداً. كانت الأمور تمضي بسرعة. كان فزعاً من السرعة التي راحت الأمور تسير بها، نادى النادلة، ودفع حسابه. رأى منشفته تصف في الدرج وجعل هذا قلبه ينقبض دون سبب. أعطاها إكرامية كبيرة وشكرته بدهشة.

- ألن تأخذ شيئاً لزوجتك؟

- ليست جائعة هذا المساء.

- إلى الغد أيها السيد القبعاتي.

- إلى الغد.

كما في المساءات الأخرى، كانت دوريات تجوب المدينة. صادف واحدة منها وهو خارج من المطعم وحيوه. التفت ليرد التحية بدوره لأنه كان مشتت الانتباه، ورأى أنهم كانوا يلتفتون إليه. لماذا؟ هل كان هناك شيء غريب في مظهره أو مشيته؟

حاول أن يرى إذا كان متبوعاً، مشى نحو دار البلدية متحفز الحواس، لكنه لم يميز أي صوت خطوات قريباً منه. مر أمام دكان السيدة كوجا الذي كان، في هذه الساعة، مغلقاً.

لم يكن يعرف، بعد، إلى أين هو ذاهب. كان مدركاً، تماماً، لوجود احتمالات في أن يلتقي دوريات أخرى، أن يندهش أناس معتادون على توقيته من رؤيته في الساعة التي يفترض أن يكون، فيها، في غرفة ماتيلد.

قبل هذه المجازفة، كان يزدريها بعبارة أصح. كانت لديه، في رأسه، هموم أخرى، هم آخر، وحيد، وعندما انعطف يساراً، لدى وصوله إلى رصيف الميناء، فهم ما قرر أن يفعله.

كان الدكتور يسكن بيتاً صغيراً في حي المحطة، وراء القناة. كان بيتاً ضيقاً، ليس قديماً ولا حديثاً، قبيحاً جداً، محصوراً بين بيتين مشابهين له تقريباً.

اتفق للسيد لابيه أن يذهب لرؤية صديقه بول، مساءً، من أجل استشارة، لأنه كان دائماً قلقاً على صحته. كان هناك حاجز في زاوية من المكتب، وهو يتذكر أنه التصق عاري الجذع، وراء اللوح الجليدي بينما كان شنترو يطفئ المصابيح.

- لا شيء يا صديقي، لديك جسم يعيش مائة سنة.

بعد ذلك، راحا يشربان كأساً، كأسين وهما يثرثران، وكان بول يرفض، بالطبع، أن يدعه يدفع أجرة الاستشارة.

سيقول له أي شيء، إنه متألم من نقاط في جنبه، مثلاً وهو ما كان، منذ بضعة أيام، صحيحاً تقريباً. ربما حدثه عن هذه الأنواع من الهلع التي كانت تستولي، أحياناً، على أعصابه، لكن ذلك كان أشد خطراً.

سيصلان، بصورة طبيعية، إلى ذكر الأحداث الراهنة، الرجل الذي كانوا يبحثون عنه.

- لماذا وصفته بأنه «شخص مسكين»؟

كان ذلك لعباً بالنار. شنترو كان ذكياً إلى درجة كافية لأن يخمن. ألم يخمن فعلاً؟ ولن يجرؤ على أن يقول شيئاً. كان السيد لابيه مقتنعاً بأن صديقه لن يجرؤ على قول شيء.

إذا كان قد تحدث عن شخص مسكين. فذلك لأنه كان، في حالته، شيء قاتل، وهذا ما كان يريد التأكد منه. أليس ذلك، أيضاً، ما يتبين من المقابلة التي أجراها جانتيه؟ لم يكن يتوصل إلى التخلص من هذه الفكرة. في الأيام الماضية، رافقته كألم أصم لا ينتبه إليه المرء، في بعض الأحيان، لكنه يعود، من وقت إلى آخر، لاذعاً.

عند رصيف دوبيريه، حين كان الخياط لا يزال حياً وكان يتبعه، فهم، فجأة، أنه ربما كان طبيب بوردو النفسي على صواب.

في الظلام، كان مركب صيد على أهبة تشغيل المحرك، مع مصباح ضخم من الأسيتيلين على الجسر، خيالات تتحرك، وأشياء ثقيلة تُحمل. كان

وراءه مقهيان، قرب الساعة الضخمة. كانا مقهيين من نوع مقهى الأعمدة مع زبائن كانوا يأتون في ساعات ثابتة ويلعبون بالورق أو النرد أو بالشطرنج. إلا أنهم لم يكونوا المجموعتين ذاتهما. كانوا ينتمون إلى الواحدة أو إلى الأخرى كان، هو، جزءاً من مقهى الأعمدة.

في المحطة، كان محرك قطار يشتغل، لم تكن الردهة مضاءة إلا جزئياً. مرت سيارات أجرة في الشارع. كان يمكن رؤيته وربما التعرف إليه على ضوء الكشافات.

انعطف يساراً، ثم يميناً في شارع الدكتور، شارع أناس بسطاء. كان بيت الزاوية مسكوناً من صانع براميل، وكانت براميل تعيق السير على الرصيف.

لم ير نوراً لدى شنترو، نظر، وهو ينحني، من القفل ولمح باب المطبخ المزجج في آخر الممشى، وكان مضاء.

قرع الجرس وهو مدرك جيداً لعدم جدوى خطوته. كان، وراء الباب، جرس صغير معلق على سلك حديدي. لم يكن يمكن عدم سماعه بسبب الصمت الذي يسود المنزل، ومع ذلك لم يتحرك أحد.

كانت الساعة الثامنة مساء. قرع الجرس من جديد، رأى ظلاً يرتسم على زجاج المطبخ وعرف أنها أوجيني، خادمة الدكتور العجوز.

لم يكن هذا الأخير قد عاد وإلا لكان هناك نور في الطابق الأول أو في مكتبه في الطابق الأرضي. كان يجب أن يتوقع السيد لابيه ذلك. منذ قليل، في مقهى الأعمدة، كان بول، عندما غادره، قد شرب كثيراً. في هذه الحالات، لم يكن يعود للعشاء. وبسبب نوع من الشعور بالكرامة، كان يغادر مقهى ميدان السلاح ويأخذ في دخول الخمارات الصغيرة التي لا يخشى أن يصادف فيها أصدقاء.

عادت أوجيني إلى الجلوس. لم تأت لتفتح. لن تفتح. كانت خائفة هي أيضاً. لا شك في أنها كانت ترتعش. لو ألح، فإنها يمكن أن تلجأ إلى الشرطة هاتفياً. فتحت نافذة في البيت المجاور. كان أحدهم ينظر إليه. فضل أن

يذهب، وكانت تلك من أشد لحظات حياته مشقة. حتى بول تخلى عنه. خطرت له فكرة أن يسرع إلى المحطة. ما زال لديه الوقت للقيام بذلك. كان يسمع لهاث القاطرة. كان ذلك قطار باريس الذي سيرحل بعد بضع دقائق. كان معه ما يكفي من المال ليشتري بطاقة.

وبعد؟ ما الفائدة؟

كاشودا مات وربما كانت هذه الميتة الوحيدة التي يحس حيالها، بالذنب.

لم يكن التفكير في لويز يوحي إليه إلا بالقرف. ذكرى ماتيلد والأخريات كانت تدعه هادئاً، تعطيه فقط، الرغبة في المناقشة الهادئة ليثبت أنه كان على حق، أنه اكتفى بفعل ما كان عليه أن يفعله.

لماذا لم يذهب إلى المصرف؟ أو لماذا لم يحمل معه مال المحفظة؟

في برهة اجتياز القناة، سمع وقع خطوات دورية، ودون أن يفكر، استدار. تبين، حالاً، أن تلك كانت غلطة، لكن الوقت قد فات. لو استأنف اتجاهه الأول لتساءلوا عما كان يفعل.

حث أفراد الدورية خطاهم. حاولوا. دون نجاح، أن يصلوا إليه بضوء مصباح كهربائي. ارتمى في زقاق صغير، كاد يركض، مشى بمزيد من السرعة، وكان لايزال يسمع الخطوات، بل سمع صوتاً يقول:

- من أين يمكن أن يكون قد هرب؟

تَلَطّى في إطار باب مظلم. كان يعلم أن ذلك سخيف، لكنه لم يكن يستطيع شيئاً حياله. خدمه الحظ، مر الرجال الأربعة على مسافة حوالي عشرين متراً بعيداً عنه دون أن يرتابوا في مخبئه. وبعد عشر دقائق، كان يستطيع أن يستأنف دربه.

كانوا جميعاً ضده، بمن فيهم جانتيه، بمن فيهم بول شنترو، جعلوا من المدينة نوعاً من فخ بدأ في التخبط فيه.

كان متعباً حقاً. لم يكن، تقريباً قد نام في الليلة السابقة. لم يكن يستطيع أن يعود إلى بيته.

كان قد دار حول شارع المخلص الأقدس، وخلال لحظة، خيل إليه أنه ملاحَق.

من يعلم ما إذا كان المفوض بيجاك خلال تلك الساعة، قد خلع باب مخزن القبعات؟ أول ما ستفعله الشرطة هو الصعود إلى الطابق الأول ودخول غرفته.

لو كان شنترو في بيته لكانت أمامه فرصة لاستعادة هدوئه. كان يلزمه القليل. ربما كان، لولا موت كاشودا، قد عاد إلى شارع ميناج على الرغم من كل شيء.

ساعتان سيئتان يجب أن يمضيهما، ومتى أصبحت لويز في القبو، كل شيء سينتهي.

خاصة لو لم يتحدث شنترو، منذ قليل، خلال اللعب، عن شخص مسكين. ألم تكن هذه الكلمة تتضمن أنه لم تكن هناك نهاية ممكنة؟

لن يكن يحقد عليهم، لا على كاشودا، ولا على الدكتور، ولا على المفوض الذي بدى مهذباً، إنما بارداً، ولا حتى على لويز.

كانوا يؤذونه كثيراً. كانوا يطاردونه كحيوان. إنما لم يدعوا له سريراً ليرتاح. من المؤكد أنهم قد وضعوا شرطياً قرب بيته.

لو فهموا لتصرفوا بصورة مختلفة. لكنهم لم يفهموا. وهو لم يساعدهم. برر نفسه بصورة سيئة جداً في رسائله إلى الجريدة.

ما الذي سيفكرون فيه لو ذهب ليطلب غرفة في فندق؟

كل خطوة يقوم بها، الآن، في المدينة تعرضه للخطر لأنه لم يكن موجوداً حيث كان يجب أن يكون، لأن الجميع يعلمون أن مكانه الطبيعي كان عند سرير ماتيلد.

هل كان يستطيع أن يصيح بهم أنه لم تعد هناك ماتيلد، أنّ من حقه، الآن، أن يتصرف كالآخرين؟

بل كان يحق له أن يذهب إلى السينما! كانت هناك واحدة غير بعيدة عن المكان الذي كان فيه. كان يرى أنوارها، إعلاناتها، كان يحس بلهاثها الحار. مضى زمن طويل لم يذهب خلاله إلى السينما! كان يربكه أن يتقدم نحو القفص الزجاجي الصغير ويمد يده بالنقود. كان يعرف صاحبها الذي يتردد على مقهى الأعمدة والذي لا بد أنه واقف إلى جانب الصندوق.

كان متعباً حقاً. كان يود لو يأخذ حماماً ساخناً ويتمدد على سرير، في أغطية نظيفة. كان يود لو أن أحداً، لو أن امرأة عذبة إلى جواره، تتحدث إليه بمودة.

فكر، فجأة، في الآنسة بيرت، خيل إليه أنه يشم عطرها. كان قد فكر فيها، من قبل، خلال الأيام السابقة. لم يعد يعلم ما الذي فكر فيه بالضبط. ألم يتردد في حمل وتر الفيولونسيل؟

لو كان بول على صواب، لو كان الطبيب النفسي على حق لما كان هناك موجب للنضال ، لكنه لم يكن يريد أن يسلم بذلك، ودار على عقبيه وسار، مرة أخرى، موازياً للأرصفة.

كان يقامر على فرصته، فرصته الأخيرة، كان يعي ذلك. كانت الساعة أقل من التاسعة بقليل، وربما كان شنترو قد اكتفى. من يعلم ما إذا كان سيجده في بيته؟ حتى لو كان سكراناً. فإن ذلك قد ينقذه. لم يكن يعلم ماذا سيقول له. لم يكن لذلك أهمية. كان يقوم بانعطافات خوفاً من الدوريات. شرطي واقف في زاوية شارع، في الظلام تابعه بعينيه برهة. يجب أن يكون قد تعرف عليه.

لم يكن يرى نور في الطابق الأول. من جديد لمح من القفل، باب المطبخ. قرع الجرس.

بعد أن انتظر برهة، انصرف وكانت مشيته مهزوزة كمشية سكران.

(١٠)

- آلو بيرت!

كان يتكلم بصوت خافت وقد كوّر يده على جهاز الهاتف. كان يستطيع أن يرى الناس في البار، وراء الزجاج. كان ذلك، عند آخر الرصيف، غير بعيد عن سوق السمك، باراً صغيراً لم يتذكر أنه وضع، فيه، قدميه قط، ولم يكن يشاهد فيه غير الصيادين. في الصباح، كانت نساء السوق يشربن فيه قهوة، وسلال القشريات تتكدس في الزوايا، و خيوط ماء تسيل على البلاط الأحمر القاني.

- من يتكلم؟

- ليون!

كانت تناديهم، جميعاً، بأسمائهم الأولى. لم يكن ذلك من قبيل رفع الكلفة، بل، على العكس من ذلك، كان نوعاً من الاحترام، نوعاً من التحفظ على كل حال. لم تسمح لنفسها، أبداً، في أية لحظة، بأن ترفع الكلفة معهم في الكلام.

- أنا أسمعك.

كان خجلاً قليلاً لم يكن صوته ثابتاً. قال متلعثماً:

- أود أن أمر بك برهة.

- في هذه الساعة؟

كان يتخيل الغرفة الدافئة، الحرائر، التحف، ستائر التول، السيجارة ذات الطرف الذهبي التي لا بدَّ أنها تدخنها.

- أرغب كثيراً في أن أراك!

ضحكت قليلاً، تمتمت:

- هذا مستحيل يا صديقي المسكين، أنا راقدة فعلاً، وأقرأ رواية مدهشة.

- أرجوك!

- ماذا أصابك فجأة؟

- لا أدري. أفعلي هذا من أجلي.

فهم أنها كانت مترددة. لم تكن خائفة مثل خادمة الدكتور.

- كنت أظن أنك إلى جانب زوجتك.

- إنها نائمة.

- وأنت هربت مثل تلميذ؟ من أين تهتف لي؟

- من مقهى.

- بحيث يعرف كل الناس أنك هتفت لي.

- كلا. أنا في حجرة هاتف. أتكلم بصوت خافت.

كان متلهّفاً. كان قادراً على أن يتوسل إليها جاثياً. كان متشبثاً بالجهاز كما كان يمكن أن يتشبث، منذ قليل، بالدكتور.

- أعدك بأن لا أبقى طويلاً.

ما كان يريده كان قضاء الليل عندها. هذه الرغبة ساورته فجأة عندما فكر فيها، في شقتها، في السرير الكبير المبطن الذي لم يتفق له، أبداً، أن نام فيه حقاً.

- اسمعي يا بيرت....

- كلا يا صديقي. أنت لطيف جداً. أنت تعلم أني أحبك كثيراً.

كان صحيحاً أنها أبدت، دائماً، حياله، شيئاً من الإيثار، وربما كان ذلك لأنه كان يبدي لها صوراً من المراعاة، يبدي، حيالها، الاحترام، يجلب لها زهوراً أو هدايا صغيرة.

- أنت تعرف جيراني، إنهم لا يجهلون أني لا استقبل أحداً، أبداً، مساء.

- لمرة واحدة.

- أخيراً، أنا أشعر بالتعب. لو تعلم كم أنا مرتاحة وحدي في سريري مع كتاب مشوق.

كانت تمزح بلطف.

- بيرت!

- هيا! عد بتعقل لتنام وتعال بعد ظهر الغد للسلام علي.

لم تكن تفهم أكثر مما يفهم الآخرون. لم ينقم عليها ولا على الآخرين أيضاً. كان ذلك مخيفاً. كانت تجهل إلى أي حد كان ما تقوله مخيفاً.

- أتوسل إليك.

- سأدلي إليك باعتراف وأنا واثقة من أنك لن تلح بعده. لقد أتيت على إنهاء اغتسالي الليلي، ورؤيتي بشعة دون ماكياج وطبقة من المعجون على وجهي وشعري في ملاقط التجعيد. هذا هو الأمر! أعتقد أنك ستكفّ عن الحديث في الموضوع الآن.

- سآتي للقرع على بابك مع ذلك.

- لن أفتح.

- بلى.

- كلا.

- سأقتحم الباب.

- لاتكن شريراً يا قبعاتي الصغير.

ربما أخطأت في التلفظ بهذه الكلمة، ومع ذلك، قالتها من دون سخرية، دون خبث. كانت، من جهتها، أقرب إلى المداعبة.

- أنا قادم.

لا بُدَّ أنها كررت كلمة «لا» وهو يغلق سماعة الهاتف. خرج من قفصه المزجج، اتجه نحو البار في حين كان صيادون ينظرون إليه دون أن يفكروا في شيء.

كان يجب أن يشرب شيئاً لأن المرء لا يدخل باراً ليهتف دون أن يشرب. كان هناك صفان من الزجاجات نظر إليهما متردداً. كان يرى على إحدى الزجاجات صورة زنجي. كان ذلك روماً نادراً ما شرب منه إلا كمشروب ساخن عندما يصاب بوافدة برد.

- كأس روم.

- كأس كبيرة؟

لماذا سكت الجميع؟ كان يمكن أن يقال أن هؤلاء الناس الذين كانوا، مع ذلك، لا يعلمون شيئاً يفهمون احتفالية الوقت الذي يمر.

سيكونون شهودا، وكذلك رجال الدورية وأوجيني، خادمة الدكتور. ثم الشخص المجهول الذي فتح نافذة عند سماعه القرع بإلحاح.

في الساعة الفلانية كان يفعل هذا..... في الساعة الفلانية انعطف عند زاوية الشارع الفلاني..... في الدقيقة الفلانية، هرب لدى سماعه خطوات واختبأ في الظل..... سوف يعيدون رسم روحاته وغدواته. كان ذلك سهلاً. كان نوع العمل الذي يحسنه بيجاك.

مرت برهة غادر، فيها، اللعبة التي لعبها خاسراً بكامل وعيه. أكان ذلك عندما خرج من المطعم الصغير؟ عندما دخل إليه؟ عندما تابع طريقه نحو ساحة السوق، بدلاً من أن يعود إلى بيته، عندما كانت السيدة كاشودا تولول على الميت؟

ألم يكن ذلك في الأمس؟ ألم يكن، فعلاً، قبل يوم أمس عندما كان، هو والخياط الصغير، يرقبان خروج الأم المقدسة أورسولا وهو يحدق في باب الأسقفية؟

لم يكن لهذا أهمية. كان يستطيع أن يذهب، مرة أخيرة، ليتأكد من أن شنترو ليس في بيته، لكن المكان بعيد وقد يصطدم بدوريات جديدة. ماذا سيقول له الآن؟

كانت الآنسة بيرت تنتظره. كان مقتنعاً بأنها ستنتهي بفتح بابها له. كان الروم قوياً جداً. كان خجلاً لكونه يشرب. كان يبدو له أن صاحب البار والصيادين يتابعون كل حركاته بانتباه.

لا شك في أن الزبائن المعتادين على المكان لم يكونوا يكتفون بكأس واحدة لأن المعلم لم يترك الزجاجة ولم يكن ينتظر سوى إشارة ليصب من جديد.

قام بهذه الإشارة، ليس لأنه كان يرغب في الكحول، بل بدافع احترام إنساني.

كان يمكن أن يدخل شنترو إلى البار. أمكنة كهذه هي التي يرتادها مساء. كان القبعاتي يتمنى ذلك. كان يسره أن يرى الباب يفتح ويتعرف على صديقه بول.

- كم؟

دفع وترك إكرامية. لكن المعلم استوقفه وارتبك من جراء ذلك. لم يتذكر أنه لا تدفع إكراميات في مثل هذه المقاهي. قيل له:

- ليلة سعيدة.

كان ذلك دون سخرية. وأصبح خارجاً. كانت هناك ظلمة. لم يكن القمر قد ظهر. في الحوض، وعلى الرغم من عدم وجود ريح، كان يسمع صرير بكرات بسبب المد الذي كان يرفع المراكب.

كانت له أنصبة في واحد من هذه المراكب، «هيلين الجميلة». ربما كان ذاك الذي كان يرى صواريه ترتسم بلون أسود على السماء الرمادية القاتمة.

مر أحدهم به، نظر إليه، التفت، كان رجلاً لايعرفه.

شاهد آخر.

مر تحت قبة البرج الذي كان فيه نور في الطابق الأول، يضيء نافذة مسكن الحارس التي كانت على شكل كوة. يجب أن يكون أصيص إبرة الراعي في مكانه. فقد رأى، دائماً، أصيص لإبرة الراعي على هذه النافذة.

كان شرطي يقف تجاه «سيدات فرنسا»، في شارع القصر.كاد أن يمر أمامه. ولم لا؟

كان الشرطي يعرفه. كانا عضوين في رابطة المحاربين القدماء نفسها.

قال له:

- مساء الخير يا سيد لابيه.

هل كان يجهل أنه كان على هذا الأخير أن يكون قرب سرير زوجته؟ كل الناس كانوا يعرفون ذلك. بعد بضع لحظات، سيتذكر الشرطي ويتساءل ما الذي جرى للقبعاتي.

كان يرسم أثره عبر المدينة بوضوح، رسم عقلة الإصبع لطريقه بحجارته، وكان يشعر، من جراء ذلك. بمسرة مريرة.

من زاوية شارع غارغولو، كانت ترى أنوار مقهى الأعمدة. في هذه الساعة تظهر الشعرة على لسان أوسكار، المعلم، وتكون عيناه زرقاوين مائلتين للخضرة ومشيته حذرة. لم يبقَ في القاعة سوى المجموعة الأخيرة من المداومين. بعد قليل، سيحين موعد الخروج من السينما المجاورة: التزاحم كما لو كان ذلك بعد قداس كبير، الناس يزررون معاطفهم وينتظر بعضهم بعضاً، النساء يعلقن أيديهن في أذرع أزواجهن، محركات السيارات التي تُدار والكشافات التي تضيء.

كان لا يزال يمكن أن يلتقي شنترو، أو حتى جوليان لامبير، أو أي شخص آخر. ربما كان يريحه أن يرى ظل المفوض بيجاك الذي لم يكن يحبه. لم يكن يعلم ما الذي كان سيفعله على وجه الضبط، لكن لديه الانطباع بأن ذلك كان سينتهي. لو لم يكن كاشودا قد مرض، لو أن كاشودا لم يمت، لكان الخياط الصغير استمر في متابعته ولما كان على القبعاتي سوى أن ينتظر، سوى أن يكلمه.

لم يعد أمامه مكان أبعد يمضي إليه، وكانت فرصه تتضاءل دائماً، تصبح غير موجودة تقريباً. لو كانت الآنسة بيرت امرأة تبقى في سريرها وتدع الجرس يرن عبثاً.

كان واثقاً من أنها ستنزل. لن يكون ذلك حالاً. ستكون، أولاً، سيئة المزاج. كانت البوابة مفتوحة. لم تكن تغلق إلا حوالي الساعة الحادية عشرة. كان هناك ضوء لدى طبيب الأسنان، وتسمع موسيقى حاك أو راديو في الطابق الثاني لدى الأرشيفي العازب الذي كثيراً ما جمع في شقته فتياناً وفتيات.

مد ذراعه... لماذا لم يخطر لها أن تنزل بعد هاتفه وتفصل الجرس كما كانت غالباً ما تفعل بعد الظهر؟

لم تكن قد فكرت في ذلك. رن الجرس. تركته يرن ثلاث مرات، ثم سمع حفيفاً على الدرج وصوتاً كان يسأل عبر الباب:

- من هذا؟

- ليون.

- كن لطيفاً يا ليون. لاتلح هذا المساء.

- أتوسل إليك أن تفتحي لي.

أدارت المفتاح في القفل، ومنذ ذلك الحين انقضى كل شيء. لم تفعل أكثر من جعلها الباب ينفرج. كانت تعتمر طاقية من الدانتيل فوق مجعدات الشعر وترتدي ثوباً منزلياً مبطناً من الساتان الوردي.

- لست لطيفاً. لم تكن كذلك قط.

دفع المصراع بصورة بطيئة لا تقاوم. ولم يكف عن سماع موسيقى الطابق الثاني. كانوا يرقصون هناك، فوق. كانت تسمع خبطات النعال على الأرضية.

- هل شربت؟

- كأساً من الروم فقط.

لم تكن قلقة، كانت فقط مندهشة. وكما توقع، لم يستمر سوء مزاجها. كان ذلك أقرب إلى لعبة. تظاهرت بالحرد. كان كتابها مفتوحاً على طاولة الليل التي ينيرها مصباح. كان هذا المصباح لعبة، وكان ثوبها الواسع يحجب النور.

رقص ضيوف الأرشيفي حتى الساعة الواحدة صباحاً: أحدثوا، وهم ذاهبون، كثيراً من الضجة في الردهة ووجدوا مشقة في إيقاظ البواب ليفتح لهم البوابة. خلال كل هذا الوقت، كانوا يضحكون. كانت ضحكات الفتيات حادة.

في الساعة السابعة والنصف، كالمعتاد، وصلت جنفييف، خادمة الآنسة بيرت التي تسكن لدى ذويها، في فيتيي، على دراجة تركتها في زاوية من الباحة فيها مسند للدرجات.

كان معها مفتاح. صعدت السلم ودخلت، أولاً، إلى المطبخ. لم تكن تدخل الغرفة عادة مع القهوة بالحليب، وتفتح الستائر إلا في الساعة التاسعة.

هذا الصباح، خيل إليها أنها سمعت ضجة غير عادية. وفي الساعة الثامنة والنصف فتحت الباب، مدفوعة بقلق دون سبب محدد، ورأت رجلاً على السرير.

كان نائماً. كانت الآنسة بيرت راقدة في وضع عرضاني على السجادة.

لم تفكر جنفيف في الاقتراب، ولا في استعمال الهاتف، خرجت راكضة، تدحرجت على الدرج، أخطرت البواب والناس الذين كانوا مارين في الطريق ذاهبين إلى أعمالهم. لم يجرؤ أحد على الصعود قبل وصول شرطي، وكان الجميع ينظرون من تحت إلى النافذة بصمت.

الشرطي نفسه تردد على عتبة الغرفة، وأشهر مسدسه. كان شرطياً فتياً تماماً، مغطى الوجه بحب الشباب. كان لاعباً في فريق لكرة القدم. أصبح الرجال وراءه مهددين، وكانت النساء تحرضهن، وشوهد السيد لابيه يجلس على طرف السرير، يمرر يده على وجهه، ويرد شعره إلى الوراء.

خلال لحظة، تمتم وقد اعتراه الخوف أمام كل الناس.

- لا تضربوني.

توفر لديه حضور الذهن ليضيف، وهو يشير إلى جهاز الهاتف المبرنق باللون الأبيض، قائلاً:

- اهتفوا إلى المفوض.

لم يكن أحد يستطيع أن يعلم بماذا كان يفكر، ما الذي كان يشعر به. نظر إلى السجادة بتعبير كئيب على وجهه. ربما كانت الأمور ستجري بصورة مختلفة لو أن بيجاك لم يمر، وهو ذاهب إلى مكتبه، بميدان السلاح.

كان أناس يركضون في الشمس. كان غبرييل قد أتى على فتح باب مقهى الأعمدة. شوهد المفوض يبعد، ببرود، الحشد الذي كان يزحم السلم، والذي يتحمس. وقف عند إطار الباب وتوارى الشرطي ليفسح له المجال.

نظر إلى السيد لابيه الذي كان لا يزال جالساً على حافة السرير. كان القبعاتي في كامل ملابسه، بحذائيه وربطة عنقه المحلولة وسترته المجعدة. تبادل الرجلان النظر وبذل السيد لابيه جهداً لينهض، فتح فمه، تمتم أخيراً:

- إنه أنا.

الذين كانوا على المنبسط وسمعوه، ادعوا أنه تلفظ بهاتين الكلمتين كما لو كان ذلك بارتياح وأن ابتسامة خجولاً جعلت ملامحه تسترخي بينما كان يمد يديه لقيود المفوض.

على السلم، فيما بعد، عندما أبعد الجمهور، قال أيضاً:

- لا تدفعوني. لا تضربوني. أنا آت.....

الخياط الصغير والقبعاتي

الهيئة العامة السورية للكتاب

هذه القصة، في نسختها الانكليزية ربحت، تحت عنوان «طوبى للبسطاء» جائزة ايلري كوين الأمريكية لأحسن قصة بوليسية. وقد نشرت ترجمتها، في فرنسا، مجلة «ميستير ماغازين».

إلا أننا فضلنا تقديم الصيغة الأصلية الفرنسية المختلفة إلى حد كافٍ.

الهيئة العامة السورية للكتاب

(١)

حيث يخاف الخياط الصغير ويتشبث بجاره القبعاتي

كاشودا، خياط شارع «الكهنة الشرعيين» الصغير كان خائفاً، كانت تلك واقعة لا تنكر. ألف شخص، عشرة آلاف شخص بعبارة أصح - على اعتبار أنه كان في المدينة عشرة آلاف شخص - كانوا أيضاً خائفين باستثناء الأطفال الصغار جداً، لكن معظمهم لم يكن يعترف بذلك، بل لا يجرؤ على أن يعترف به لنفسه أمام المرآة.

منذ عدة دقائق، أشعل كاشودا المصباح الكهربائي الذي كان سلك حديدي يسمح له بسحبه وتثبيته فوق عمله تماماً. لم تكن الساعة قد بلغت الرابعة من بعد الظهر، لكن الظلام قد بدأ لأننا كنا في شهر تشرين الثاني. كانت السماء تمطر. على بعد مائة متر من الدكان، في السينما المضاءة باللون الخبازي والتي يسمع جرسها يهتز، كان يمكن أن يرى، في أخبار فرنسا والخارج، أناساً يتجولون في الشوارع بقوارب، مزارع معزولة وسط سيول حقيقية تحمل أشجاراً كاملة.

لكل ذلك حساب. لكل شيء حساب. لو لم نكن في الخريف، لو لم تُظلِم منذ الثالثة والنصف، لو لم يتدحرج المطر من السماء من الصباح إلى المساء، ومن المساء إلى الصباح، إلى حد لم يعد، معه، لدى كثير من الناس شيء جاف يلبسونه، لو لم تكن هناك، فوق ذلك، زوابع تندس في الأزقة الضيقة وترد المظلات كقفازات لما خاف كاشودا ويحتمل فضلاً عن ذلك، أن شيئاً ما كان ليحدث.

كان جالساً متربعاً، جلسة الخياط - لأن تلك كانت مهنته - على طاولة كبيرة صقلها بفخذيه منذ ثلاثين سنة كان يجلس خلالها، طيلة اليوم، هذه الجلسة. كان في الدور الأوسط فوق دكانه مباشرة. كان السقف منخفضاً جداً. تجاهه، على الجانب الآخر من الشارع، كانت هناك قبعة هائلة عالية الأطراف، حمراء، تقوم مقام لافتة للقبعاتي، معلقة فوق الرصيف. من تحت القبعة، كانت نظرة كاشودا تغوص، عبر الواجهة، في مخزن السيد لابيه.

كان المخزن سيء الإنارة. كانت المصابيح الكهربائية مغطاة بغبار يجعل النور كامداً. لم يكن زجاج الواجهة قد غسل منذ زمن طويل. لهذه التفاصيل أهمية أدنى، لكنها تلعب دورها أيضاً. كان مخزن القبعات قديماً. الشارع كان شارعاً قديماً. كان الشريان التجاري سابقاً، في الزمن البعيد الذي لم تكن، فيه، المخازن الحديثة، كمخازن السعر الموحد وغيرها، برفوفها المتوهجة، قد أنشئت في مكان آخر، على مسافة أكثر من خمسمائة متر، بحيث أن الدكاكين التي بقيت في هذا الطرف من الشارع سيئ الإنارة كانت دكاكين قديمة ويمكن التساؤل عما إذا كان أحد يدخلها.

وهذا سبب إضافي للخوف. حلت، أخيراً، ساعته. في هذه البرهة من اليوم، كان كاشودا يبدأ في الشعور بانزعاج مبهم يعني أنه في حاجة إلى كأسه من النبيذ الأبيض، أن عضويته التي تعودت عليه منذ زمن طويل كانت تطلبه بإلحاح.

وعضوية السيد لابيه، في الجهة المقابلة، كانت تحتاج إليه أيضاً. حانت الساعة بالنسبة إليه أيضاً. والدليل على ذلك أنه كان يرى القبعاتي يوجه بضع كلمات إلى ألفريد، مستخدمه الأصهب، ويرتدي معطفاً ثقيلاً بياقة من مخمل.

قفز الخياط الصغير من على طاولته، ارتدى سترته، عقد ربطة عنقه وهبط السلم الحلزوني وهو يصيح بأشخاص غير مرئيين:

- سأعود بعد ربع ساعة.

لم يكن ذلك صحيحاً. كان يبقى، دائماً، نصف ساعة، وغالباً ما كان يغيب ساعة. لكن سنوات انقضت كان، فيها، يعلن على هذا النحو أنه سيعود بعد ربع ساعة.

في البرهة التي كان، فيها، يرتدي معطفاً واقياً من المطر نسيه عنده زبون ولم يطالب به أبداً، سمع جرس الباب المقابل. اتجه السيد لابيه، ويداه في جيبه، وياقته مرفوعة نحو ميدان غامبيتا ملاصقاً للبيوت.

رن جرس الخياط الصغير بدوره. انطلق كاشودا تحت المطر الذي يصفعه، على مسافة حوالي عشرة أمتار وراء جاره المهيب. *لم يكن يوجد، بالضبط، سواهما في الشارع الذي كانت الفوانيس، فيه، متباعدة جداً، بحيث ينتقل المرء من ثقب أسود إلى ثقب آخر أسود.*

كان يمكن لكاشودا أن يخطو بضع خطوات مستعجلة ليدرك القبعاتي. كانا متعارفين، كانا يتبادلان التحية عندما يتفق لهما أن يرفعا الستائر في وقت واحد. كانا يتحدثان مع بعضهما في مقهى السلام الذي سوف يوجدان فيه، معاً، بعد بضع دقائق.

ومع ذلك، كانت، بينهما فروق في المرتبة. السيد لابيه كان السيد لابيه، وكاشودا لم يكن إلا كاشودا. هذا الأخير كان، إذن، يتبعه، وهو ما كان كافياً لطمأنته، ذلك أنه إذا هوجم في هذه البرهة، فيكفيه أن يصرخ لينبه القبعاتي.

وماذا إذا أطلق القبعاتي ساقيه للريح؟ فكر كاشودا في ذلك. كان ذلك يبعث الرعشة في جسده، وخوفاً من الزوايا المظلمة والأزقة العمياء المناسبة لكمين، راح يمشي في وسط الشارع.

وفضلاً عن ذلك، لم يكن الطريق يستغرق سوى بضع دقائق. في آخر شارع الكهنة النظاميين، يوجد الميدان، أنواره، المارة فيه الأكثر عدداً على الرغم من العاصفة، وفيه شرطي مناوب.

انعطف الرجلان، الواحد بعد الآخر. يساراً. في البناية الثالثة، كان مقهى السلام بواجهتيه المنارتين بشكل لامع وحرارته المطمئنة وزبائنه في مكانهم والنادل، فيرمان، الذي كان يتفرج عليهم وهم يلعبون الورق.

خلع السيد لابيه معطفه ونفضه. أخذه فيرمان وعلقه على العلاقة. دخل كاشودا، بدوره، لكن أحداً لم يساعده على خلع معطفه. لم يكن لهذا أهمية. كان طبيعياً: لم يكن سوى كاشودا.

اللاعبون والزبائن الذين كانوا يتابعون اللعبة صافحوا القبعاتي الذي جلس وراء الدكتور تماماً. هم أنفسهم وجهوا هزة رأس - أو لاشيء على الإطلاق - إلى كاشودا الذي يم يجد كرسياً إلا تجاه المدفأة والذي أخذ البخار ينبعث من أسفل بنطاله.

بل إن ذلك البنطال الذي يطلق ماءه بخاراً هو الذي، بسببه، حقق الخياط الصغير اكتشافه.

نظر إليه برهة وهو يقول لنفسه إن القماش الذي لم يكن من النوعية الأولى سوف يتقلص. ثم نظر إلى بنطال السيد لابيه بعين خياط ليرى ما إذا كان نسيجه أفضل. ذلك أن السيد لابيه لم يكن، بالطبع، يلبس من عنده. لم يكن واحد، بين زبائن الساعة الرابعة الذين كانوا، كلهم، وجهاء، يلبس من عند الخياط الصغير.

في أحسن الأحوال، كان يعهد إليه بتصليحات أو بقلب ملابس.

كانت هناك نشارة خشب على الأرض. تركت عليها الأقدام المبللة رسوماً غريبة مع كومات صغيرة من الوحل هنا وهناك. كان السيد لابيه ينتعل حذائين فاخرين، وكان بنطاله رمادياً قريباً من السواد.

عند ثنية الساق اليسرى تماماً، كانت هناك نقطة بيضاء. لو لم يكن كاشودا خياطاً لما اهتم دون شك، بها. لابد أنه ظنها خيطاً لأن الخياطين اعتادوا على سحب الخيوط. ولو لم يكن في هذه البساطة لما خطرت له، كذلك، فكرة الانحناء.

نظر إليه القبعاتي يفعل وهو مدهوش قليلاً. التقط كاشودا الشيء الأبيض الذي انزلق إلى الثنية والذي لم يكن خيطاً. بل قطعة ورق صغيرة. تمتم:

- اعذرني.

ذلك أنه كان يعتذر دوماً. لطالما كان آل كاشودا يعتذرون. اعتادوا هذه العادة الحذِرة منذ قرون وهم يُنقَلون كأنهم طرود، من أرمينيا إلى سميرنة أو إلى سورية.

ما تجدر الإشارة إليه، هو أنه لم يكن يفكر بشيء وهو ينهض ممسكاً بقصاصة الورق بين الإبهام والسبابة. بدقةٍ أشد، كان يفكر: «ليس هذا خيطاً...».

كان يرى أرجل اللاعبين وأقدامهم، قوائم طاولات الرخام، مريول فيرمان الأبيض. وبدلاً من أن يلقي بقصاصة الورق أرضاً، مدَّها للقبعاتي مردداً:

- اعذرني...

ذلك أنه كان يمكن للقبعاتي أن يتساءل عما كان يبحث عنه في ثنية بنطاله.

عند ذلك، وبينما كان السيد لابيه يمسك بها بدوره - لم تكن الورقة، أبداً، أكبر من نثرة - أحس كاشودا بكل كيانه يتجمد، وشعر برعشة مقيتة إلى أقصى حد تعبر عنقه من الجانبين.

ما هو أبعث على الخوف، هو، على وجه الضبط، أنه كان ينظر إلى القبعاتي وأن القبعاتي كان ينظر إليه. ظلا هكذا برهة طويلة يحدق، فيها، كل منهما في الآخر. لم يكن أحد مهتماً بهما. كان اللاعبون والآخرون يتابعون اللعبة. كان السيد لابيه رجلاً ضخماً ثم هزل. كان لا يزال كبير الحجم إلى حد كافٍ لكنه كان يبدو واهياً. لم تكن قسماته المتراخية تتحرك كثيراً. ولم تتحرك في هذا الظرف الهام.

أخذ قطعة الورق ودعكها بين أصابعه صانعاً منها كرة لا يتجاوز حجمها، أبداً، رأس دبوس.

- شكراً يا كاشودا.

يمكن مناقشة ذلك إلى ما لا نهاية ولا بدَّ أن الخياط الصغير فكَّر فيه أياما وليال: هل كان صوت القبعاتي طبيعياً؟ هل كان ساخراً؟ مهدداً؟ متهكماً؟

كان الخياط يرتعش وكاد يقلب كأسه التي أمسك بها ليتماسك.

لم يعد ينبغي أن ينظر إلى السيد لابيه. كان ذلك أخطر مما ينبغي. كانت مسألة حياة أو موت بقدر ما يمكن أن تكون، أيضاً، مسألة حياة بالنسبة لكاشودا!

بقي على كرسيه جامداً في الظاهر، ومع ذلك، كان يحس بأنه يقوم بقفزات حقيقية. كانت هناك برهات كان عليه، فيها، أن يمسك بنفسه بكل قوته من أجل أن لا يطلق ساقيه للريح.

ماذا كان سيحدث لو نهض صارخاً: «إنه هو»؟

كان يحس بالحر والبرد معاً. كانت حرارة المدفأة تحرق جلده، وكان يمكن، أيضاً، لأسنانه أن تصطك. تذكر فجأة شارع الكهنة النظاميين وتذكر نفسه، هو كاشودا الذي كان يتبع القبعاتي مقترباً منه إلى أقصى حد ممكن لأنه كان خائفاً. حدث ذلك عدة مرات، وحدث منذ ربع ساعة. لم يكن هناك سواهما في الشارع، وكان الجو مظلماً.

لقد كان هو! كان الخياط الصغير يود أن ينظر إليه خلسة، لكنه لم يكن يجرؤ. ألم يكن يمكن لنظرة واحدة أن تكون الحكم عليه؟

لم يكن ينبغي، خاصة، أن يمرر يده على عنقه كما كان يرغب إلى حد أصبح الأمر معه مقلقاً، كما يحدث عندما يقاوم المرء رغبة في حك جلده.

- كأس أخرى من النبيذ الأبيض يا فيرمان.

غلطة أخرى. في الأيام الأخرى، كان يمضي نصف ساعة قبل أن يطلب كأسه الثانية. ماذا كان يجب أن يفعل؟ ماذا كان يستطيع أن يفعل؟

كان مقهى السلام محاطاً بمرايا يرى فيها دخان الغلايين والسجائر يتصاعد. لم يكن هناك من يدخن السيغار غير السيد لابيه، وكان كاشودا يتنفس منه عبقات أحياناً. كانت هناك، في آخر المقهى، إلى اليمين، قرب المغاسل، حجرة هاتف. ألم يكن يستطيع أن يدخل إلى هذه الحجرة متظاهراً بأنه ذاهب إلى المغاسل؟

- آلو!...الشرطة؟....إنه هنا!

وماذا لو دخل السيد لابيه وراءه إلى الحجرة؟ لن يسمع أحدٌ شيئاً. كان ذلك يجري دائماً دون ضجة. لم تصرخ ضحية، ضحية واحدة من الست. كن عجائز، لكن القاتل لم يتعامل إلا مع العجائز. من أجل ذلك، كان الرجال

يتبجحون، يجازفون بأنفسهم أكثر في الشوارع. ولكن ما الذي يمنعه من القيام باستثناء؟

- إنه هنا!...تعالوا لأخذه بسرعة.....

وبالمناسبة، سيقبض عشرين ألف فرنك. إنها مقدار الجائزة التي كان كثير من الناس يحاولون كسبها إلى حد لم تعد الشرطة تعرف، معه، بماذا تفكر وقد أنهكتها أشكال من الاتهامات الأشد فنتازية.

مع عشرين ألف فرنك سيستطيع.....

لكن من الذي سيصدقه أولاً؟ سيؤكد:

- إنه القبعاتي!

سيردون عليه.

- أثبت ذلك.

- لقد رأيت حرفين...

- أي حرفين؟

- حرف n وحرف t

بل لم يكن واثقاً من حرف t

- فسر ما تقول يا كاشودا.....

سوف يتحدثون معه بقسوة. يتحدثون دائماً بقسوة إلى كل كاشودات الأرض.....

- ... في ثنية بنطاله.....جعل منها كرة صغيرة.....

وأين هي الآن، هذه الكرة التي بحجم رأس دبوس؟ اذهب للعثور عليها. ربما تركها تقع على الأرض وسحقها في النشارة تحت عقبه! ربما ابتلعها! ماذا كان هذا يثبت؟ أن القبعاتي اقتطع حرفين من صفحة جريدة؟ حتى هذا لا يثبت. يمكن أن يكون قد التقط هذه الورقة من مكان آخر دون أن يعرف. وماذا إذا كان يطيب له أن يقتطع حروفاً من جريدة؟

كان هناك ما يبعث الحمى في رجل أمتن من الخياط الصغير، في أي واحد من الذين كانوا هناك، أناس لائقين، ومع ذلك تجار كبار، طبيب، عامل في مضمار التأمين، تاجر خمور. أناس ميسورون يستطيعون أن يمضوا في لعب الورق جزءاً كبيراً من بعد الظهر ويتناولوا عدة كؤوس يومياً.

لم يكونوا يعلمون. لم يكن أحد، خلاف كاشودا.

والرجل يعرف أن كاشودا.....

كان يتعرق كما لو كان قد تناول عدة جرعات ساخنة وابتلع كثيراً من أقراص الاسبيرين. هل لاحظ القبعاتي اضطرابه؟ هل بدا على الخياط أنه فهم طبيعة الورقة الصغيرة؟

أن تحاول التفكير في أشياء لها مثل هذه الأهمية، في حين، يدخن الآخر سيغاره على بعد أقل من مترين منك ويفترض فيك أنك تنظر إلى لاعبي البيلوت

- نبيذ أبيض يا فيرمان.....

دون أن يريد. تكلم دون أن يريد، لأن حلقه كان جافاً. ثلاث كؤوس من النبيذ الأبيض، هذا أكثر مما ينبغي. أولاً لأن ذلك لم يحدث له أبداً إن صح هذا القول. حدث لدى ولادة أبنائه فقط. كان لديه ثمانية أبناء وينتظر التاسع. لا يكاد يولد واحد حتى تحمل امرأته بآخر. لم يكن الخطأ خطأه. كان هناك أناس ينظرون إليه مستائين في كل مرة.

هل يقتل رجل لأن له ثمانية أبناء وينتظر تاسعاً، وسينتظر عاشراً بعد ذلك، فوراً.

أحدهم - رجل التأمين - الذي يوزع الورق، كان في ذلك الحين يقول:

- هذا غريب..... هذه ثلاثة أيام تنقضي ولم يقتل عجوزاً..... لا بُدَّ أنه بدأ يخاف.....

سماع هذا ومعرفة ما كان كاشودا يعرفه والتوصل إلى عدم النظر إلى القبعاتي! لكن حظه سيء. كان ينظر بصورة مستقيمة أمامه، متعمداً، بجهد

مؤلم، وهاهو أمامه، في المرآة، وجه السيد لابيه الذي التقته عيناه. كان السيد لابيه يحدق فيه، هو كاشودا، وبدا للخياط الصغير أن ابتسامة مبهمة كانت تلوح على شفتي القبعاتي. بل تساءل عما إذا كان لن يوجه إليه غمزة، غمزة عين تواطئية، بالطبع، كما لو كان ليقول: «هذا مضحك، أليس كذلك؟»

سمع كاشودا صوته الذي قال:

- أيها النادل.....

لم يكن ينبغي ذلك. ثلاث كؤوس كانت كافية، أكثر من كافية، خاصة أنه لم يكن يتحمل الشرب.

- سيدي؟

- لا شيء.....شكراً.....

كان هناك تفسير ممكن بعد كل شيء. كان مبهماً قليلاً في ذهن كاشودا، لكنه متماسك. لنفترض أن هناك رجلين بدلاً من واحد: قاتل العجائز الذي لا يعرف عنه شيء على الإطلاق خلاف أنه وصل، في ثلاثة أسابيع إلى ضحيته السادسة، من جهة، ومن جهة ثانية، واحد كان يريد أن يتسلى، أن يضلل مواطنيه، وربما كان مهووساً يكتب في «بريد اللوار»، الرسائل العتيدة المؤلفة من حروف مقتطعة من الصحف. لم لا؟ هذا شيء يرى. هناك أناس تدير هذه الأمور رؤوسهم.

ولكن، إذا كان هناك رجلان بدلاً من واحد، فكيف كان الثاني، صاحب الحروف المقتطعة، يتنبأ بما سيفعله الأول؟ ذلك أن ثلاثاً من جرائم القتل على الأقل، قد أعلن عنها بالطريقة نفسها دائماً. كانت الرسائل ترسل بالبريد إلى «بريد اللوار»، وفي معظم الأحيان، كانت الكلمات المطبوعة مقتطعة من جريدة «بريد اللوار» نفسها وملصقة ببعضها بعناية.

«عبثاً يجري اللجوء إلى الكتيبة السيارة.العجوز الثالثة غداً».

بعض الرسائل كانت أطول. كان ذلك يقتضي وقتاً لإيجاد الكلمات المطلوبة من الجريدة، لجمعها كلغز.

«المفوض ميكو يظن نفسه، لأنه جاء من باريس، ذكياً جداً، في حين أنه ليس سوى طفل جوقة ترتيل، يخطئ إذا شرب أكثر مما ينبغي من مارك بورغونيا الذي يجعل أنفه يحمر».

وبالفعل، ألم يكن المفوض ميكو الذي أرسله الأمن الوطني لإدارة التحقيق يأتي، بين وقت وآخر، ليشرب كأساً في مقهى السلام؟ الخياط الصغير رآه هناك. كان يجري بشكل اعتيادي توجيه الأسئلة إلى الشرطي الذي كان يميل، فعلاً، إلى مارك بورغونيا.

- ماذا، إذن، يا سيدي المفوض؟

- سنمسك به، لا تخافوا. هؤلاء المهووسون ينتهون، دائماً، إلى ارتكاب غلطة. إنهم راضون عن أنفسهم أكثر مما ينبغي. يجب أن يتكلموا عن منجزاتهم.

وكان القبعاتي حاضراً عندما نطق الشرطي بهذه الكلمات

«أغبياء لا يعلمون شيئاً من شيء يزعمون إني، عن جبن، لا أهاجم إلا العجائز. وماذا إذا كنت أشمئز من العجائز؟ أليس ذلك من حقي؟ فليعلموا أيضاً، وسوف أقتل، كي أرضيهم، رجلاً، بل رجلاً كبيراً، بل قوياً، الأمر، بالنسبة لي، سيان سيرون، حقاً، إذن.....»

وكاشودا الذي كان قصيراً جداً، هزيلاً، وليس أقوى من غلام في الخامسة عشرة من عمره!

- هل ترى يا سيدي المفوض.....

ارتعد الخياط. كان ميكو قد أتى على الدخول بصحبة بيجوليه، طبيب الأسنان. كان بديناً ومتفائلاً. أدار كرسياً ليجلس مفرشخاً تجاه اللاعبين الذين قال لهم بتنازل:

- لا تزعجوا أنفسكم...

إنها تتقدم، تتقدم.

- هل وجدتم أثراً؟

كان كاشودا يرى، في المرآة، السيد لابيه الذي كان لا يزال ينظر إليه. وعند ذلك، اعتراه خوف آخر. وماذا لو كان السيد لابيه بريئاً، بريئاً من كل شيء، من العجائز والرسائل. ماذا لو كان قد التقط قطعة الورق في ثنية بنطاله مصادفة، من مكان لا يعلمه إلا الله.. كما يلتقط المرء برغوتاً؟

يجب أن يضع نفسه مكانه. كاشودا انحنى والتقط شيئاً. السيد لابيه لم يكن يعرف حتى من أين، بالضبط، التقطت قطعة الورق هذه. ما الذي يثبت أن الخياط الصغير نفسه ليس مَن أوقَعَها، حاول أن يخفيها واضطرب فمد يده بها إلى محاوره؟

نعم، ما الذي كان يمنع القبعاتي من الشك في جاره كاشودا؟

- كأس من النبيذ الأبيض!

سحقاً! لقد سبق أن شرب الكثير، ولكنه لايزال يحتاج إلى كأس أخرى. كان يبدو له أنّ في المقهى مقداراً من الدخان أكبر من المعتاد وأن الوجوه أشد تلاشياً. أحياناً كانت طاولة اللاعبين تبدو له بعيدة بعداً غريباً.

يا له من أمر غريب... ماذا لو كان يرتاب في السيد لابيه؟ وكان السيد لابيه يرتاب فيه؟.... هل سيفكر القبعاتي، هو أيضاً، في جائزة العشرين ألف فرنك؟ كان يقال بأنه غني، وأنه يدع تجارته تنهار لأنه ليس في حاجة إلى المال. ذلك أنه كان ينبغي تنظيف الواجهات، تحديثها، زيادة الإضاءة وتجديد كل المخزون. لم يكن يستطيع أن يأمل في أن يأتي الناس لشراء قبعات من طراز ما قبل عشرين سنة كانت تزحم الرفوف ويتكاثف عليها الغبار.

ربما كانت ستغريه العشرون ألف فرنك لو كان بخيلاً.

فليتهم كاشودا... حسناً! لأول وهلة، سيصدقه الناس لأن كاشودا كان من هؤلاء الأشخاص الذين يرتاب فيهم الآخرون طواعية لأنه ليس من المدينة، بل ليس من البلاد، لأن له وجهاً غريباً، لأنه كان يعيش وسط أطفال يتزايدون باستمرار ولأن زوجته لا تكاد تتكلم الفرنسية.

ولكن ماذا بعد؟ لماذا سيهاجم الخياط الصغير العجائز في الطريق دون أن يكلف نفسه سرقة مجوهراتهن أو حقائبهن؟ كان كاشودا يقول ذلك لنفسه، ثم سرعان ما يعترض قائلاً:

ولماذا سيحس السيد لابيه الذي جاوز عمره الستين، بعد حياة مواطن نموذجي، فجأة، بالحاجة إلى خنق الناس في الأزقة المعتمة؟

كان ذلك معقداً بصورة بشعة. جو مقهى السلام المألوف لم يعد، هو نفسه، مطمئناً، وكذلك وجود المفوض ميكو.

فليؤكد أحدٌ لميكو أن ذاك كان كاشودا وسوف يصدق.

أمّا إذا قيل له أنه السيد لابيه.....

يجب التفكير في ذلك جدياً. إنها مسألة حياة أو موت. ألم يعلن القاتل، عن طريق الجريدة، أنه قد يهاجم رجلاً؟

وهناك ذلك الشارع، شارع الكهنة النظاميين غير المنار جيداً الذي يجب اجتيازه! وهو يسكن تجاه مخزن القبعات الذي يمكن أن تراقب منه أدنى أفعاله وحركاته.

أخيراً، كان يجب أن يحسب حساب العشرين ألف فرنك التي هي أكثر مما يكسبه في ستة أشهر.

- قل لي يا كاشودا.

أحس بأنه يحط على الأرض قادماً من عالم بعيد، بين أناسٍ نسي وجودهم منذ عدة دقائق. وبما أنه لم يتعرف على الصوت، فقد كانت ردة فعله الالتفات نحو القبعاتي الذي كان يراقبه وهو يمضغ سيغاره. ولكن القبعاتي لم يكن من ناداه، بل المفوض.

- أصحيح أنك تنجز العمل بسرعة بسعر ليس غالياً؟

في لمحة عين، رأى فرصة غير مأمول فيها وكاد يلتفت مرة أخرى إلى السيد لابيه ليطمئن إلى أن الأخير لم يقرأ الفرح على وجهه.

الذهاب إلى الشرطة أمر لم يكن يجرؤ عليه. كان سيتردد في الكتابة لأن الرسائل تبقى ويمكن أن تثير متاعب. لكن ها هو الرئيس الكبير، ممثل النظام، القانون، يعرض، في معجزة، أن يحضر إليه. قال، وهو يخفض عينيه بتواضع:

- بالنسبة لأحوال الحداد، أسلم البزة في أربع وعشرين ساعة.

- إذن، فلنقل أن الأمر يتعلق بالحداد على العجائز الست واصنع لي بزة بالسرعة نفسها. لم آت، تقريباً، بشيء من باريس، وهذه الأمطار جعلت بزتي في حالة سيئة. هل لديك على الأقل جوخ من الصوف الخالص؟

- سيكون لك أفضل أجواخ إلبوف.

ياالله! كم كان تفكير الخياط الصغير يمشي بسرعة! ربما كان ذلك مفعول كؤوس النبيذ الأبيض الأربع. تباً! سيطلب كأساً خامسة بصوت أكثر ثباتاً من المعتاد. سيجري شيء رائع: فبدلاً من أن يعود، وحده، إلى بيته - ألم يكن سيموت رعباً وهو يفكر في السيد لابيه وأثناء مروره بزوايا شارع الكهنة النظاميين المظلمة؟ - سيرافقه المفوض من أجل أن يأخذ قياسه. وعندما يصل إلى بيته ويغلق الباب... كان ذلك رائعاً، غير مأمول فيه، سوف يقبض الجائزة، عشرين ألف فرنك دون التعرض لأي خطر.

- إذا كانت لديك خمس دقائق لترافقني إلى البيت الواقع في الجوار تماماً.....

كان صوته يرتعش قليلاً، هناك فرص يعتمد عليها المرء دون أن يجرؤ على المبالغة في الاعتماد عليها عندما يكون هذا المرء كاشودا، ويكون معتاداً، منذ قرون، على الرفسات في مؤخرته وعلى مزحات القدر السخيفة.

- سآخذ قياسك وأعدك بأنك، غداً مساءً، في الساعة نفسها.....

كم يطيب الانطلاق على هذه الصورة! كل الصعوبات ذللت، كل شيء يتدبر، كما في حكاية جنيات.

أناس يلعبون الورق... رأس فيرمان الطيب - كل الرؤوس تصبح، أيضاً، طيبة في هذه البرهات - الذي يتابع اللعبة... القبعاتي الذي يبذل جهده كي لا يتابع...

سيأتي المفوض..... سيخرجان معاً..... سيدفعان باب الدكان..... لا أحد يستطيع أن يسمع..

- اسمع يا سيدي المفوض، القاتل هو الخ.....تكفي جملة واحدة كي تطيح بكل شيء.

- أحتاج إلى حوالي ساعة لأكون جاهزاً.....

المفوض يرغب في أن يلعب البيلوت، هو أيضاً، ويعلم أن أحداً سوف يترك له مكانه ما أن ينتهي الشوط.

- سآتي لرؤيتك غداً صباحاً... افترض، أنك دائماً في البيت.... فضلاً عن أنه مع هذا الجو.....

لم يبق شيء. القصة الجميلة تهاوت. كان هذا، مع ذلك، سهلاً جداً! وغداً صباحاً، ربما كان كاشودا ميتاً! زوجته وأبناؤه لن يقبضوا العشرين ألف فرنك التي كانت من حقه.

ذلك أنه يحس، بصورة متزايدة، بأن له حقاً فيها، يعي ذلك، يثور.....

- إذا جئت هذا المساء، فإني سأستطيع الإفادة من.....

لم ينجح هذا معه، لا بد أن السيد لابيه يضحك. انتهت اللعبة فعلاً وأعطى رجل التأمين مكانه على المائدة الخضراء للمفوض ميكو. لا ينبغي أن يكون للمفوضين الحق في لعب الورق. يجب أن يفهموا من تلميحه....لا يستطيع كاشودا، مع ذلك، أن يتوسل إليه ليأتي من أجل أخذ قياسه.

كيف يذهب الآن؟ إنه لا يبقى، عادة، سوى نصف ساعة، وأكثر من ذلك بقليل أحياناً، في مقهى السلام. كانت هذه تسليته الوحيدة، جنونه. ثم يعود. الأبناء كاملو العدد - الصغار عادوا من المدرسة - ويثيرون ضجة

جهنمية. تنتشر في البيت رائحة المطبخ. دولفين - تحمل اسماً فرنسياً بصورة مضحكة، في حين لا تكاد تتكلم هذه اللغة - تصيح بالصغار بصوت حاد وهو يجلس إلى طاولته في الطابق الأوسط، ويقرب المصباح من عمله ويخيط طوال ساعات.

كانت رائحته سيئة. ويعرف ذلك جيداً. تفوح منه، في الوقت نفسه، رائحة الثوم الذي يستهلك منه الكثير في البيت ورائحة من الأقمشة التي يعمل عليها. هناك أشخاص في مقهى السلام، يرجعون كراسيهم إلى وراء عندما يجلس حول طاولة المعتادين.

هل هذا سبب كي لا يأتي المفوض حالاً؟ ليت أحداً يكون ذاهباً في اتجاهه. لكنهم جميعاً، الحاضرون هنا يسكنون باتجاه شارع القصر، كلهم ينعطفون يساراً، في حين أن عليه الانعطاف يميناُ.

مسألة حياة أو موت.....

- الشيء نفسه يا فيرمان.

كأس أخرى من النبيذ الأبيض. كان خائفاً جداً من أن يخرج القبعاتي في أعقابه! ثم، حين طلب الكأس، فكر في أنه إذا خرج السيد لابيه أولاً، فربما سيكون ذلك لينصب له كميناً في إحدى الزوايا المظلمة في شارع الكهنة النظاميين.

الخروج قبله خطر

الخروج بعده أخطر أيضاً.

إنه لايستطيع، مع ذلك، البقاء هنا كل حياته.

- فيرمان.....

تردد. كان يعلم أنه مخطئ، إنه سيسكر ولكنه لم يعد قادراً على غير هذا

- الشيء نفسه.

ألن يكون هو من سيرتابون فيه؟

(٢)

حيث يشهد الخياط الصغير نهاية آنسة مسنة

- كيف حال ماتيلد؟

أحدهم قال هذه الجملة الصغيرة، لكن من هو؟ في هذه البرهة،كان رأس كاشودا قد أصبح ثقيلاً، وربما طلب كأسه السابعة من النبيذ الأبيض إلى حد أنه سُئِل عما إذا كان يحتفل بولادة جديدة. يحتمل أن يكون جيرمان، البقال، هو الذي تكلم. وفضلاً عن ذلك، فلم يكن لهذا أهمية. جميعهم في العمر نفسه تقريباً، بين الستين والخامسة والستين. معظمهم كانوا معاً، في المدرسة، أولاً، ثم في الثانوية. لعبوا بالكريات معاً، يرفعون الكلفة بينهم في الخطاب. حضروا زيجات بعضهم بعضاً. لا شك في أنه كان لكل منهم، في الخامسة عشرة أو في السابعة عشرة، الحبيبة التي أصبحت زوجة صديقه.

وهناك آخرون، مجموعة من تتراوح أعمارهن بين الأربعين والخمسين وتستعد لأخذ مكان الأولى، من أجل العهد الذي لن يعود فيه الأكبر سناً موجودين، ويلعب أفرادها الورق في الركن الأيسر من مقهى السلام. إنهم أكثر ضجيجاً بقليل ولكنهم يصلون بعدهم، في الخامسة، لأنهم لم يكسبوا، بعد، كل مراتبهم.

- كيف حال ماتيلد؟

إنها جملة صغيرة سمعها كاشودا كل يوم تقريباً. طرح هذا السؤال من أطراف الشفاه كما كان يمكن أن يقال «أما زالت السماء تمطر؟»

لأنه انقضى أبد على تحول ماتيلد، زوجة القبعاتي، إلى نوع من أسطورة. لا بد أنها كانت، ذات يوم، فتاة مثل الأخريات. ربما كان بعض اللاعبين قد غازلوها وقبلوها في الزوايا. ثم تزوجت وذهبت، دون شك، إلى قداس الساعة العاشرة، كل يوم أحد، بأبهى ملابسها.

تعيش، منذ خمس عشرة سنة في طابق أوسط مشابه لطابق كاشودا، تجاهه، ونادراً ما تزاح ستائره. هو نفسه لا يراها ويكاد يرى بقعة وجهها أيام التنظيف الكبير.

- ماتيلد بخير..

وبعبارة أخرى، لم تصبح حالتها أسوأ، لا تزال مشلولة، يستمرون في وضعها، كل صباح، في مقعدها، وكل مساء في سريرها، ولكنها لم تمت بعد.

تحدثوا عن ماتيلد وعن أمور أخرى.. لم يتحدثوا طويلاً عن القاتل لأنهم، هنا، في مقهى السلام، يتظاهرون بعدم الاهتمام بمثل هذه الأمور إلا من فوق.

لم يجرؤ كاشودا على الذهاب خوفاً من أن يرى القبعاتي يخرج وراءه ويتبعه. عند ذلك، شرب. كان على خطأ. لكن ذلك كان أقوى منه. لاحظ، مرتين أو ثلاثاً، أنّ السيد لابيه ينظر إلى الساعة الباهتة المعلّقة بين مرآتين، ولم يتساءل لماذا. على هذا النحو، فقط، عرف أن الساعة بلغت الخامسة وسبع عشرة دقيقة، تماماً، عندما نهض القبعاتي وضرب طاولة الرخام بقطعة نقوده وهي عادته في المناداة على فيرمان.

- كم؟

إذا كان يحيّي مصافحاً عند الوصول، فإنه يكتفي، عند الرحيل، بوداع إجمالي. بعضهم يقول «إلى الغد»، وبعضهم يقول «إلى المساء»، لأن هناك من يلتقون بعد العشاء لجولة جديدة من اللعب.

«سوف ينتظرني في زاوية من شارع الكهنة النظاميين وينقض عليَّ لدى مروري...»

ليته يستطيع دفع حسابه في الوقت المناسب، ويخرج على أعقاب القبعاتي ولا يجعله يغيب عن عينيه! إنه الأقصر والأضعف من الاثنين. هناك فرص لأن يكون الأسرع ركضاً. الأفضل هو متابعة الآخر على مسافة قصيرة مستعداً للهرب عند أدنى حركة مريبة.

خرج الرجلان وبينهما فاصل من بضع ثوان. الشيء الطريف هو أن اللاعبين لم يلتفتوا إلى القبعاتي، ولكنهم فعلوا ذلك، حقاً، بالنسبة للخياط الصغير الذي بدا لهم على غير ما يرام.

من يعلم؟ ألم يتمتم أحدهم:

- ماذا لو كان هو؟

كانت الريح تشتد في زوايا الشارع، كان المرء يتلقى الريح كصفعة قوية تجعله ينطوي إلى الأمام أو يرتد إلى الوراء. كانت السماء تمطر. كان وجه الخياط الصغير مبللاً، وكان يرتجف تحت معطفه الواقي قليل السماكة.

لا يهم. كان يتعقب الآخر. كان يجب أن يتبعه عن قرب. كان ذلك خشبة خلاصِه الوحيدة. بقي أمامه ثلاثمائة متر، مائتا متر، مائة متر، ويصبح في بيته، سيستطيع أن يغلق على نفسه، أن يتحصن في انتظار زيارة المفوض صباح الغد. كان يعد الثواني، وهاهو القبعاتي يتجاوز مخزنه حيث يرى، بصورة مبهمة، وراء الطاولة المستخدم الأصهب. كاشودا، بدوره، تجاوز دكانه دون أن يعلم، تقريباً، لأن قوة كانت تدفعه إلى المتابعة دائماً.

لم يكن هناك، كما منذ قليل، سواهما في شوارع الحي المتزايدة الإقفار التي كانا يغوصان فيها. كان كل منهما يسمع، بوضوح، خطوات الآخر كأصداء لخطواته. فالقبعاتي كان يعرف، إذن، أنه متبوع.

وكاشودا كان ميتاً من الخوف. كان يمكن أن يتوقف، يدور على عقبيه ويعود إلى بيته. لا شك في ذلك. إلا أنه لم يكن يفكر في ذلك فقط. مهما بدا ذلك غريباً، فقد كان أكثر خوفاً من أن يفعل.

كان يتبع. كان يمشي على مسافة عشرين متراً وراء رفيقه. كان يتفق له أن يتكلم وحده، في المطر والريح.

- ماذا لو كان هو؟

هل كان لايزال يشك؟ هل كان يقوم بهذه الملاحَقة ليطمئن قلبه؟

بين حين وآخر، كان الرجلان يمران، بفاصل بضع ثوان، أمام دكان مضيئة، وكان كل منهما بدوره يغوص في الظلمة، ولا يعود لهما من نقطة استناد سوى صوت خطواتهما.

- إذا توقف توقفت.....

توقف القبعاتي فتوقف. عاد القبعاتي إلى المشي، فعاود الخياط الصغير السير بتنهدة ارتياح.

كانت هناك دوريات في المدينة، كميات من الدوريات إذا صدقت الجريدة. كانت الشرطة قد أنشأت، كي تهدئ السكان، نظام مراقبة يزعم أنه يستحيل خرقه. وبالفعل، فقد صادفا - الواحد منهما وراء الآخر دائماً - ثلاثة رجال في زي رسمي يسيرون متثاقلين، وسمع كاشودا.

- مساء الخير سيد لابيه.

أما هو، فقد صوبوا إلى وجهه ضوء مصباح جيب ولم يقولوا له شيئاً.

لا عجائز في الطرقات. كان ذلك يحمل على التساؤل أين سيجد القاتل عجائزه ليقتلهن. كان يجب أن يأوين إلى بيوتهن وأن لا يخرجن إلا في وسط النهار مع مرافقة بقدر الإمكان. مرا أمام كنيسة القديس يوحنا التي كانت بوابتها ضعيفة الإضاءة. إلا أن المسنات كففن حتماً عن الذهاب إلى الخلاص منذ ثلاثة أسابيع.

أصبحت الطرقات متزايدة الضيق، كانت هناك أراضي خلاء وأسيجة بين بعض البيوت.

«إنه يستدرجني إلى خارج المدينة كي يقتلني.....».

لم يكن كاشودا شجاعاً، كان خوفه يتزايد. كان مستعداً للصراخ طلباً للنجدة لدى أدنى حركة من القبعاتي. إذا كان يتبعه، فليس ذلك عن رغبة منه.

شارع هادئ، مع بيوت جديدة، الخطوات دائماً، ثم، فجأة، لا شيء، لم يعد هناك شيء، لأن كاشودا قد توقف في الوقت نفسه الذي توقف فيه الرجل الذي يتبعه ولا يراه.

أين ذهب القبعاتي؟ كانت الأرصفة مظلمة. لم يكن هناك في الشارع سوى ثلاثة فوانيس متباعدة. كانت هناك، أيضاً، بعض النوافذ المضيئة، ومن أحد البيوت كانت تتعالى أنغام بيانو.

الجملة الموسيقية نفسها دائماً، تمرين دون شك - لم يكن كاشودا يفهم في الموسيقى - يعيده التلميذ باستمرار، مع الغلطة ذاتها دائماً في النهاية.

هل توقف المطر؟ على كل حال، لم يعد يلاحظ أن السماء تمطر. لم يكن يجرؤ على التقدم ولا على التراجع. كان قلقاً لدى أدنى صوت. كان خائفاً من أن يمنعه هذا البيانو الملعون من سماع الخطوات. الجملة تستعاد خمس مرات، عشر مرات، ثم، فجأة، الاصطفاق الجاف لغطاء البيانو. كان الأمر واضحاً. انتهى الدرس. كانت هناك ضجة، صرخات في البيت، بنت صغيرة تحررت لا بد أنها مضت لتوافي إخوتها وأخواتها.

كان هناك شخص ما يلبس كي يخرج، يقول، دون شك للأم: «إنها لتحرز تقدماً. لكن اليد اليسرى.... يجب، إطلاقاً، أن تعمل على يدها اليسرى....»

وذلك الشخص - فُتِح الباب ورَسَم مستطيلاً من نور أصغر - كان آنسة مسنة.

- ....أؤكد لك يا سيدة باردون..... بالنسبة لمائة متر يجب أن اجتازها.....

لم يعد كاشودا يجرؤ على التنفس. لم يخطر له أن يصرخ: «ابقي حيث أنت.... لا تتحركي أبداً خاصة!....».

مع ذلك، بات يعلم. فهم، الآن، كيف يجري ذلك. أعيد إغلاق الباب. كانت الآنسة المسنة التي يجب، مع ذلك، أن تكون منفعلة قليلاً تنزل من على عتبة من ثلاث درجات وبدأت في العدو ملاصقة للبيوت.

كان ذلك شارعها، أليس كذلك؟ كانت في بيتها تقريباً. ولدت فيه، في هذا الشارع. لعبت على كل العتبات، على الأرصفة، كانت تعرف أصغر حجارتها.

خطوتها السريعة، الخفيفة.... ثم لم تعد هناك خطوات! هذا، تقريباً، كل ما سُمِع: انعدام الخطوات، الصمت. شيء مبهم كحفيف ثياب. هل كان من شأنه أن يستطيع التحرك؟ وهل كان ذلك سيجدي شيئاً؟ ولو كان قد صرخ. فهل سيقوم أحدهم ببطولةِ الخروج من بيته؟ التصق بالجدار، والتصق قميصه بجسده بسبب عرقه وليس بسبب المطر الذي كان قد اخترق معطفه.

- أوف!

هل كان هو الذي تنهد. أم ربما تنهدت العانس أيضاً - تنهيدتها الأخيرة في هذه الحال - أم القاتل؟

سمعت من جديد خطوات، خطوات رجل، في الاتجاه المعاكس. خطوات تأتي نحو كاشودا الذي كان واثقاً من الركض أسرع من القبعاتي والذي لم يكن يتوصل فقط إلى انتزاع نعليه عن الرصيف.

سوف يراه الآخر. لكن ألم يكن الآخر يعلم سلفاً أنه هناك؟ ألم يشعر الآخر به وراءه منذ مقهى السلام؟ لم تكن لذلك أهمية. على كل حال، كان الخياط الصغير تحت رحمته. كان هذا، بالضبط، انطباعه الذي لم يحاول أن يناقشه. كان القبعاتي يتخذ فجأة، في عينيه، أبعاداً غير بشرية، وكان كاشودا على استعداد لأن يقسم له، جاثياً على ركبتيه إذا لزم الأمر، على الصمت طيلة حياته، على الرغم من العشرين ألف فرنك!

لم يتحرك، وكان السيد لابيه يقترب. سوف يتلامسان. هل ستكون لدى كاشودا، في الدقيقة الأخيرة، القوة على الركض؟

وإذا فعل، أليس هو الذي سيتهم بالجريمة؟ لن يكون على القبعاتي سوى أن يطلب النجدة. سوف يُقتفى أثر الهارب. سوف يتم الإمساك به.

- لماذا كنت تركض؟

- لأنني.....

- اعترف بأنك قتلت الآنسة العجوز.....

لم يكونا، في الطريق، سوى اثنين، ولم يكن هناك ما يدل، جملة، على أن أحدهما، وليس الآخر، هو القاتل.

السيد لابيه كان أذكى من الخياط الصغير. كان رجلاً هاماً ولد في المدينة، يرفع الكلفة في كلامه مع الأشخاص المتواجدين في المكان، وله ابن عم نائب.....

- ليلة سعيدة يا كاشودا!

مهما بدا الأمر غير قابل للتصديق، فهذا كل ما جرى. لابد أن السيد لابيه وجد عناء في تمييزه في الظلام. وكي تقال الحقيقة كاملة، كان كاشودا قد صعد عتبة بيت وأمسك بحبل الجرس مستعداً لسحبه بكل قواه.

إلا أنه، ها هو ذا القاتل يحييه بهدوء، وهو يمر، بصوت أصم قليلاً، لكنه ليس مهدداً على نحو خاص.

- ليلة سعيدة يا كاشودا!.....

حاول أن يتكلم أيضاً. كان يجب أن يكون مهذباً. شعر بضرورة ملحة لأن يكون مهذباً مع رجل كهذا ويرد له تحيته. كان يفتح فمه عبثاً فلا يخرج منه صوت. كانت الخطوات تبتعد.

- ليلة سعيدة سيدي القبعاتي!..

سمع نفسه يقول هذا، قاله بعد فوات الأوان، عندما كان القبعاتي قد أصبح بعيداً، لم ينطق بالاسم تهذيباً، كي لا يورط السيد لابيه. سلوك فائق.

بقي عند عتبته. لم يكن لديه أدنى رغبة في رؤية الآنسة المسنة التي كانت، قبل نصف ساعة، تعطي درساً في البيانو والتي يجب أن تكون قد انتقلت، نهائياً، إلى عالم آخر.

كان السيد لابيه بعيداً.

عند ذلك، وفجأة، انتابه الهلع. لم يكن يستطيع أن يبقى هناك. كان خائفاً. كان يحس بالحاجة إلى الابتعاد بكل سرعة ساقيه، ولكنه في الوقت نفسه، يخشى أن يصطدم بالقبعاتي.

كان مهدداً بأن يقبض عليه بين ثانية وأخرى. سلطت دورية، منذ قليل، ضوء مصباح كهربائي على وجهه. لقد رأوه، تعرفوا عليه. كيف سيفسر وجوده في هذا الحي الذي لم يكن له ما يفعله فيه وحيث قتل شخص منذ قليل؟

سحقاً! كان الأفضل هو الذهاب ليقول كل شيء للشرطة. راح يمشي، يمشي بسرعة وهو يحرك شفتيه.

- لست سوى خياط صغير فقير يا سيدي المفوض، لكني أقسم لك على رأس أولادي..

كانت ترتعد فرائصه لدى أدنى صوت، لماذا لا ينتظره القبعاتي في ركن مظلم كما فعل مع الآنسة المسنة؟

فرض على نفسه انعطافات، ضاع في متاهة طرق صغيرة لم تطأها قدماه قط.

«لم يستطع أن يتوقع أني سأسلك هذا الدرب....لم يكن في هذا الغباء بعد كل شيء».

- أريد، حقاً، أن أقول لك الحقيقة. لكنه ينبغي أن تعطيني واحداً أو اثنين من رجالك لحراستي إلى أن يصبح في السجن.

عند الحاجة، سينتظر في قسم الشرطة. مراكز الشرطة ليست مريحة، لكنه رأى الكثير منها خلال حياته كمهاجر. لن يسمع، في هذه الحالة، زعيق أطفاله، وهذا مكسب دائماً.

لم يكن القسم بعيداً جداً عن بيته. كان على مسافة شارعين من شارع الكهنة النظاميين. لمح الفانوس الذي كتب عليه كلمة «شرطة». يجب أن يكون هناك، كما هو الأمر دائماً، شرطي أو اثنان على العتبة. لن يعود هناك خطر يتهدده. لقد أنقذ.

- سيرتكب خطأً، سيد كاشودا...

وقف حالاً. كان الذي قال ذلك صوتاً حقيقياً، صوت رجل من لحم وعظم، صوت القبعاتي. والقبعاتي كان هناك، مستنداً إلى الجدار، ويكاد وجهه الهادئ أن لا يميز في الظلام.

هل يعرف المرء ما يفعله في هذه البرهات؟ تلعثم قائلاً:

- استميحك عذراً.

قال ذلك كما لو كان صدم أحدهم في الطريق، كما لو كان قد داس على قدم سيدة. ثم،وبما أنه لم يقل له شيئاً، وبما أنه ترك لشأنه، دار على عقبيه بهدوء.

لم يكن ينبغي أن يبدو كمن يهرب. كان ينبغي، على العكس من ذلك، أن يسير كرجل طبيعي. لم يُتبَع مباشرة، أعطي الوقت اللازم للابتعاد. سُمعت أخيراً الخطوات التي لم تكن أسرع أو أبطأ من خطواته. لن يكون لدى القبعاتي، إذن، الوقت اللازم لإدراكه. هو ذا شارعه، دكانه مع أقمشة قاتمة في الواجهة وبعض نقوش الموضة. والدكان الأخرى في الجهة المقابلة.

فتح الباب وأعاد إغلاقه، بحث عن المفتاح الذي أداره في القفل، صاحت زوجته من فوق:

- أهذا أنت؟

كما لو كان يمكن أن يكون شخصاً آخر في هذه الساعة وذلك الجو.

- امسح قدميك جيداً.

عند ذلك، تساءل عما إذا كان صاحياً حقاً. قالت له، له هو، هو الذي أتى على عيش ما عاشه. في حين أن خيال القبعاتي كان يرتسم أمام باب مخزنه على الرصيف الآخر:

- امسح قدميك جيداً.

كان يمكنه، كذلك، أن يغمى عليه. أية كلمات كانت ستنطق بها في هذه الحالة؟

(٣)

حول قرارات كاشودا ورعاية القبعاتي

كان كاشودا جاثياً على الأرض مديراً ظهره للنافذة وتجاهه، على مسافة بضعة سنتمترات، ساقان ضخمتان وبطن كبير لرجل. الرجل الواقف كان المفوض ميكو الذي لم تنسه مأساة مساء الأمس بزته.

كان الخياط الصغير يقيس محيط الخصر ومحيط الوركين، يبلل قلمه باللعاب ويسجل أرقاماً على دفتر قذر موضوع على الأرضية بالقرب منه، ثم قاس ارتفاع البنطال وما بين الساقين. وفي هذا الوقت، كان السيد لابيه يقف وراء الستائر المطرزة لنافذته، في الجهة المقابلة تماماً وفي الارتفاع نفسه. أكانت تفصل بينهما ثمانية أمتار؟ بالكاد.

اعترى كاشودا، على الرغم من كل شيء، إحساس صغير بالبرد في نقْرتِه. لن يطلق القبعاتي النار، كان واثقاً من ذلك. لكن، هل كان يمكن للمرء أن يكون متأكداً حقاً؟ لن يطلق النار لأنه أولاً ليس رجلاً يقتل بأسلحة نارية. وللناس الذين يقتلون عاداتهم كالآخرين. إنهم لا يبدلون طرقهم طواعية. ثم أنه سيوقع نفسه، حتماً، لو أطلق النار.

وأخيراً، وخاصة، كان القبعاتي واثقاً من كاشودا. هناك كانت حقيقة المسألة. ألم يكن الخياط الصغير يستطيع، في الوضعية التي كان عليها، أن يتمتم لهذا التمثال البدين قليلاً الذي يأخذ مقاييسه: «لا تتحرك، يجب أن لا يظهر عليك شيء. القاتل هو القبعاتي المقابل لنا. إنه يراقبنا من وراء نافذته.»

لم يفعل. تصرف كخياط صغير متواضع وبرئ. كانت رائحة المكان سيئة، ولكن كاشودا لم يكن ينزعج منها لأنه تعود على الرائحة التي تطلقها الأقمشة، وكان مشبعاً بهذه الرائحة إلى حد أنه كان ينقلها معه إلى كل مكان. يجب أن تسود لدى السيد لابيه، في الجهة المقابلة، رائحة اللباد والصمغ، وهي أسوأ أيضاً لأنها أكثر بهوتاً. لكل مهنة رائحتها.

على هذا الأساس، ماذا كان يمكن أن تكون رائحة مفوض في الشرطة؟ هذا، بصورة مضبوطة جداً، ما راح يفكر فيه في هذه البرهة، وهو ما يدل على أنه قد استعاد بعض حرية التفكير.

- إذا استطعت الحضور في نهاية فترة بعد الظهر، للتجربة، فإني آمل أن أسلمك البزة غداً صباحاً.

ونزل وراء المفوض، مر أمامه في الدكان ليفتح له الباب الذي رن جرسه. لم يتطرقا حتى بالتلميح إلى القاتل ولا إلى آنسة مساء الأمس العجوز التي كانت تدعى الآنسة مولار (ايرين مولار) التي كرست لها الجريدة كل صفحتها الأولى.،

كان، مع ذلك، قد أمضى ليلة مضطربة، مضطربة إلى حد أيقظته زوجته، معه، لتقول له:

- حاول أن تهدأ. أنت لا تتوقف عن رفسي.

لم يعد إلى النوم. فكر خلال ساعات بحيث أحس برأسه مطوقاً بدائرة حديدية. في الساعة السادسة صباحاً، مل من التفكير في سريره ونهض. وبعد أن أعد لنفسه كوب قهوة على السخانة، ذهب إلى ورشته وأشعل النار.

لا بدَّ أنه أشعل النور، بالطبع، لأن الشمس لم تشرق. كان هناك، تجاهه تماماً، نور أيضاً. فمنذ سنوات، كان القبعاتي يستيقظ في الساعة الخامسة والنصف صباحاً. لم يكن يُرى، وهذا مؤسف، بسبب الستائر، لكن ما كان يفعله معروف.

لم تكن زوجته تريد أن ترى أحداً. نادراً ما كانت صديقة تتوصل إلى اجتياز بابها، ولم تكن تبقى طويلاً. كانت ترفض، أيضاً، أن تعتني بها الخادمة التي تأتي في الساعة السابعة صباحاً وترحل مساءً.

كان السيد لابيه هو المرغم على عمل كل شيء: ترتيب الغرفة، نفض الغبار، الصعود بالوجبات. وكان هو الذي يجب أن يحمل زوجته من سريرها إلى مقعدها والذي يسرع، عشرين مرة في اليوم، إلى صعود السلم الحلزوني الذي يؤدي من المخزن إلى الطابق الأول. عند الإشارة! لأنه كانت هناك إشارة! عكاز موضوع إلى جانب المقعد، وكانت لا تزال يد المريضة اليسرى لديها القوة للإمساك به للضرب على الأرضية.

كان الخياط الصغير يعمل على طاولته. كان يفكر بصورة أفضل وهو يعمل. كان يقول لنفسه:

«انتبه يا كاشودا! العشرون ألف فرنك مبلغ جيد وتركها تفلت جريمة. لكن الحياة شيء هام أيضاً، حتى حياة خياط صغير جاء من أطراف أرمينيا... القبعاتي، حتى لو كان مجنوناً، أذكى منك. إذا قبض عليه، فمن المحتمل أن يطلق سراحه لانعدام الأدلة. ليس رجلاً يلهو بترك أوراق صغيرة مقتطعة في بيته...»

كان على حق في تفكيره هذا دون عجلة، وهو يسحب الإبرة لأن ذلك يعطيه، فعلاً، فكرة. بعض الرسائل المرسلة إلى «بريد اللوار» كانت تتضمن نصاً يشغل، صفحة كاملة الوقت اللازم للعثور على الكلمات، وعلى الحروف المنفصلة أحياناً، واقتطاعها ولصقها، يعادل ساعات من الصبر.

إلا أن في مخزن القبعاتي، في الأسفل، يتواجد المستخدم الأصهب الشعر، ألفريد طوال النهار. ووراء الدكان توجد ورشة صغيرة فيها رؤوس خشبية كان السيد لابيه يضبط شكل القبعات عليها، لكن كوة مزججة كانت تصل بين المخزن والورشة.

في المطبخ والغرف الأخرى، كان الإشراف للخادمة. لم يبق سوى مكان واحد كان القاتل قادراً، فيه، على القيام بعمله الصبور بسلام: غرفة زوجته التي كانت، أيضاً، غرفته والتي لم يكن لأحد الحق في دخولها.

وكانت السيدة لابيه عاجزة عن الحركة، عاجزة عن الكلام بطريقة أخرى غير الأصوات المعبرة. ما الذي كانت تفكر فيه وهي ترى زوجها يلهو باقتطاع أوراق صغيرة؟

«فضلاً عن ذلك يا صغيري كاشودا، إذا وشيت به وانتهوا بالعثور على دليل، فإن هؤلاء الناس (كان يفكر برجال الشرطة، بمن فيهم زبونه الجديد المفوض) سيدعون أنهم هم الذين فعلوا كل شيء وسيسلبونك أضخم قسم من الجائزة.....»

الخوف من فقدان العشرين ألف فرنك والخوف من السيد لابيه أصبحا من الآن وصاعداً الإحساسين الأساسيين لديه.

إلا أنه لم يعد، منذ الساعة التاسعة، يخشى، أبداً تقريباً، من القبعاتي. في منتصف الليل، لم تعد، فجأة، تسمع ضجة الماء في الميازيب وطقطقة المطر على السقوف وصفير الريح في المصاريع. وكما لو أن في الأمر معجزة، توقف المطر والعاصفة بعد ما يقرب من خمسة عشر يوماً. كل ما في الأمر هو أن مطراً خفيفاً في الساعة السادسة كان لا يزال يسقط، لكنه كان خفيفاً إلى حد كان معه صامتاً وغير مرئي تقريباً.

راح بلاط الأرصفة يستعيد الآن لونه الرمادي، والناس يسيرون دون مظلات في الطرقات. كان ذلك يوم سبت، يوم سوق. كانت السوق تقام في ساحة صغيرة قديمة في آخر الشارع.

في الساعة التاسعة، نزل كاشودا، سحب قضبان الباب ووجد نفسه على الرصيف وأخذ يسحب الألواح الخشبية التي كانت بمثابة مغاليق.

كان عند اللوح الثالث - كان يجب إدخالها الواحد بعد الآخر إلى الدكان - عندما سمع صوت ألواح من النوع نفسه كانت تسحب في الجانب المقابل، عن واجهة القبعاتي. تجنب أن يلتفت. لم يكن خائفاً كثيراً لأن اللحام كان، على عتبته، يثرثر مع بائع القباقيب.

عبرت خطوات الشارع. قال صوت:

- نهارك سعيد يا كاشودا!

وتوصل هو، وفي يده لوح، إلى أن يقول بصوت شبه طبيعي:

- نهارك سعيد يا سيد لابيه.

- قل لي يا سيد كاشودا!

- نعم يا سيد لابيه.....

- هل سبق وكان في أسرتك مجانين؟

الأقوى هو أن ردة فعله الأولى كانت البحث في ذاكرته، التفكير في أخوته وأخواته، في أبيه وأمه

- لا أظن.

عند ذلك، قال السيد لابيه قبل أن يستدير وعلى وجهه تعبير ارتياح

- لابأس....لا بأس.

لقد تواصلا بكل بساطة، لا أهمية لما قاله كل منهما الآخر. تبادلا بضع كلمات كجيران طيبين. لم يرتعش كاشودا. ألم يكن من شأن اللحام، مثلاً، وهو أطول وأقوى منه بكثير - كان يحمل خنزيراً كاملاً على ظهره - أن يشحب لونه لو قيل له: «هذا الرجل الذي ينظر إليك بعينين كبيرتين وقورتين وحالمتين هو قاتل العجائز السبعة؟»

كاشودا، من جهته، لم يعد يفكر إلا في العشرين ألف فرنك. كان يفكر دون شك بنجاته بجلده لكنه كان يفكر أكثر في العشرين ألف فرنك.

أصغر أبنائه كانوا في المدرسة. ابنته البكر كانت قد ذهبت إلى مخازن السعر الموحد التي تعمل فيها بائعة. وذهبت زوجته إلى السوق.

عاد إلى الصعود إلى غرفته الضيقة، تسلق طاولته حيث جلس وبدأ يعمل. لم يكن سوى خياط ارمني صغير، تركي أو سوري - لم يكن، هو نفسه، يعرف عن ذلك شيئاً لكثرة ما جعلوهم، هناك، يعبرون حدوداً، بمئات من الأشخاص المساكين بل بألوف، كما تنقل سوائل من وعاء إلى آخر. لم يذهب، إن صح هذا القول، إلى المدرسة، ولم يعامله أحد، أبداً، كرجل ذكي.

السيد لابيه، في الجهة المقابلة، كان مشغولاً بوضع قبعات في قوالب. إذا لم يكن يبيع الكثير منها، فإن أصدقاءه في مقهى السلام، كانوا، على الأقل، يطلبون منه تجديد قبعاتهم. بين حين وآخر، كان يرى في المخزن، بصدارة وكم قميص. بين حين وآخر، أيضاً، كان يسرع إلى الطابق الأوسط عبر السلم الحلزوني، مدعواً بضربة عكاز على الأرضية.

عندما عادت السيدة كاشودا من السوق وبدأت، كعادتها، تتكلم، وحدها، في المطبخ، ظهرت على الخياط الصغير بداية ابتسامة. ماذا كتبت الجريدة، بالأمس بين أشياء أخرى متفاوتة الصلة بالموضوع؟ ذلك أن الجريدة كانت تجري تحقيقها بصورة موازية لتحقيق الشرطة. كان هناك، أيضاً، صحفيون من باريس يعملون من جهتهم، على كشف القاتل.

«إذا استعدنا الجرائم واحدة واحدة يتبين لنا.....

أولاً أنها لم ترتكب في حي معين من المدينة، بل في أشد نقاط هذه الأخيرة تقابلاً. ويستنتج الصحفي، قائلاً: «فالقاتل يستطيع، إذن، أن يتنقل دون أن يلفت الانتباه. فهو، إذن، له مظهر عادي أو مطمئن لأنه، على الرغم من الظلام الذي يعمل ضمنه، يرغم، أحياناً، على المرور تحت فوانيس غاز أو أمام واجهات، إنه رجل لا يحتاج إلى مال لأنه لا يسرق.

وهو رجل دقيق لأنه لا يدع شيئاً للمصادفة. إنه، دون شك، موسيقي لأنه يستخدم، لخنق ضحاياه اللواتي يباغتهن من الخلف، وتر كمان أو فيولونسيل.

«إذا استرجعنا قائمة النساء اللواتي قتلهن.....»

ويصبح الأمر أشد أهمية في نظر كاشودا.

«...نرى بينهن ما يشبه صلة أسرية. يصعب إيضاح ذلك على وجه التحديد. من المؤكد أن أوضاعهن المدنية مختلفة جداً. الأولى أرملة ضابط متقاعد، أم ولدين متزوجين في باريس.. الثانية كانت تدير مخزناً صغيراً للخردوات وزوجها لا يزال موظفاً في البلدية. الثالثة....» قابلة، صاحبة مكتبة، صاحبة ريع، غنية إلى درجة كافية، تعيش وحدها في قصر خاص، نصف مجنونة - غنية أيضاً - لا ترتدي إلا اللون الخبازي، وأخيراً الآنسة مولار،

ايرين مولار، أستاذة البيانو. ويلاحظ الصحفي أن معظم هؤلاء النساء كن بين الثالثة والستين والخامسة والستين، وكلهن، دون استثناء، يتحدّرن من مدينتنا».

اسم ايرين هو ما أدهش الخياط الصغير. لا يتوقع المرء، عادة، أن تدعى عجوز إيرين، ويتوقع، أقل من ذلك. أن تدعى شوشو أو ليلي... لأنه ينسى أنها كانت، قبل أن تكون عجوزاً، شابة وكانت، قبل ذلك، أيضاً، بنتاً صغيرة.

لم يكن هناك شيء غريب، ومع ذلك، دار كاشودا حول هذه الفكرة الصغيرة ساعات وهو يعمل في بزة المفوض.

ماذا كان يجري في مقهى السلام مثلاً؟ كانوا أكثر من عشرة يلتقون كل بعد ظهر. كانوا يشغلون مراكز متنوعة. معظمهم كانوا ميسورين لأن من الطبيعي أن يكون الإنسان ميسوراً بعد الستين.

كلهم، تقريباً، كانوا يرفعون الكلفة بينهم في الكلام، وليس ذلك فقط، بل كانت لهم، أيضاً، مفرداتهم الخاصة، جمل قصيرة لم تكن لها معنى إلا بالنسبة إليهم، ممازحات لم تكن تضحك إلا العارفين. كان ذلك لأنهم ذهبوا إلى المدرسة أو إلى الثانوية أو إلى الخدمة العسكرية معاً!

لهذا السبب، بالضبط، كان كاشودا، وسيبقى، بالنسبة إليهم، غريباً، ولم يكونوا يدعونه إلى الإمساك بالورق إلاّ إذا نقصهم رابع على طاولة. وفي الجملة، انتظر، بصبر، خلال أشهر، فرصة أن يكون رابعاً.

- هل تفهم يا سيدي... المفوض؟ أراهن على أن ضحايا القاتل السبع كن متعارفات معرفة سادة مقهى السلام هؤلاء أحدهم للآخر. الأمر هو، فقط، أن العجائز لا يذهبن إلى المقهى، وهو ما يؤدي إلى ضياعهن عن بعضهن بسهولة. يجب أن نعرف ما إذا كن ما زلن يلتقين. كان لهن العمر نفسه تقريباً يا سيدي المفوض، إليك أمر آخر! هناك تفصيل يعود إلى ذاكرتي وذكرته الجريدة أيضاً، استخدمت بخصوص كل منهن، الكلمات نفسها، قيل إنهن كن من «أسر طيبة» وأنهن تلقين «تربية ممتازة».

لم يكن يتحدث إلى المفوض ميكو، ولا طبعاً إلى أي شرطي، بل كان يتحدث مع نفسه، كزوجته، كما يفعل، عادة، عندما يكون راضياً عن ذاته.

- افترض أننا عرفنا، أخيراً، كيف كان القاتل - أعني القبعاتي - يختار ضحاياه.....

ذلك أنه كان يختارهن مسبقاً، وكاشودا رأى ذلك حقاً. لم يكن يتجول عشوائياً في الطرقات لينقض على أول عجوز يلتقيها. والدليل هو أنه اتجه، مباشرة، إلى البيت الذي كانت الآنسة مولار (ايرين) تعطي، فيه، درس البيانو.

لا بد أن الأمر كان كذلك بالنسبة للسابقات. ومنذ ذلك الحين، يجب أن نعرف كيف يضع خطته، كيف ينشئ قوائمه.

ولكن نعم! لم لا؟ كان يتصرف، بالضبط، كما لو أنه وضع قائمة كاملة ونهائية. كان كاشودا يتخيله، جيداً جداً، عائداً إلى بيته، مساء، يشطب اسماً ويقرأ التالي، يحضر لضربته في أحد الأيام التالية...

كم عجوزاً أو عانساً كانت على القائمة؟ كم امرأة، في المدينة، ما بين عمري الثانية والستين والخامسة والستين، هنَّ من «أسرة طيبة» وتلقين «تربية ممتازة»؟

إذا عرفت الأخريات، الباقيات جملة، وإذا روقبن سراً، فسوف يقبض على القبعاتي، حتماً، في الجرم المشهود.

هذا ما كان الخياط الصغير قد وجده وحده، في غرفته الضيقة، جالساً على طاولته. ليس لأنه كان رجلاً ذكياً أو بارعاً. بل لأنه قرر أن يربح العشرين ألف فرنك، وكذلك، قليلاً، لأنه كان خائفاً.

عند الظهر، قبل أن يجلس إلى المائدة، نزل برهة ليتنشق الهواء على الرصيف وليشتري سجائر من الكشك القريب.

خرج السيد لابيه من بيته ويداه في جيبي معطفه، ولدى رؤيته الخياط الصغير، سحب إحدى يديه ليوجه إليه إشارة ودية.

كان هذا جيداً جداً. إنهما يتبادلان التحية، ويتبادلان البسمات.

كانت في جيب القبعاتي، دون شك، رسالة سوف يلقي بها في صندوق بريد. كان يكتب، بعد مقتل كل عجوز، رسالة يرسلها إلى الجريدة.

هذه الأخيرة التي استطاع كاشودا أن يقرأها، مساء، في «بريد اللوار» كانت تقول:

«يخطئ المفوض ميكو في تكوين خزانة ملابس كما لو كان عليه أن يقيم، بيننا، طويلاً. بقيت اثنتان وينتهي الأمر. تحية طيبة مني إلى صديقي الصغير المقيم تجاهي»

مقهى السلام هو الذي قرأ فيه الجريدة.

كان المفوض هناك، قلقاً على بزته لدى رؤيته أن الخياط لم يكن يعمل. كان القبعاتي هناك أيضاً، وكان، هذه المرة، يلعب مع الدكتور ورجل التأمين والبقال. إلا أنه وجد طريقة كي ينظر إلى كاشودا ويبتسم له ابتسامة ليس وراءها فكرة خفية تقريباً، وربما دون فكرة خفية إطلاقاً، كما لو كانا قد أصبحا صديقين حقاً.

عند ذلك فهم الخياط الصغير أنّ القبعاتي يستمتع بأن يكون لديه شاهد واحد على الأقل، شخص يعرف، رآه أثناء العمل، واحد يعجب به جملة. ابتسم هو أيضاً، ابتسامة مرغم قليلاً:

- يجب أن أذهب للعمل في بزتك يا سيدي المفوض.... تستطيع أن تجربها بعد ساعة.... جوستان!...

تردد. نعم أم لا؟ نعم!

- كأس من النبيذ الأبيض بسرعة.

الرجل الذي سيكسب عشرين ألف فرنك يستطيع، حقاً، أن يدفع ثمن كأسين من النبيذ الأبيض.

(٤)

حيث ينقذ خياط صغير غير مسيحي حياة الأم المقدسة أورسولا

كان ذلك مهيباً. كان هناك، أولاً، الجرس الذي شد الخياط الصغير حبله والذي لم تتوقف موجاته عن الارتكاس في البناء الكبير الذي يبدو مقفراً. تلك الواجهة الهائلة المبنية بالحجارة الرمادية وهذه النوافذ ذات المصاريع المغلقة التي كان يتسرب منها ضوء ضعيف، والباب الثقيل والمطلي جيداً بأزراره النحاسية الملمعة. لحسن الحظ، لم تعد السماء تمطر ولم تكن قدماه ملوثتين.

خطوات خفيفة. كوة تفتح، مسيجة كما في سجن، وجه ممتلئ وشاحب لا يكاد يرى، صوت خفيف لم يكن صوت سلاسل، بل خشخشة مسبحة.

كان موضع مراقبة دون أن يقول شيئاً:

- أود أن أتحدث إلى الرئيسة من فضلك....

في هذه اللحظة خاف. ارتعش. الشارع كان مقفراً. لقد اعتمد على لعبة الورق هل كان ممكناً للسيد لابيه أن يعطي مكانه للاعب آخر؟ وهنا يتعرض كاشودا لأكبر خطر.

لو تبعه القبعاتي لو كان القبعاتي في مكان ما في الظلام، فإنه لن يتردد، هذه المرة، على الرغم من ابتسامته منذ قليل، في الإجهاز عليه كما أجهَزَ على العجائز.

- الأم المقدسة أورسولا في المطعم.

- هل تسمحين بأن تقولي لها إن الأمر ملح، إنه مسألة حياة أو موت.

لم يكن وجهه، بالتأكيد، وجه مسيحي، ولم يأسف لذلك، أبداً، خلال حياته مثلما أسِفَ عندئذ. كان يحرك قدميه كرجل تسلطت عليه حاجة ملحة.

- عمن يجب أن أعلن؟

ولكن، فلتفتح الباب بحق الله!

- اسمي لن يعني لها شيئاً. اشرحي لها أن الأمر بالغ الأهمية....

بالنسبة إليه! بالنسبة للعشرين ألف فرنك!

ذهبت بخطوات خفيفة، غابت زمناً لا متناهياً، وقررت أخيراً أن تعود وتعالج ثلاثة أو أربعة أقفال مزيتة جيداً.

- اتبعني إن كنت تسمح، إلى حجرة المقابلات.

كان الهواء فاتراً، باهتاً، سكَّرياً قليلاً. كل شيء كان بلون العاج، مع أثاث أسود،وكان يسود الصمت إلى حد كانت تسمع معه تكتكة أربع أو خمس ساعات جدارية يجب أن يكون بعضها بعيداً.

لم يجرؤ على الجلوس. لم يكن يعرف كيف يقف. ترك ينتظر طويلاً، وفجأة ارتعش وهو يرى، أمامه، راهبة مسنة لم يسمعها تأتي.

تساءل: كم كان عمرها؟... ذلك أنه يصعب تقدير عمر راهبة طيبة.

- هل طلبت أن تتحدث إلي.

كان قد هتف أولاً من بيته، إلى السيد كوجا، زوج العجوز الثانية المقتولة، الذي كان موظفاً في البلدية. كان السيد كوجا لايزال في مكتبه، مكتب «الأشياء المفقودة» صاح بصبر فارغ:

- من على الهاتف؟

استغرق كاشودا بعض الوقت ليجرؤ على القول:

- هنا أحد مفتشي المفوض ميكو... نريد أن نسألك يا سيد كوجا، عما إذا كنت تعرف أين درست زوجتك....

درست في دير الحبل دون دنس بحق الله! كان ذلك محتوماً، على اعتبار أنهم تحدثوا عن تربية ممتازة...

- اعذريني أيتها الأم....

كان يتلعثم. لم يعتريه هذا الارتباك طيلة حياته أبداً.

- أود أن أحصل على قائمة بالتلميذات اللواتي مررن بمؤسستكم واللواتي يبلغن، اليوم، عمر الثالثة أو الرابعة والستين.... أو....

- عمري خمس وستون سنة.

كانت تظهر وجهاً بلون الشمع الوردي وعينين زرقاوين صافيتين. كانت، وهي تراقبه، تلعب بحبات السبحة الثقيلة التي تتدلى من حزامها.

- يمكن أن تموتي أيتها الأم.....

كان يتناول الأمر بصورة سيئة. كان مذعوراً. كان كذلك، خاصة، لأنه بدأ يتأكد من الحصول على العشرين ألف فرنك.

- الآنسة مولار درست هنا، أليس كذلك؟

- كانت واحدة من ألمع تلميذاتنا.

- والسيدة كوجا؟

- ديجاردان، وهو اسم عائلتها قبل الزواج.....

- اسمعي أيتها الأخت.... إذا كان هؤلاء الأشخاص في الصف نفسه....

- كنا في الصف نفسه..... ولذلك في هذه الأوقات....

لكنه لم يكن لديه الوقت للإصغاء إليها.

- إذا كنت أستطيع الحصول على قائمة بالآنسات اللواتي كن في ذلك العهد.

- هل أنت من الشرطة؟

- كلا يا سيدتي... أعني أيتها الأم..... ولكن الأمر هو نفسه..... تصوري أني أعلم!

- تعلم ماذا؟

- أي أني أعتقد أني سأعلم... هل يتفق لك أن تخرجي؟

- كل يوم اثنين كي أذهب إلى الأسقفية.

- في أية ساعة؟

- في الساعة الرابعة...

- إذا وافقت على إعطائي القائمة...

من يعلم؟ ربما كانت تعتبره القاتل. لكن لا! كانت هادئة، بل وصافية الذهن.

- لم يبق الكثير من تلميذات تلك السنة..... بعضهن متن، مع الأسف!... بعضهن متن مؤخراً.

- أعلم أيتها الأم.

- باستثناء أرماندين وأنا.....

- من هي أرماندين أيتها الأم؟

- أرماندين دوتبوا..... لا بدّ أنك سمعت عنها..... هناك أخريات غادرن المدينة وفقدنا أثرهن.... لكن انتظر! .... انتظرني لحظة.

ربما كانت الراهبات، بعد كل شيء، سعيدات، أيضاً، بإيجاد تسلية. لم تغب سوى بضع لحظات. عادت ومعها صورة فوتوغرافية مصغرة لمجموعة فتيات على صفين يرتدين جميعهن اللباس الموحد، الشريط نفسه مع ميدالية ذات شكل متصالب، قبيحات وجميلات، وكانت بينهن واحدة هائلة الحجم تشبه دمية.

وقالت الأم بتواضع:

- هذه أنا.....

ثم أشارت بإصبعها إلى فتاة هزيلة وقالت:

- هذه السيدة لابيه، زوجة القبعاتي... هذه الحولاء قليلاً هي.....

كان القبعاتي على حق. من بين اللواتي ما زلن على قيد الحياة وما زلن يسكنّ المدينة، لم يبق سوى اثنتين، فضلاً عن زوجته، هما الأم أورسولا والسيدة دوبتوا.

- السيدة لابيه مريضة جداً.... ينبغي أن أذهب لأراها يوم السبت، كما في كل سنة، لأن السبت القادم هو عيد مولدها، وقد حافظنا، نحن صديقات المدرسة، على هذه العادة....

- شكراً أيتها الأم.

لقد وجد ما يريد! كسب العشرون ألف فرنك. على كل حال، سوف يكسبها! كل ضحايا القبعاتي موجودات على الصورة. واللتان لا تزالان على قيد الحياة، بالإضافة إلى السيدة لابيه، هما، بديهياً اللتان أعلن القاتل عن نهايتهما القريبة.

- أشكرك أيتها الأم... من الضروري أن أذهب حالاً... ينتظرونني.

كان ذلك صحيحاً.... لن يتأخر المفوض ميكو عن المجيء كي يجرب بزته. ربما لم يكن الخياط يتصرف كما ينبغي. لم يكن معتاداً على الأديرة. لا يهم إذا اعتبر مجنوناً أو سيء التربية.

شكر، انحنى، سار نحو الباب متقهقراً. استبدَّ به خوف في البرهة التي اجتاز فيها البوابة، من فكرة كون القبعاتي ربما يكمن له في الظلام. والآن، كان، وهو خارج من حيث كان، في وضع جيد.

«أستطيع أن أقول لك، يا سيدي المفوض، من ستكون الضحية القادمة.... ستكون،على كل حال، واحدة من المرأتين اللتين سأذكر لك اسميهما.... قبل ذلك، أود أن تعطيني بعض الضمانات بخصوص العشرين ألف فرنك.....» هذا ما سوف يصرح به بصورة قاطعة، بوصفه رجلاً لايسمح بالتلاعب به. هل كان هو من اكتشف كل شيء؟

ولم يكن ذلك مصادفة، فقط، سيعرف جيداً كيف يلفت الانتباه إلى ذلك أمام الصحفيين. هناك، بالتأكيد، قطعة الورق الصغيرة في ثنية البنطال! لكن الباقي؟ ولكن الدير؟ من فكر في الدير؟ كاشودا وليس شخصاً آخر! بحيث أن الأم المقدسة أورسولا كانت تدين له بحياتها، وكذلك السيدة دوبتوا التي تعيش في قصر في الضواحي والغنية جداً.

كان يمشي بسرعة. كان يركض، و بين حين وآخر، يلتفت لينظر خلفه. بدأ يرى، فعلاً، بيته، دكانه. دخل كهبة ريح. كان يرغب في أن يصيح: «ربحت عشرين ألف فرنك!».

صعد إلى الطابق الأوسط. أضاء النور وأسرع إلى النافذة ليسدل الستائر. عند ذلك، بقي هناك، مسمراً في مكانه، مرتعش الركبتين. كانت ستائر الجهة المقابلة مفتوحة حتى آخرها، وهو ما لم يحصل أبداً. كانت الغرفة منارة وينكشف سرير كبير من خشب الجوز وغطاء أبيض ولحاف أحمر. كانت ترى، أيضاً، خزانة بمرآة وطاولة زينة ومقعدان مغطيان بالسجاد وصور مكبرة على الجدار.

كان على اللحاف رأس خشبي، وكان في وسط الغرفة، رجلان يتحدثان بهدوء. المفوض ميكو وألفريد، مستخدم القبعاتي الشاب الأصهب.

كان يجب أن يكون الجو خانقاً لأنهما لم يقتصرا على فتح الستائر، بل فتحا النوافذ أيضاً. نادى كاشودا، عبر الشارع وهو يفتح نافذته:

- سيدي المفوض....

- لحظة يا صديقي.....

- تعال.... أعرف كل شيء....

- وأنا أيضاً.

لم يكن ذلك صحيحاً. لم يكن ذلك ممكناً. أو، بالأحرى، بلى. فقد تعرف كاشودا، وهو ينظر، بانتباه،إلى صورة بعيدة قليلاً إلى يمين السرير، لمجموعة فتيات الدير.

انحنى عبر النافذة فرأى شرطياً أمام الباب. تدحرج على السلم وعبر الشارع. صاحت به زوجته:

- إلى أين؟

إنه ذاهب للدفاع عن العشرين ألف فرنك.

- ماذا تريد؟

- المفوض ينتظرني.

دخل إلى دكان القبعاتي، تسلق السلم الحلزوني. سمع أصواتاً: صوت المفوض:

- في الجملة، منذ كم من الوقت أحسست أن السيدة لابيه كانت ميتة؟

وصوت امرأة حاد:

- كنت أشك في ذلك منذ زمن طويل... كنت أشك دون يقين... كان ذلك، خاصة،بسبب السمك.

كانت تلك هي الخادمة التي لم يرها كاشودا مواجهة لأن الجدار كان يحجبها عنه.

- أي سمك؟

- كل الأسماك: من الرنكة إلى الميرلان، إلى المورة.

- فسري كلامك.

- لم تكن تستطيع أن تأكل سمكاً.

- لماذا؟

- لأن ذلك كان يسبب لها ألماً... يبدو أن هناك أناساً هم هكذا... بالنسبة لي، الفريز والبندورة هما اللذان يسببان لي طفحاً... أكل منهما لأني أحبهما، والفريز بصفة خاصة، لكني أحك جسمي طوال الليل.

- إذن؟

- هل تعدني بأن أحصل على العشرين ألف فرنك؟

كاشودا الواقف على المنبسط شعر بالإحباط.

- بما أنك كنت أول من أخطرنا.

- لاحظ أني كنت مترددة على اعتبار أن المرء يخشى، دائماً، من أن يخطئ...وذلك دون أن نحسب أني، أنا أيضاً، عجوز... هل تفهم؟... احتجت إلى الشجاعة لأستمر في المجيء إلى هنا... على الرغم من أني كنت أقول لنفسي أنه لن يجرؤ على إيذائي وأنا المرأة التي تعمل لديهما منذ خمسة عشر عاماً.

- السمك؟

- آه! نعم، نسيت.... حسناً! إني أول مرة طهوتُ له فيها، سمكاً وأردت أن أعِدّ لحماً للسيدة، قال لي أن لا أتعب نفسي وأنها ستأكل الشيء نفسه... كان هو الذي يصعد بوجباتها....

- أعلم .... أكان بخيلاً؟

- كان حريصاً.

- ماذا تريد يا كاشودا؟

- لا شيء يا سيدي المفوض... كنت أعرف كل شيء..

- بأنّ السيدة لابيه كانت ميتة؟

- لا، بل بأن الأم المقدسة أورسولا والسيدة دوبتوا....

- بماذا تهذي؟

- بأنه سوف يقتلهما؟

- لماذا؟

ما جدوى أن يشرح له، أن يريه صورة الفتيات المصطفات بالميداليات فوق صدورهن، وهو الذي لم يعد الآن يستطيع الأمل في قبض العشرين ألف فرنك؟

ماذا لو يقتسمانها؟ تردد، رمق الخادمة العجوز، ولكنه فهم أنها صلبة وأنها لن تدعه يفعل..

- هناك، أيضاً، الحبل...

- أي حبل؟

- الذي اكتشفته منذ أيام وأنا أنظف ورشته. لم يشأ أبداً أن أنظف هذه الغرفة. فعلت ذلك في غيابه لأنها كانت نتنة. وراء القبعات، اكتشفت حبلاً يتدلى من السقف. سحبته وسمعت الصوت نفسه الذي كنت أسمعه حين كانت السيدة تقرع الأرضية، فوق، بعكازها... عند ذلك كتبت لك.

- ماذا عن بزتي يا كاشودا؟

- ستكون جاهزة يا سيدي المفوض... ولكن ماذا فعلتم بالقبعاتي؟

- تركت رجلين على باب مقهى السلام تحسباً لإمكان قطعه اللعبة... تلقينا رسالة من هذه السيدة الطيبة هذا الصباح.... بقي، الآن، أن نكتشف جثة السيدة لابيه المدفونة، احتمالاً، في القبو أو في الحديقة.

وجدوها بعد ساعة، لا في الحديقة بل في القبو حيث دفنت تحت طبقة من الاسمنت. كان هناك، الآن، كثير من الناس في بيت القبعاتي، مفوض الحي، القاضي، وكيل النيابة، طبيبان - بينهما زبون مقهى السلام -، وذلك دون أن يؤخذ في الحسبان أناس لم يكن لهم ما يفعلونه ويعلم الله كيف تسللوا.

كانوا يروحون ويجيئون عبر المنزل، يمسون كل شيء، كانت الدروج مفتوحة ومفرغة من محتوياتها، والفرش والوسائد مبقورة. كان في الشارع، في الساعة السابعة، أكثر من ألف شخص، وفي الساعة الثامنة، أرغم الدرك على صد جمهور غاضب كان ينادي بالموت.

كان السيد لابيه هناك، أيضاً، هادئاً ووقوراً، تائهاً إلى حد ما، والقيد في يديه

- بدأت بقتل زوجتك.....

رفع كتفيه.

- خنقتها كالأخريات.....

عند ذلك، دقق قائلاً:

- ليس كالأخريات..... بيديّ..... كانت تتألم كثيراً.

- أو، بعبارة أصح، مللت من خدمتها.....

- إن شئت.....أنت أغبى مما ينبغي.....

- ثم أخذت تقتل صديقات زوجتك...لماذا؟

رفع كتفيه، صمت.

- لأنهن اعتدن على المجيء لزيارتها بين وقت وآخر، ولأنك لم تكن تستطيع، دائماً، أن ترد عليهن بأنها لا تريد استقبال أحد.....

- إذا كنت تصر على ذلك... منذ أن حسبت نفسك بالغ الذكاء.

التقت نظرته بنظرة كاشودا وبدا على القبعاتي كما لو أنه يستشهد بالخياط الصغير بحيث احمر وجه كاشودا. كان خجلاً من هذا النوع من الحميمية الذي نشأ بينهما.

كان يمكن لكاشودا أن يهمس للمفوض:

- عيد الميلاد.....

عيد ميلاد السيدة لابيه الذي يوافق في يوم السبت المقبل..... ففي كل سنة، وفي الموعد نفسه، كانت كل صديقاتها، بمن فيهن الأم المقدسة أورسولا، يأتين لزيارتها جماعة. ألم يكن يجب تصفيتهن، جميعهن، من أجل هذا اليوم؟

سأل المفوض، أمام السيد لابيه، الطبيبين، بفجاجة، قائلاً:

- أهو مجنون؟ قل، إذن، يا سيد لابيه، أنت مجنون، أليس كذلك؟

رد الآخر بصوت عذب:

- هذا ممكن جداً يا سيدي المفوض.

ووجه غمزة إلى كاشودا. لم يكن يمكن أن يقوم أي شك: وجه إليه غمزة تواطؤ... كان يبدو كأنه يقول:

«الأغبياء... أما نحن، فنفهم بعضنا...»

إلا أن الخياط الصغير الذي أتى على خسارة عشرين ألف فرنك - لأنه، أخيراً، أتى، حقاً، على خسارة العشرين ألف فرنك التي كانت له تقريباً - لم يستطع أن يفعل شيئاً آخر سوى أن يبتسم ابتسامة صفراء قليلاً، لكنها ودية، رقيقة، على كل حال، لأنه كانت هناك، على الرغم من كل شيء، أمور عاشاها معاً.

الآخرون، زبائن مقهى السلام، درسوا دون شك، في المدرسة نفسها مع القبعاتي. ربما شاركه بعضهم الغرفة في الثكنة. أما كاشودا، فإنه شاركه، إن صح هذا القول، في جريمة.

وهذا خلق، على الرغم من كل شيء، حميمية أخرى!

شاطئ برادنتن، فلوريدا، آذار (مارس) ١٩٤٧

(٥)

نص مختلف
طوبى للبسطاء

ربما لم يكن يتصرف كما كان ينبغي أن يفعل. لم يكن معتاداً على الأديرة. لا يهم إذا اعتبر مجنوناً أو سيء التربية.

شكر، انحنى، توجه نحو الباب متقهقراً، وأخذ يركض على الرصيف. لم يتوصل، إلا بمشقة، إلى استعادة مشية أقرب إلى المشية الطبيعية شيئاً فشيئاً.

عشرون ألف فرنك!... كان ما أعلن عنه هو، حقاً، عشرون ألفاً... من أجل القاتل... من أجل القاتل فقط... ألم يكن يستحق أكثر منها وهو الذي كان يحمل قائمة مفصلة وكاملة بالضحايا السابقة والمقبلة؟

ذلك أنه، أخيراً، بقيت اثنتان، اثنتان، ستبقى لهما، بفضله، سنوات أخرى تعتنيان فيها احتمالاً، بكلاهما، بقلبيهما، بكبديهما، وتنتهيان إلى الموت في السرير في حضور طبيب وكاهن وأشخاص دامعي العيون حول كل منهما.

ألم يكن ذلك يستحق زيادة صغيرة؟

- أثبت ذلك!

إذا افترضنا أن يقال له:

- أثبت ذلك... أثبت أن المرأتين اللتين تتحدث عنهما ستكونان الضحيتين المقبلتين... بأي حق تزعم أن رجلاً مثل السيد لابيه ينوي قتل الأم المقدسة أورسولا؟ ... هيا أجب..

وكأنه يكفي أن يفهموا! أن يفهموا، جملة، لماذا وضعت هذه القائمة بصورة نهائية. قالت الأم الرئيسة متحدثة عن السيدة لابيه:

«..... ينبغي أن أذهب لرؤيتها يوم السبت . السبت القادم هو يوم ميلادها، وقد حافظنا، نحن صديقاتها في المدرسة، على عادة الاجتماع، في هذا اليوم في غرفتها، على سرير مرضها ....».

عشرون ألف فرنك... وربما خمسون ألفاً أو أكثر... السيدة دوتريف غنية، وعندما ستعلم بأنها لا تدين بحياتها إلا للخياط الصغير المثقل بأعباء أسرته...

الفهم! فهم ما كان يدور في الرأس الضخم للقبعاتي الهادئ الذي رآه كاشودا عشر مرات يومياً، خلال عدة سنوات، دون أن يعيره انتباهاً. مسألة ليست، في الجملة، أعقد، أبداً، من تلك التي تقرأ في الصفحة الأخيرة من الجريدة والتي لا يقبض الرابح، فيها سوى مائة فرنك!

دخل باراً صغيراً لم تطأه قدماه، من قبل، لأنه لم يكن يشرب، أبداً، في البارات.

- نبيذ أبيض.....

عشرون ألف فرنك....

- نبيذ أبيض.....

خمسون ألفاً!.....مائة ألف؟....من يعلم؟ .....

- نبيذ أبيض أيها النادل.....

كان يفكر في هذا وهو يرسل السائل إلى أعماق حنجرته على طريقة السكارى. سحقاً! الخمسون ألفاً، المائة ألف، تستحق ذلك، نعم أم لا؟

- قل لي أيها النادل.....

- سيدي؟

- لنفترض أن زوجتك..

كان النادل يصغي إليه فاغر الفم، وسكت، ابتلع كأساً أخيرة ومضى في طريقه.

كانت زوجته تنتظره وراء الباب.

- إنه فوق..

- من؟

- المفوض...

هتف بثقة لم تعهدها فيه:

- هذا أفضل!

لم يكن قد تساءل، قط، عما إذا كان صحيحاً أنه مكتوب لكل إنسان أن يعيش ساعة كثيفة، ساعة يعطي خلالها الحد الأعلى من نفسه، ولكنه كان يعيش هذه الساعة.

- مساء الخير يا سيدي المفوض.... أسألك العفو لكوني جعلتك تنتظر، لكني كنت مشغولاً جداً.

تماماً! كان يتكلم بلهجة منطلقة مثل أهمّ سادة مقهى السلام هؤلاء. لم يصل إلى حد نسيان حركاته كخياط، لكنه كان يجريها بدرجة من البراعة، كان يبدو، معها، أنه يقوم بألعاب خفة بالأجزاء التي لم تجمع، بعد، من بزة المفوض.

- جائزة العشرين ألف فرنك هذه، ليست، على الأقل، مزحة؟

- ألديك، أنت أيضاً، فكرتك الصغيرة؟

فكرة صغيرة! المفوض يسمي هذا فكرة صغيرة في حين أن كاشودا رأى آنسة مسنة تقتل تحت أبصاره، وفي حين كان يعرف الضحايا الأخرى وغادر واحدة منهن منذ قليل....

هه! هه!....

- اسمع يا سيدي المفوض.... لو كنت واثقاً فيما يتعلق بالجائزة.....

- أستطيع أن أسدي إليك نصيحة جيدة، في حال كنت تريد أن تربحها، هي أن تستعجل.....

لم يكونوا يصدقونه. كانوا يمزحون، كانوا يسخرون منه وحق الله! أضاف المفوض قائلاً:

- هناك، بالضبط، من ينتظرني في مكتبي... سيدة... من أجل الجائزة على مايبدو... هتفوا لي، منذ قليل، في المقهى...

سأل مرتاباً:

- ماذا تدعى؟

- هل يهمك هذا؟

- أليست راهبة؟

- لماذا تريد أن تكون راهبة؟

- لا يشير اسمها إلى نبالة، ولا تُدعى أرماندين؟

ذلك لأنه لم يكن مستعداً لترك العشرين ألف فرنك تسلب منه.

- إذا لم تكن هذه أو تلك فصدقني، يا سيدي المفوض، أنها ستروي لك ترهات.

وترك المفوض الكلمات التالية تصدر عنه:

- لا بدّ أنك تعرفها لأنها تعمل تجاهك.....

أصاخ السمع متصلب القسمات

- إنها خادمة صديقك القبعاتي.....

تُرك المفوض لنفسه دقيقتين كاملتين، محزوم الجسم، بصورة غريبة داخل بزة ليس لها سوى كم وليس فيها ياقة، ينظر إلى الخياط الصغير الذي كان، في ذروة العصبية، يروح ويجيء في الغرفة. وبين حين وآخر، كان فم كاشودا يتشنج في تكشيرة تهكمية.

لم يكن ذلك ممكناً. لم يكن هذا نزيهاً! لقد فكر في كل شيء إلا في هذه الخادمة الشريرة التي كان ينبغي على القبعاتي أن يبدأ بخنقها. ذلك أنه أي فضل كان لها، هي التي كانت تدخل إلى البيت، التي كانت تستطيع أن ترى كل شيء، أن تتقب في كل شيء؟ أكانت هل التي فكرت في دير الحبل بلا دنس؟ هل كانت تعرف الضحايا القادمة؟ ماذا إذن؟

- اسمع يا سيدي المفوض... لنفترض أني، في الحال.....

أدلة بحق الله! السؤال الشيطاني نفسه دائما، أدلة. ربما كانت الشريرة تملك أدلة حتى لو لم تكن سوى قطع ورق صغيرة التقطتها من القمامة!

- على وجه الإجمال، وبموجب العدالة، الجائزة لمن يصل أولاً، أليس كذلك؟

- بالطبع.....

- بحيث أنه إذا علمت الحقيقة مني قبل أن ترى هذه المرأة.....

في الجهة المقابلة كان هناك نور. كان هناك، دائماً، نور في هذه الساعة. لم يكن يظهر، وراء الستائر المطرزة، سوى هالة مبهمة، إلا أنه كان يمكن التعرف على شكل مقعد السيدة لابيه والبقعة البيضاء لوجهها الجامد دائماً.

- السبت عيد ميلادها

- ماذا تقول؟

لا يهم..... السبت ينبغي أن تجتمع، عادة، في غرفتها، الناجيات ممن تتراوح أعمارهن بين الثالثة والستين والخامسة والستين، ثم....

لم تكن تلك ساعة كاشودا، بل دقيقته، لأنه كان ينبغي أن يمضي سريعاً بسبب الشريرة. ما كان في رأس الخياط الصغير هو آلة خياطة، آلة تدور بكل سرعة، تكر أفكاراً بسرعة تبعث على الدوار.

- اسمع يا صديقي..

- عشرون ألف فرنك؟

- شريطة أن.....

شريطة أن يقدم دليلاً. خسارة أو ربح مضاعف!

- انتبه!

وأمسك بالمقص الثقيل، ذاك الذي استعمله في قص الجوخ الذي كان يكسو، بصورة غريبة، المفوض في هذه اللحظة. فتح النافذة، تصرف كمن أصابه مس، على اعتبار أنه قذف، عبر الشارع بالمقص، نحو النافذة المقابلة.

تجمد فجأة، ارتعشت كل أعصابه، كان الزجاج قد تحطم بدوي كبير. وكان مرغماً على التقاط أنفاسه قبل أن يبتسم ابتسامة انتصار، ابتسامة يسمح لأنفسهم، بها، مرة في العمر، صغار الخياطين من أمثاله لأن ما كانا يريانه، كلاهما، المفوض وهو، في مقعد زوجة القبعاتي المقعدة *كان رأساً خشبياً على كومة من خرق*.

- قولي لي يا سيدتي..

- عفواً، أنا آنسة..

فينيغر، خادمة السيد لابيه، اقتيدت إلى مركز الشرطة وفهمت جيداً، لدى رؤيتها مخدومها والقيد في قبضته، أنها وصلت متأخرة.

- أكنت تعلمين أن السيدة لابيه ميتة؟

- كنت أرتاب في ذلك.

- منذ زمن طويل؟

- منذ أشهر.....أي كنت أرتاب دون أن أرتاب في ذلك.....

- فسري كلامك.

- كان ذلك بسبب السمك...

- أي سمك؟

- كل الأسماك، من الرنكة، من المرلان، من المورة.... لم تكن تستطيع أن تأكل السمك.

- لماذا؟

- لأن ذلك يؤذيها... يبدو أن هناك أناساً هكذا.....لقد احتجت إلى الشجاعة، هيا، وإذا لم أحصل على قسم من العشرين ألف فرنك، فمعنى ذلك أنه لم تعد هناك عدالة....

تحرك كاشودا في ركنه، لكن المفوض وجه إليه إشارة مطمئنة.

- لا تنسوا أني امرأة عجوز، أنا أيضاً، وكان يمكن، على الرغم، من أني أعمل لديهم منذ خمسة عشر عاماً.....

- السمك؟

- حسناً! أعددت له، ذات مرة، سمكاً وأردت أن أعد لحماً للسيدة، فقال لي إن ذلك لم يكن ضرورياً.. كان هو الذي يصعد إليها بطعامها، الذي ينظف ويرتب المكان فوق.. ثم كان هناك الحبل أيضاً.....

- أي حبل؟

- ذاك،الذي اكتشفته في الأسبوع الماضي، وأنا أنظف الورشة... لم يكن يريد أن أنظف هذه الغرفة... فعلت ذلك في غيابه لأن الرائحة كانت نتنة.. ووراء القبعات، اكتشفت حبلاً يتدلى من السقف.. كان يحدث بشده، صوتاً كالذي

كانت تحدثه السيدة، سابقاً، بعكازها الذي كانت تقرع به الأرضية... فيما يتعلق بالعشرين ألف فرنك، أنبهكم إلى أني سأرى رجل قانون.

كاد كاشودا ينتصب مرة أخرى. وكان السيد لابيه يبتسم هادئاً ووقوراً.

- على وجه الإجمال، بدأت بقتل زوجتك....

رفع كتفيه

- خنقتها كالأخريات...

- ليس كالأخريات أيها المفوض... خنقتها بيدي... كانت تعاني كثيراً...

- بعبارة أصح، تعبت من خدمتها.

- إذا شئت ... أنت غبي جداً.

- ثم أخذت بقتل صديقات زوجتك.. لماذا؟ ولماذا بهذا الايقاع السريع؟

عند ذلك، ربع كاشودا إصبعه كما في المدرسة وهتف قائلاً:

- بسبب عيد الميلاد...

تدخل الشرطي قائلاً:

- أرجوك....دع السيد لابيه يتكلم.

قال هذا الأخير مؤكداً كلام الخياط الصغير:

- صحيح.... إنه على صواب... كان ينبغي تصفيتهنّ، جميعهن، قبل يوم السبت القادم...

غمزة عين، هذه المرة، لكاشودا، له وحده. لا يوجد أدنى شك في هذا الصدد، وكانت غمزة عين متواطئة. كان يبدو أنه يقول:

«سوف يستمرون، مع ذلك، في التخبط... نحن الاثنان نفهم بعضنا...»

ولم يكن الخياط الصغير الذي أتى على كسب عشرين ألف فرنك، وربما أكثر، سوف نرى ذلك فيما بعد، يستطيع أن يفعل أقل من الابتسام.

ابتسامة مرتبكة قليلاً، ولكنها ودية، عطوفاً في كل الأحوال، أثارت استنكار الخادمة.